يسلي مقران

# الحركة الدينية والاصلاحية في منطقة القبائل

## 1945-1920





يسلي مقران

# الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل

## 1920 - 1945

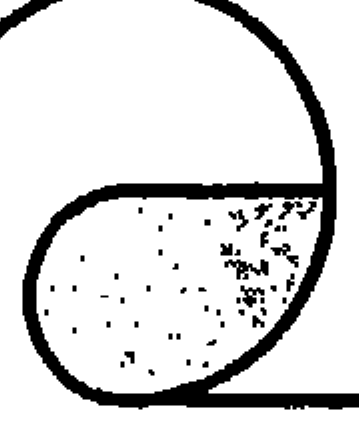



الأمل

الإيداع القانوني: 3078- 2006
ردمك: 7- 18- 883- 9961

الأمل

دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع
026 21 96 55    026 21 07 21
Email : EDITION_ELAMEL@hotmail.com



# الإهداء

الحمد لله فاتح كل شيء، وتمام كل نعمة...

إلى روح والدي الكريمين وإلى علماء

الزواوة الأحياء منهم والأموات

إلى الباحثين وطلاب العلم،

إلى أولئك الذين يسعون ويجدون من أجل

اكتشاف الحقائق وإزالة الغموض

ومحو الدّرس الذي أصاب تاريخنا

الإسلامي

أهدي هذا العمل المتواضع

## تصدير

بقلم أ.د/ أبو القاسم سعد الله

لماذا سلطت الأضواء في السنوات الأخيرة على منطقة القبائل أكثر من غيرها من مناطق الوطن، هل يرجع ذلك إلى أن أهلها أكثر من غيرهم نشاطا وحيوية وتعلما؟ هل يرجع لقرب المنطقة من العاصمة ومن موقع القرار في السلطة؟ هل لأن كثيرا من أهلها موجود في الخارج، خصوصا في فرنسا، مما يجعلهم أكثر صلة بالثقافات وأكثر عرضة للتيارات والمؤثرات؟ هل لأنها منطقة لم تدخل التاريخ إلا منذ الدولة الحمادية في بجاية، وربما منذ تأسيس الإمارات العربية الشريفة كإمارة كوكو وإمارة مجانة، بل منذ ظهور المرابطين والأشراف في زواياها المنتشرة في قمم وسفوح الجبال؟ هل للسياسة الفرنسية الإستعمارية دخل في تسليط الأضواء على المنطقة حيث استعملت "سياسة الجزرة والعصا" فضربت أهلها بيد من حديد أولا ثم أخذت في تقريبهم كأنهم جزائريون "متميزون" أو ممتازون؟

أسئلة كثيرة وأجوبة قليلة بدت لنا ونحن نتصفح عمل الأستاذ مقران يسلي الموسوم بالحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل من 1920 إلى 1945، فهو عمل يجيب على كثير من الأسئلة التي طرحناها ويكشف عن خلفيات المنطقة المتمثلة في تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي. وقد بذل جهدا كبيرا في الوصول إلى المعلومات التاريخية ثم في تمحيصها وتقديمها للقراء سائغة سهلة، ولكنه لا يدعي أنه جمع كل الحقيقة، كما أننا لا نعتقد أنه وصل إلى الكثير من الحقيقة، ومع ذلك فالكتاب يمثل خطوات هامة في الطريق الصحيح. ولا ندري إن كان جميع القراء سيتفقون معه في جعل بجاية هي القطب الثاني-بعد تيزي وزو- لمنطقة القبائل، وحتى إذا صح ذلك فإنه يصح على العهد الفرنسي وليس في جميع العهود، ذلك أن بجاية وجوارها كانت تدور في فلك الأندلس والإمارات الإسلامية التي كانت القيروان عاصمة لها. أما في العهد الحفصي فقد كانت بجاية محسوبة على تونس وقسنطينة. ولكن مكانة بجاية

ضعفت وأفل نجمها في العهد العثماني مما جعل أهلها وما جاورهم يتجهون إلى قسنطينة أو إلى جزائر الثعالبة.

أما تيزي وزو فهي مدينة حديثة العهد كقطب للمنطقة، وليس لها جاذبية تاريخية ولا تأثير حضاري كالذي لبجاية أو حتى مشدالة وحمزة (البويرة) ودلس، فكيف أصبحت تيزي وزو هي قطب الرحى لمنطقة القبائل ومركز الجذب في النهضة السياسية والإصلاحية والاقتصادية، بعد أن تطورت إداريا؟ وكيف أصبح أهلها الأشداء الملتصقون بجبل جرجرة هم أصحاب الكلمة على الحضر من أهل بجاية الذين تربوا في النعومة والرفه الاقتصادي؟ أليس هناك تكرار لنظرية ابن خلدون في تغلب العصبية البدوية (الجبلية) على الرقي الحضاري الذي اشتهرت به بجاية؟ ذلك ما يكشف هذا الكتاب عن جزء منه على الأقل.

يريد الأستاذ مقران يسلي بالحركة الدينية النشاط الإسلامي والنشاط المسيحي في المنطقة، فالمساجد والزوايا وعمارتها بالطلبة والشيوخ والمرابطين ومناهج التعليم ونمط العيش كلها تدخل في النشاط الديني الإسلامي، وكان لهذا النشاط تاريخ عريق يرجع إلى عهود المرابطة في الثغور دفاعا عن الإسلام وردا لغارات الأسبان وغيرهم على سواحل عنابة والقالة حيث نشأت الربط المجهزة بوسائل الدفاع، عبر بجاية ودلس وشرشال. وحين نهضت الدولة العثمانية وممثلتها الإيالة (الدولة) الجزائرية بدور الدفاع عن الإسلام تحولت أغلب الربط إلى زوايا للتعليم وجمعيات لأفعال الخير والإحسان للفقراء وفداء الأسرى وشكلت هذه الربط خطا داعما للمجاهدين في البحر والبر. وحتى لا تبقى الجهود مشتتة التف الأتباع والمريدون في جمعيات وتنظيمات أهلية أصبحت تعرف بالطرق الصوفية حيث الولاء للمرابطين أو لأحفادهم وللمقدمين وأنصارهم. فكانت منطقة القبائل من أوائل المناطق التي شهدت هذه التنظيمات والتجمعات حول الزوايا والطرق الصوفية التي منها الشاذلية والزروقية والرحمانية...

كما أن النشاط الديني المسيحي قد تمثل في حركة التنصير التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية في المنطقة، كما لحق بها ونافسها النشاط الديني للمبشرين البروتستنت أيضا. بدأ التنصير في منطقة القبائل منذ الأربعينات من القرن 19 حين

غزت القوات الفرنسية المنطقة في عهد المارشال بوجو الذي ينعتونه بقاهر المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، ثم تدعمت واشتدت بعد تغلب القوات الفرنسية على المقاومة المحلية سنة 1857، (معركة إيشريضن) الشهيرة التي برزت فيها فاطمة نسومر. وفي عهد الإمبراطورية الثانية نشطت حركة التنصير وتعددت الكنائس وتنافست فيما بينها سيما أثناء عهد المجاعات والكوارث الطبيعية: 1866-1868. ثم عرفت المنطقة عهد (الأندجينا) وهي مجموعة القوانين والإجراءات التعسفية التي اتخذها الفرنسيون لتقييد حرية الأهالي في الجزائر كلها ومعاقبتهم بعد ثورة 1871 التي ذهب ضحيتها الآلاف من القتلى والجرحى والمشردين الذين انتزعت أملاكهم وأراضيهم وجردوا من حقوقهم وواجهوا الضرائب وأحكام الإعدام. لقد استغلت الكنيسة هذا الظرف العصيب ونشطت كما لم تنشط من قبل، وجاءها الدعم الرسمي والشعبي والبابوي. ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفرنسية اهتماما خاصا بالمنطقة، وأخذت تخطط بهدوء وعلى مدى بعيد للفصل بينها وبين بقية مناطق الوطن، عن طريق تشريعات جديدة في القضاء والإدارة والتعليم والسياسة:

- انتزاع الحكم من يد "الجماعة" ثم إعادته بعد حين تحت شروط جديدة.
- فرض التعليم الابتدائي على بعض أبناء المنطقة دون سواهم من أطفال الجزائر.
- فصل "العرف القبائلي" عن الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية.
- فصل نواب القبائل في المجلس المالي عن بقية النواب المسلمين في نفس المجلس.
- توزيع معلمي القبائل الناطقين بالفرنسية على مدارس المناطق الناطقة بالعربية لإحداث التمايز والفتنة بين المواطنين.

بينما اهتمت حركة التنصير بنشر التعليم الفرنسي بين أبناء القبائل وإقامة المصحات والملاجئ ومساعدة المتنصرين على الهجرة وتشجيعهم على الاختلاط بالعناصر الأوروبية، كانت إدارة الشؤون الأهلية التابعة للحكومة تتعامل مع الكنيسة

وتقدم إليها المساعدات في الخفاء (لأن فرنسا أعلنت عن فصل الدين عن الدولة منذ 1905 أي أنها دولة لا ئكية/ لا دينية) في ظاهر الأمر على الأقل.

هذه الأنشطة المختلفة كرس لها الأستاذ مقران يسلي حيزا هاما من كتابه، وعرفنا من خلال دراسته العلاقة المتوترة التي كانت بين رجال الدين -أهل الزوايا والمريدين- وغامة المسلمين في المنطقة من جهة وبين رجال الكنيسة من آباء بيض وأخوات بيضاوات من جهة أخرى. لقد كان رجال الدين المسلمون تحت رعاية الشعب أما رجال الكنيسة فقد كانوا تحت حماية السلطة الاستعمارية التي كان يمثلها إداريون وخبراء في الشؤون الأهلية من أمثال كميل صابتييه ودومنيك لوسياني وجان سيرفييه. لقد كانت المعركة سجالا بين الطرفين ولكنها كانت معركة هادئة وحازمة.

في هذا الجو المشحون ظهرت الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل. كانت روح الإصلاح متأصلة في المنطقة، وهي ترجع إلى دور المهاجرين الجزائريين في المشرق، سيما بلاد الشام، فالعلماء الذين كانوا ينشطون هناك لصالح النهضة العربية الإسلامية في الشام كان كثير منهم من أصول جزائرية مهاجرة، وفيهم من يرجع إلى منطقة القبائل خاصة، وكانت بين هؤلاء النشطاء وعلماء الزوايا وبعض الموظفين لدى السلطة الفرنسية في المنطقة صلات عائلية ومراسلات وزيارات.

وفي هذا الصدد نذكر الشيخ طاهر الجزائري السمعوني ووالده الشيخ صالح وابن أخيه الضابط سليم الجزائري وبعض العلماء المهاجرين من دلس وبجاية وبني يني والأربعاء نات إيراثن ومشدالة وبني ورتلان. فقد كانت بين بعض هؤلاء المهاجرين وعلماء من أمثال السعيد بن زكري وأبي يعلى الزواوي مراسلات ومذاكرات. وعن طريق هؤلاء كانت تصل مجلة المنار الإصلاحية لمحمد رشيد رضا ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب وكتب عبد الرحمن الكواكبي وأخبار النهضة العربية الإسلامية في العراق ومصر والشام والحجاز، فكانت منطقة القبائل قد اتصلت بالحركة الإصلاحية الإسلامية والنهضة العربية مبكرا، أي قبل أن تتصل بها على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لاحقا.

ولما شرع الشيخ ابن باديس في حركته التعليمية والإعلامية (الصحافة والجولات الشخصية في أنحاء الجزائر) تعاون مع رجال العلم في المنطقة، وفيهم بعض رجال الطريقة الرحمانية، وكان من تلاميذه البارزين الشيخ الفضيل الورثلاني وسعيد صالحي والربيع بوشامة، كما عادت من المشرق العربي شخصيات علمية مؤثرة أمثال الشيخ أرزقي الشرفاوي والشيخ المولود الحافظي اللذين درسا في الأزهر الشريف، وكلاهما ترك بصماته على المنطقة، والشيوخ الهادي الزروقي، ويحي حمودي وعلي أولخيار...

امتدت أنشطة جمعية العلماء بعد أن دخلها عدد من رجال العلم والإصلاح من المنطقة، إلى المدارس العربية الإسلامية الحرة تنشئها وتوسع مداها فأصبحت تتعاون مع الزوايا من جهة وتنافس مراكز التعليم الكنسي من جهة أخرى. وعرفت المنطقة صحوة علمية وإصلاحية استمرت إلى عهد الثورة حتى أن عددا من زعماء هذه الصحوة كانوا تلاميذ في هذه المدارس التي أثمرت ثمارا طيبة. ولم تكتف جمعية العلماء بنشر العلم والإصلاح في المنطقة بل هاجرت مع المهاجرين في فرنسا فأرسلت إليهم من يعلمهم شؤون دينهم واللغة العربية في ديار الغربة فأسس هؤلاء الدعاة النوادي التهذيبية والمدارس حتى لا ينقطع الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد. ومن العلماء الذين نشروا حركة الإصلاح في فرنسا وساهموا في تهذيب وربط الجالية المهاجرة بالوطن والإسلام نذكر تلاميذ الشيخ ابن باديس الذين سبق ذكرهم: الربيع بوشامة والفضيل الورثلاني وسعيد صالحي، بالإضافة إلى سعيد البيباني، وكان هؤلاء أنفسهم من نخبة الحركة سيما الورثلاني وبوشامة، فالأول خطيب مفوه بالعربية الفصحى التي فاق بها خطباء المشرق، والثاني شاعر ذواق له ديوان شعر في موضوعات شتى.

وقد تتبع الأستاذ مقران يسلي هذا النشاط في منطقة القبائل في مختلف اتجاهاته، كما قلنا، ونحن لا نتمنى سوى أن يتابع ما نشر في اللغتين العربية والفرنسية حول موضوع النهضة والإصلاح في منطقة القبائل، وأن يجعل كتابه هذا يتجاوب مع الأحداث ويتماشى مع التيارات التي تعرفها المنطقة. وإذا اقتضى الأمر فإن عليه أن

يكتب عملا جديدا يبدأه من حيث انتهى في هذا الكتاب لأن المنطقة، كالجزائر كلها تشهد تطورات سريعة، وهي واقعة تحت الأضواء الكاشفة لأهمية موقعها وانتشار أهلها في الجزائر وفي ديار الهجرة المشرقية والغربية. ونحن نعرف أن الأستاذ يسلي قادر على ذلك (إن شاء الله) علما وطموحا واطلاعا. وبذلك يكون قد أدى للجزائر والحضارة الإسلامية خدمة جليلة.

أ.د أبو القاسم سعد الله

ابن عكنون، يوم 11 يونيو 2005

## مُقدّمة

إنّ اختياري للحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل كموضوع للبحث في الفترة ما بين (1920 - 1945) يعود أساسًا إلى انعدام البحث المنهجي حول الموضوع بالذات. بحيث أن ما نقرأه في الكتب والجرائد والمجلات يدور كله حول الحركة الإصلاحية الجزائرية العامة. أما النشاطات والجهود التي قام بها المصلحون ممن كانوا ينتمون للمنطقة أو غيرهم في النواحي العلمية والدينية والإصلاحية، وما تعرضوا له من دسائس الاستعمار والمبشرين فلا يوجد له أثر كبير في كل ما كتب حول الموضوع، ما عدا بعض الشذرات وهي قليلة بحيث لا تفي بالغرض المطلوب. ولذلك كان اهتمامي بالموضوع كبيرًا.

ومن الدوافع التي دفعتني إلى الاهتمام بهذا الموضوع والكتابة فيه ما كنت أسمعه عن بعض المتحذلقين الذين ذهب بهم الحقد إلى حد الإنكار لأصالة المنطقة الدينية والإصلاحية والتشكك في قيم حضارتنا العربية الإسلامية. كما يعود اهتمامي بالموضوع أيضًا إلى ما كان يرويه لنا الذين عاصروا الفترة وعاشوا أحداثها.

ومن هنا تبدو أهمية هذا البحث في كونه أوّل دراسة تتناول الناحية الديني والإصلاحية في هذه المنطقة وفي فترة محددة بالزمان والمكان ويهدف البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف هي:

1 - ضرورة تجديد الصلة أو الروابط بين الماضي التليد والحاضر العتيد، وأعني بذلك العودة إلى ما تركه لنا المسلمون الأولون السلف الصالح. وذلك للاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم.

وهناك ملاحظة ينبغي التأكيد عليها هنا وهي أن هذه الحركة تندرج بشكل عام في إطار الحركة الإصلاحية الشاملة التي ظهرت في الجزائر في العشرينيات على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس.

2 – التأكيد للشباب الجزائري الصاعد على أن الجزائر المستقلة لم تنتصر على الاستعمار الفرنسي إلا عن طريق تمسكها الكامل، وإيمانها القوي بكل مقومات هذه الأمة، وهي الإسلام واللغة العربية والوطنية الجزائرية التي آمن بها أجدادنا وناضلوا من أجلها. وهو ما حدث بالفعل في أول نوفمبر 1954 أثناء اندلاع الثورة المباركة.

3 – شعوري وإحساسي العميقان بضرورة المساهمة في نفض الغبار عن تراثنا الثقافي الوطني باعتباره سجلا حافلا بالبطولات والأمجاد. وذلك حرصًا مني على تقييمه ووضعه في المكان اللائق به، وبالتالي تعريف الخلف برجال السلف عبر التاريخ، وذلك من خلال اطلاعنا – المباشر وغير المباشر – على أهم أعمالهم العلمية وآرائهم الفكرية والإصلاحية في الجزائر.

4 – الإشادة بمجهود معظم الزوايا والمساجد والنوادي الثقافية والتربوية في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، وذلك رغم سياسة التنصير والإدماج.

وقد اعتمدت في جمع مادة هذا البحث على الاستجوابات التي أجريتها لبعض الأشخاص الذين واكبوا هذه الفترة وعاشوا أحداثها. بالإضافة إلى ما كتب في الجرائد والمجلات الوطنية التي كانت تصدر في هذه الفترة، وإلى ما كتبه بعض العسكريين والمبشرين الفرنسيين الذين حلوا بالمنطقة بعد الاحتلال.

وقد واجهت في معالجة هذا الموضوع مشاكل كثيرة لعلّها تعود إلى حداثة الموضوع، لأنه أول بحث من نوعه – كما قلنا – وبالتالي ليست هناك دراسات سابقة تساعد الباحث في جمع مادة البحث. كما أن معظم الوثائق التي تتناول فترة الدراسة غير متوفرة بالقدر المطلوب. وذلك نظرًا لضياع معظمها خلال الثورة التحريرية.

ولعلّ أكبر مشكلة واجهتها هي أن ثلث المصادر التي استعملتها كانت أجنبية، وهي تشكل المادة الأولى لموضوع الرسالة. ولذلك فإنّ القارئ يلاحظ مبدئيًا قلة الاعتماد على الدراسات المطبوعة وبسبب هذه المشاكل كنت أشعر أحيانًا بالقلق واليأس والفشل في التغلب على هذا الموضوع. ولولا تشجيع وتوجيهات الأستاذ

المشرف الذي وقف بجانبي وصبر معي الكثير، لما وصلت إلى إتمام هذا العمل المتواضع الذي دام قرابة 4 سنوات.

وقد اخترت لبحثي هذا منهجًا تاريخيًا تحليليًا يعتمد على رصد الأحداث التاريخية ثمّ تحليلها تحليلاً موضوعيًا نقديًا، من أجل الوصول إلى معرفة الأسباب واستجلاء الحقائق كما هي، وبالتالي فهم التيارات المختلفة التي ساهمت مساهمة إيجابية في تحقيق النتائج من شأنها أن تلقي بعض الضوء على الأحداث لكي تتضح لنا على حقيقتها.

ويتكون البحث من مقدمة وخمسة فصول، ويتناول الفصل الأول الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي في الجزائر، وقد لاحظت من الناحية السياسية أن هذه الفترة كانت هامة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية باعتبارها فترة التكوين والنهضة والتطور للحركة الوطنية الجزائرية. كما أنها كانت فترة صراع وضغط على الجزائريين بهدف القضاء على الشخصية الجزائرية.

أما من الناحية الاقتصادية فتتميز الفترة بانتزاع الأراضي من أهلها الشرعيين قصد منحها إلى الأوروبيين، وقد كان الغرض من ذلك تجريد الفلاح الجزائري من أرضه. ومن الناحية الثقافية يشير الفصل إلى موقف الاستعمار من اللغة العربية والثقافة الإسلامية بشكل عام، باعتبارها المقوم الأساسي للشخصية الجزائرية.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن الحياة الدينية والثقافية في المنطقة ولاحظت أن أهم ما كانت تتميز به المنطقة كثرة العلماء والمؤسسات الثقافية المختلفة ولهذه المؤسسات قوانين عامة وخاصة. وتعتمد من الناحية الاقتصادية على الأوقاف الإسلامية والتبرعات الشعبية وحدها. وقد ركزت على أهم الزوايا التي خدمت اللغة العربية خلال فترة الدراسة وقبلها. ثمّ بيّنت مكانة الزاوية في المنطقة من النواحي الدينية والتعليمية والسياسية. وانتهيت إلى نتيجة هامة وهي أن الفضل في نشر اللغة العربية وحفظ الإسلام في هذه الربوع يعود إلى هذه المؤسسات القرآنية. وأخيرًا لاحظت أن للزاوية دورين هامين إيجابي وسلبي.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن سياسة التبشير والتنصير في المنطقة، فقد تناولت في شطره الأول الناحية النظرية باعتبارها الدعامة الأساسية التي حاول المبشرون من خلالها تبرير وجودهم في المنطقة من ذلك التنويه بالحضارة الرومانية المسيحية والحط من قيمة الحضارة العربية الإسلامية. أما الشطر الثاني فقد تناولت فيه الناحية العملية، وكانت تعتمد على وسائل كثيرة منها الأعمال الخيرية والتعليم وعلاج المرضى. وهي في نظرهم وسيلة هامة لجذب السكان إلى الديانة المسيحية. وبينت العلاقة بين هذه الوسائل ومرامي المبشرين. وتوصلت إلى نتيجة هامة وهي أنه رغم كل الوسائل فإنّ العمل التبشيري كان فاشلاً بسبب الحصانة الدينية التي يتمتع بها السكان.

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه بداية الحركة الإصلاحية في المنطقة وناقشت أهم العوامل التي ساعدت على نشأة هذه الحركة فيها. وتتبعت في الفصل الأخير أثر هذه الحركة من تأسيس المدارس والمساجد الحرة والنوادي الثقافية، وما قامت به من دور في ميدان الإصلاح الديني والتربوي. وبينت جهود العلماء المصلحين من خلالها ممن كانوا ينتمون إلى المنطقة أو غيرهم من الوافدين إليها خدمة للعلم والثقافة في هذه المنطقة.

ثمّ تعرضت لموقف الاستعمار من حركة التعليم العربي الإسلامي، الذي يتمثل في إغلاق المدارس والمساجد، وما تابع ذلك من الطرد والتشريد للمعلمين العاملين بدعوى إنهم مشوشون يعملون على نشر أفكار الوهابية والجامعة الإسلامية وسط السكان. ونظرا للدور الهام الذي اضطلع به أبناء المنطقة المصلحون أمثال الشيخ أرزقي الشرفاوي، خصصت له ترجمة موجزة، باعتباره شخصية إصلاحية بارزة بين رجال العلم والثقافة، فذكرت نبذة من حياته ونشاطه في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي.

وختمت البحث بخلاصة، سجلت في آخرها النتائج التي انتهى إليها البحث. بذلت هذا ولا أزعم لنفسي بأنني قد استوفيت الموضوع من جميع جوانبه، وإنّما حسبي إنني بذلت جهدًا متواضعًا وعانيت التجربة ومارستها بكل مشقاتها.

# الفصل الأوّل

## الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي في الجزائر

**أوّلا: – الوضع السياسي:**

تعتبر الفترة التي نحن بصدد دراستها (1920 – 1945) من أهم الفترات في تاريخ الجزائر الحديث وقبل بدايتها بعامين تمّ الإعلان عن نهاية الحرب العالمية الأولى، وقبيل نهايتها بأشهر قليلة انتهت الحرب العالمية الثانية التي وضعت حدا للنازية بكلّ أشكالها، وحقق العالم بذلك انتصارًا عظيمًا على الظلم والطغيان. ومن هنا تبدو أهمية هذه الفترة بأنها مرحلة تطور هام للحركة السياسية الجزائرية تمهيدًا للثورة المسلحة. وقد اشتد فيها الصراع بين الحركات الوطنية والاستعمار الذي كان يعمل على محو الشخصية الجزائرية بجميع أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية. وذلك بسبب رفضها المطلق لمخططات الاستعمار التي كانت تستهدف تنصير وفرنسة الجزائر حتّى يصبح المجتمع الجزائري مندمجًا في المجتمع الفرنسي.

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاثة فترات أساسية وهي:

**1– فترة التكوين السياسي (1920 – 1930)**

**2– فترة النهضة (1930– 1939)**

**3– تطور الحركة الوطنية (1939– 1945)**

**<u>الفترة الأولى</u>:** إنّ أوّل ما تتميز به هذه الفترة هو ظهور حركة الأمير خالد السياسية. وصدور جريدة "الإقدام" الناطقة باللغتين العربية والفرنسية. ولكن قبل أن أتعرض لهذه الحركة وغيرها من الحركات السياسية الأخرى التي برزت في هذه الفترة أرى من الواجب أن ألقي بعض الضوء على أهم العوامل الفكرية والسياسية التي ساعدت على تكوين هذه الحركة، وبلورتها خلال العشرينات. ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – انتعاش الثقافة الوطنية عن طريق نشر[1] مؤلفات بعض العلماء البارزين من العصر الماضي. ومن ذلك أعمال الورتلاني صاحب الرحلة، وابن مريم والغبريني، التي نشرت بين (1900 – 1910) وكلها تتحدث بصدق عن العهد الجزائري الذي يقول عنه أحد المؤرخين الجزائريين « إنه يوافق العصور الوسطى في أوروبا »[2] واطلع الجمهور على هذه المؤلفات وتبين أن له تاريخيًا حضاريًا حافلاً بالعلم والثقافة، والمواقف السياسية.

وأضاف بعض الكتاب إلى مثل هذه الأعمال عملا آخر بعنوان "تعريف الخلف برجال السلف" ترجم فيه لعدد كبير من الشخصيات التي ساهمت في التاريخ السياسي والثقافي للمجتمع الجزائري وهو أبو القاسم الحفناوي الذي اشتغل بالتدريس والصحافة والتاريخ.

2 – ظهور صحافة وطنية ووعي قومي كبير، وتأسيس نوادي وجمعيات محلية[3]. وكان نتيجة كلّ هذه الحركات شعور المسؤولين بمسؤوليتهم والقيام بواجباتهم نحو الوطن، ومقاومة الاستعمار الذي طالما احتل البلاد، محاولاً طمس الشخصية الوطنية. وقد كانت الصحافة الوطنية الرسالة الفعالة والأداة التعبيرية في فضح هذه السياسة والهجوم على الإدارة الفرنسية في الجزائر. وذلك لما أثارته هذه التطورات من مناقشات ورد فعل عنيف وسط الرأي العام الفرنسي.

---

1 – من أهم المؤلفات التي نشرت في هذه الفترة. تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم الحفناوي سنة 1910 وكتاب الرحلة للورتلاني سنة 1903، والبستان في علماء تلمسان لابن مريم، وعنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغريني.

انظر: د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، بيروت، 1969، ص 159.

2 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3 – المرجع السابق، ص 155.

3 – مقاومة الجزائريين لسياسة التجنيس[1] والاندماج والخدمة العسكرية المفروضة على الأهالي سنة 1912 تحت العلم الفرنسي. وكانت تدعو إلى تحقيق هذه الأغراض وإلى نبذ التعصب الديني في أسلوب الدعاية الفرنسية والتي تردد الكثير منها على ألسنة بعض النواب الأهالي والمتفرنسين الذين اندفعوا إلى تأييد السياسة الاستعمارية من أجل مصالحهم الخاصة، فحرضوا على التجنيس والاندماج، والمقصود بهذا مقاومة الحركة الوطنية والدينية في الجزائر.

وقد برز هذا الاتجاه في مشروع الوالي العام "موريس فيوليت"[2] (1925 – 1927) – الذي سأتعرض له في تحليل لاحق – وأمام هذه التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية الخطيرة التي كانت تهدف إلى ضرب الجزائريين في اعز ما بقي لديهم، كان ولا بدّ أن تنصب الجهود الوطنية لمقاومة السياسة الفرنسية التي تهدف إلى إدماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي.

4 – حوادث الحرب الكبرى: يرجع الفضل في بث الوعي السياسي وسط الجزائريين إلى الحرب الكبرى التي فتحت أعينهم على مختلف التطورات السياسية والآفاق العالمية الواسعة. وأفادتهم صفوف القتال بتجارب واسعة في ميادين الحياة كونت فيهم ظروفها الصعبة رجالاً أقوياء. وقد وصف أحد الكتاب وضعية الجزائر بقوله: « إنّها نقطة هادئة وسط منطقة هائجة »[3] بمعنى أنها في حالة جمود في أعين العابرين غير أنه بالرغم من ذلك فإن هناك تحركات في الخفاء قد تسبب قريبًا تلاطمات على السطح[4].

---

1 – AGERON Ch. Robert : Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954), T. 2, Paris , 1979, p. 391 et sq.

2 – كان واليًا على الجزائر فيما بين (1925 – 1927) وكان من دعاة إعطاء بعض الحقوق السياسية للأهالي عن طريق تجنيسهم بالجنسية الفرنسية. وهو صاحب الكتاب المشهور (هل تعيش الجزائر)؟ الذي نشره بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 321.

4 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

يشير هذا الكاتب إلى أن هناك تخوفات من الجزائريين قد تظهر في المجال الديني والسياسي. ورغم أن الحرب لم تؤد إلى أية نتيجة تذكر فيما يتعلق بالوضع السياسي في الجزائر. فإنّ ظروفها ونهايتها قد ساعدت على تغيير عقلية الناس. ويرى أحد الكتاب الفرنسيين أن الجزائريين كانوا واعين للفكرة التي كانت تدور من أجلها الحرب. وبخاصة بعض أعضاء "النخبة" والعلماء المتنورين، والعمال والجنود المجربين في صفوف الجيش الفرنسي. فقد كانت لهم فكرة واضحة عن الأسباب الحقيقية للحرب[1]. وأكثر المؤرخين متفقون على أن الجزائريين قد تعلموا من الحرب دروسًا لا تقدر بثمن. وقد جربوا الحياة الأوروبية ولامست عقولهم أفكارًا لم تتسرب إلى بلادهم أبدًا[2].

ومن هذه الأفكار التي تعلمها الجزائريون من الحرب المساواة والديمقراطية وحرية الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. كما جعلتهم كثيري النقد للسياسة الفرنسية في الجزائر بعد عودتهم إلى وطنهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الجزائريين يشعرون بمساهمتهم في انتصار فرنسا والحلفاء على حد رأي كاتب جزائري. والجدير بالذكر أنّه في 4 سنوات (1914 – 1918) قد تمّ تحويل حوالي (500) ألف نسمة من الجزائر إلى فرنسا منهم من التحقوا بصفوف الجيش الفرنسي ومنهم من كان عاملاً في المصانع الفرنسية والمؤسسات الاقتصادية. وقد اكتشفوا هناك مجتمعًا يختلف كلية عن مجتمعهم الأصلي فاطلعوا على العادات الفرنسية ونظام الحياة والسياسة وغير ذلك[3]. ولعل أول حزب سياسي منظم ظهر خلال هذه الفترة هو الحزب الإصلاحي بزعامة الأمير خالد. ظهر الأمير خالد في بداية العشرينات على المسرح السياسي يحمل الراية في سبيل نهضة جزائرية جديدة فقد علّق آماله على الشبيبة الجزائرية لتسير بالشعب في طريق النهوض بالأمة الجزائرية. ولكنه يتحسر تحسرًا شديدًا لأن أولئك

---

1 – المرجع السابق، ص 322.

2 – المرجع نفسه، ص 323.

3 – فرحات عباس: ليل الاستعمار، ترجمة: أبو بكر رحال، الرباط، ب.ت، ص 113 – 115.

الشباب ساروا في ركاب الغرب، وتنكروا لأصالتهم، ومن ذلك قوله: « ... من العجيب أن هذه الشبيبة التي لم تتبع إلا القبيح من التمدن الأوروبي تحس بإحساساتنا، وتتألم بآلامنا، وتتأثر من انحطاطنا وذلنا، وهي صاحبة الشعور والغيرة، ومع هذا فإنّها لم تهتد إلى سلوك الطريق الموصلة لإصلاح حالتنا التعسة »[1] بهذا يصف لنا الأمير خالد الآثار السيئة التي زرعها الاستعمار في نفوس الشباب. ولم يخف عليه أن ينبهنا إلى المشاعر المتصارعة التي كانت تعصر نفوسهم لأنهم راحوا ضحية هذا التيار الجارف الذي طوح بهم بعيدًا عن شخصيتهم، وكان من واجبهم أن يتمسكوا بها. واصدر الأمير خالد جريدة "الإقدام" الناطقة باللغتين العربية والفرنسية، وتهتم هذه الجريدة بقضايا الوطن السياسية والاجتماعية.

ولقد لعبت دورًا هامًا في المطالبة بالحقوق السياسية للشعب الجزائري في إطار الشخصية الجزائرية. هكذا قرر الأمير خالد الدخول في المعركة السياسية التي كانت تعيش فيها الجزائر. ومنحت فرنسا الجزائر بعض الحقوق الجزئية وحصرتها في عدد قليل من الأفراد وهي المعروفة بإصلاحات 1919، ولم ترض طبعًا الأمير خالد وجماعته. وبعد ذلك ظهرت حركة أخرى موالية للسياسة الفرنسية كان زعيمها الدكتور ابن ثامي، وبرز الخلاف بينه وبين الأمير خالد أثناء انتخابات البلدية في الجزائر العاصمة. وانتصر فيها الأمير خالد. وكانت فرصة سمحت للجزائريين أن يعبروا عن آرائهم السياسية[2].

وقد علّق على هذا الحادث الكاتب الإنجليزي "وورثام" قائلا: « إنّ الجزائريين قد برهنوا على أنهم مناورون شجعان في صناديق الانتخابات...»[3]. واغتنم الأمير خالد هذه المناسبة للتركيز على الجانب الديني وخاصة بعدما اتّضح له أن حركة (ابن ثامي) لم ترض بالتجنيس إلا في إطار الشريعة الإسلامية. ويلاحظ أن حركة الأمير

---

1 – الأمير خالد، مقال بعنوان: "ديننا وسياستنا لا يفترقان"، جريدة "الإقدام"، العدد 90، 1922/8/4.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 329 – 330.

3 – انظر: وورثان: مشاكل فرنسا في "الأطلنطي الشهير"، المجلد 30، فيفري 1922، ص 557، تعريب: د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 330 وما بعدها.

خالد كانت سياسية بالدرجة الأولى[1]. بحيث أنه اعتبر القضية الأساسية في مطالب الجزائر هي تقرير المصير للشعب الجزائري. ولهذا رفض الاندماج والتجنيس اللذين كانت تنادي بهما جماعة "النخبة". فقد كتب في جريدة "الإقدام": « إنّ الجزائريين لا يستطيعون قبول المواطنة الفرنسية داخل أي إطار غير إطارهم الخاص ». ثم قال: «لا تتحدثوا عن الاندماج»[2] وقد نبه جماعة النخبة "حركة ابن ثامي" إلى خطورة هذا الموقف وبعد ذلك اقترح الأمير خالد برنامجًا سياسيًا ضمّنه مجموعة من المطالب[3] نقتطف منها ما يلي:

1 – خلق جامعة جزائرية والتعليم الإجباري باللغتين.

2 – تطبيق القانون العام على كافة سكان الجزائر دون تمييز.

3 – المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات.

4 – إلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية.

5 – التمثيل النيابي للجزائريين والمساواة في التعليم والضرائب وفرص العمل.

6 – إلغاء قانون الجنسية المعروف بـ "سناتوس كونسولت" الذي صدر في عهد نابليون الثالث سنة 1865م الذي نص على أن الجزائري لا يمكن أن يتمتع بحقوقه السياسية إلا إذا تخلى عن الشريعة الإسلامية.

وقد لقي هذا البرنامج إقبالاً من طرف الجزائريين، وذلك لقيامه على فكرة المساواة، ورفضه لفكرة الاندماج التي نادت بها حركة ابن ثامي، زعيم الحزب المحافظ[4]، غير أن الفرنسيين الذين لم تعجبهم مطالب الأمير خالد، عارضوه معارضة شديدة إلى أن نفته فرنسا من الجزائر سنة 1925.

---

1 – الحركة الوطنية، ص 411.

2 – المرجع نفسه، ص 413.

3 – انظر: فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 138، 139.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 413.

ولم يكتف المستعمرون بنفي الأمير خالد بل عمدوا إلى مقاومة كل حركة يشتمون منها رائحة أنصاف القضية الجزائرية. ولا أدل على ذلك من مساعيهم الخبيثة ضد الوالي العام "موريس فيوليت" حتّى أبعدوه عن الولاية، ونصبوا مكانه معمرًا حاقدًا يدعى "بيار بورد"[1].

واستمر الأمير خالد في نشاطه سواء في فرنسا أو في المشرق العربي، في إيقاد شعلة الحركة الوطنية والوحي إلى اتباعه بحملها إلى الأمام. وفي سنة 1926 أنشأ هو وأصحابه حزبًا ثوريًا يسمى بحزب نجم الشمال الإفريقي. وبناء على رأي كثير من الكتاب فإنّ الأمير خالد قد أعطى للجزائر قيادة جديدة خلال العشرينات[2]. وفي هذا المعنى يقول الكاتب الإنجليزي "وورثام": « إنّه بشكل قاطع حزب وطني استوحى برنامجه من القرآن، ومن فكرة الاشتراكية، وأن عداءه القاطع للفرنسيين هو نفس عداء الوطنيين المصريين للبريطانيين»[3].

### حركة نجم الشمال الإفريقي:

إنّها منظمة عمالية إفريقية لا منظمة جزائرية كانت تمثل صوت الطبقات العاملة في كل من باريس وفرنسا. تأسست في باريس سنة 1926[4]، وكانت تضم ممثلين من الأقطار الثلاثة: الجزائر، تونس والمغرب. وقد عاشت هذه الحركة من 1926 حتّى بداية 1937 حيث قامت حكومة الاحتلال بحلّها، فخلفها في الميدان "حزب

---

1 – د. محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، إعلامها، (1903 – 1931)، المجلد الأول، الجزائر 1978، ص 295.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 423.

3 – مجلة "الأطلنطي الشهري" مقال بعنوان: "مشاكل فرنسا في شمال إفريقيا"، المجلد 30 فيفري 1922، ص 559، تعريب: د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 329.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، معهد البحوث والدراسات العربية سنة 1975، ص 125. انظر أيضًا: عبد الرحمن زوزو، دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919 – 1939)، الجزاء، ب.ت، ص 55.

الشعب الجزائري" الذي يعتنق نفس مبادئها، وتشكيلته كانت في غالبيتها من العمال والجنود المسرحين من الخدمة العسكرية إثر الحرب العالمية الأولى، وطلبة إفريقيا الذين كانوا يعيشون في فرنسا[1].

ولعل الأسباب التي أدت إلى بروز حزب نجم الشمال الإفريقي هي تلك الظروف القاسية التي عرفتها الجزائر خلال العشرينات، نتيجة سياسة القهر والقمع ضد القوات الوطنية المناهضة للاستعمار في الجزائر، وكرد فعل على هذه السياسة نظم الجزائريون في فرنسا تجمعات سياسية واجتماعية هدفها إنشاء صحف وطنية وعقد مؤتمرات لبث الدعوة، ونشر الوعي الاجتماعي والسياسي بين العمال[2]، دفاعًا عن مصالح مسلمي شمال إفريقيا من النواحي المادية والمعنوية والاجتماعية[3].

وكان هذا الحزب الذي يمثل عمال شمال إفريقيا يطالب منذ نشأته بالاستقلال للشمال الإفريقي كلّه، من أجل التخلص من ظلم الاستعمار الفرنسي، ومن فعالية هذا الحزب أنه أعطى الأهالي أملاً كبيرًا ووعدًا بالحرية وبالحياة السعيدة. ومن الصحف الهامة التي واكبت النجم في نشر دعوته "الإقدام" التي أسسها الأمير خالد سنة 1919. غير أن الصحيفة توقفت عن الصدور بعد نفي صاحبها من طرف الاستعمار تلبية لمطالب الكولون الذين اشتكوا من الجريدة لكونها خطيرة على هدوء إفريقيا الشمالية[4]. تقول بعض التقارير: إنّ أعدادها الأولى كانت عبارة عن دعوة للثورة ضد فرنسا[5]. وقد نضم حزب النجم الإفريقي اجتماعًا حضرته وفود غفيرة، ومن بين هذه الوفود الوفد الجزائري برئاسة السيد "مصالي الحاج" الذي تقدم ببرنامج طويل ومنه نقتطف ما يلي:

1 – إجلاء جيوش الاحتلال عن الوطن.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 425.

2 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3 – جوان غيليسي: الجزائر الثائرة، دار الطباعة، بيروت، 1961، ص 59، تعريب: خيري حماد. انظر أيضا: توفيق مدني: حياة كفاح، (1925 – 1954)، ج 2، الجزائر، ب.ت، ص 131.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 425، 426.

5 – المرجع نفسه، ج 3، ص 129.

2 – الاستقلال الكامل للجزائر.

3 – استرجاع الأراضي المغتصبة للأهالي.

4 – إلغاء قانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية الأخرى.

5 – حرية الصحافة والاجتماع، والحقوق السياسية والثقافية كتلك التي للفرنسيين.

6 – إنشاء المدارس العربية.

7 – تطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائريين.

بهذا استمر حزب نجم الشمال الإفريقي في العمل والنشاط إلى أن تصادم مع الحزب الشيوعي الفرنسي ودخل في صراع مع كل الأحزاب السياسية.

وفي سنة 1937 صرّح رئيس الحكومة الاشتراكي "ليون بلوم" بـإعلان حـل جمعية شمال إفريقيا[1]. وعلى الرغم من دسائس الاستعمار تجاه الحركة الإفريقية فإنّ نشاطها لم يفتر ففي سنة 1930 أصدر زعماؤه جريدة "الأمة" بعنوان عربي صـريح "جريدة وطنية سياسية للدفاع عن حقوق مسلمي إفريقيا الشـمالية" تحـت إدارة السـيد مصالي الحاج المتحدث الرسمي باسم النجم[2].

وفي نفس السنة دعا النجم كل الأهالي أن يقرأوا "الأمة" وهي كما صـرح بـه زعماؤها وسيلة تدافع عنهم، وتعلمهم وتثقفهم وهـي فيمـا يقـول أحـد مؤسسـيها: «ساعدوها واحموها، وحثوا غيركم على قراءتها، وانشروها في كل مكان لكي تصبح الراية والمركز الذي تجتمع من حوله جميع القوى الحية في إفريقيا الشمالية[3].

---

1 – انظر: أحمد توفيق مدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 136. انظر أيضًا: البرنامج، نشر في "الراية الحمراء" الجريدة العربية التي يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد أشار إليه ريني ثيري: الهجوم الشيوعي، في (أ.ف)، ماي 1927، ص 184، تعريب: د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 431، 432.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 427.

3 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وأول انتصار حققه النجم الإفريقي هو مشاركته في مؤتمر بروكسل في فيفري سنة 1927 الذي نظمته الجمعية المعارضة للظلم والاضطهاد[1]، وهكذا واصل نجم الشمال الإفريقي جهاده وتضحياته وأعلن وجوده بصفة سافرة علنية تحت اسم "حزب الشعب الجزائري" فاستمر رافعًا راية النضال والكفاح بصفة أقوى وأشد، وأكثر فاعلية، وذلك منذ شهر مارس 1937 مباشرة بعد حله.

1 – أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 137، 138.

**الفترة الثانية: – فترة النهضة (1930 – 1939)**

يلاحظ من خلال التحليل السابق أنه على الرغم من تجربة الاستعمار الطويلة في الجزائر فإن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يسيطروا على الموقف، وأن التيار الوطني كان أقوى من وسائل المقاومة التي استخدموها ضده، وتؤكد الوثائق[1] المعاصرة أن حالة التوتر لم تهدأ منذ الاحتلال، وعلى الرغم من سياسة الاستعمار – كما أشرنا إلى ذلك سابقًا – فإنّ الحركة الوطنية اكتسبت صلابة على مرّ السنين وعاشت تجارب مختلفة ونضجت وسط محاولات الفشل والنجاح وانتشر الوعي الوطني لدى مختلف الطبقات، وبرزت على المسرح عناصر جديدة، لم تكن واضحة خلال العقود السابقة، وتشكلت هيئات وأحزاب جديدة[2].

ولعل أول ما تتميز به الجزائر من الناحية السياسية في مستهل هذه الفترة وقوع حدثين بارزين وهما:

1 – الاحتفال المئوي الرهيب بعد مرور قرن كامل على احتلال الجزائر.

2 – ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائرية في شهر ماي 1931 بزعامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس كرد فعل عنيف ضد السياسية الفرنسية.

فعشية هذا الحادث دعت صحافة[3] العلماء نخبة الأمة إلى اليقظة والعمل لإنقاذ الشعب الجزائري من مخالب الاستعمار. وفي تلك الأثناء تمكنت "النخبة" المثقفة من التقرب نحو المجموعة الثورية واشتد ساعد الحركة الوطنية لمجابهة السياسة التعسفية في الجزائر.

**الاحتفال المئوي:** قامت سلطات الاحتلال باحتفالات ضخمة في كل أنحاء البلاد «دعت إليها الدنيا كلها»[4] – على حد تعبير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ولم تنته إلا

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 37.

2 – المرجع نفسه، ص 36.

3 – د. أنيس بركات: مقال بعنوان: "الحركات السياسية خلال سنة 1926 في الجزائر"، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، ج 1، الجزائر، 1980، ص 49.

4 – الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 21، القاهرة، 1966، ص 143.

في الخامس من شهر يوليو من العام نفسه. وقد قامت أثناءها باستعراض فرق جيشها وعلى نمط فرق جيشها الأول التي احتلت الجزائر منذ قرن من الزمن 1830م من حيث الملابس والأسلحة والتنظيم والموسيقى والأناشيد ووسائل النقل[1]. وقد دامت هذه الاحتفالات أكثر من ستة أشهر كلفت الخزينة العامة أكثر من 93 مليون فرنك[2] في ذلك الوقت. وغطت هذه الاحتفالات بدعاية واسعة للاستعمار ورسالته الحضارية المزعومة، فنكأت الجرح في الأعماق وأججت في النفوس لهيب النخوة الوطنية والغيرة الإسلامية.

ولعل الهدف من هذا العمل تذكير الجزائريين بالهزائم النكراء التي منوا بها على يد الجيش الفرنسي في معارك الاحتلال الأولى، والتي استمرت حوالي 70 سنة من (1830 – 1900) والتي استشهد فيها من أبناء هذا الوطن الغالي رجال ونساء عن حرية بلادهم واستقلالها، وذلك حتّى لا يفكروا في الثورة على الاحتلال في يوم من الأيام[3].

وكان هدف الاستعمار من خلال هذه الأعمال الإجرامية شل الحركة الوطنية الجزائرية، والقضاء عليها في المهد، بتمزيق معنويات الجزائريين، وفصل الشعب عن أصله، ورفض تاريخه، وامتهان كرامته، ومحق لغته ومسخ دينه. يقول أحد الفرنسيين: «بهذا الاحتفال نصلي صلاة الجنازة على الإسلام والعربية في الجزائر فقد قبرناهما إلى الأبد وصارت الجزائر فرنسية في كل أشيائها»[4].

وقد اعتبرت سلطات الاحتلال سنة 1930 بداية عهد جديد من الانتصارات في الجزائر بحيث رفع غلاتهم شعارات معادية للعرب والإسلام معلنين أنهم قد فتحوا الجزائر عنوة وأنهم افتكوها من الحضارة العربية الإسلامية وأعادوها إلى الحضارة الرومانية المسيحية التي ينتسبون إليها. وكانوا خلال ذلك يضربون بيد من حديد على كل محاولات

---

1 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 148، 149.

2 – AGRON Ch. R. op.cit., p. 391

3 – د. تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر، 1975، ص 64.

4 – نقلا عن: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط 1، ج 1، الجزائر، 1971، ص 92.

التنظيم السياسي بين الجزائريين معتبرين كل محاولة من هذا النوع تكفيرا بنعمة فرنسا والتبعية لدولة أجنبية. هكذا عملت فرنسا على خنق حركة الأمير خالد في المهد، كما حلت منظمة نجم الشمال الإفريقي، وأجبرت أعضاءها على الرضوخ، وخلقت حولهم فئة اشتهرت في تاريخ الجزائر بجماعة "بني ويي ويي". ووسط هذا الفراغ من المعارضة السياسية للنظام الاستعماري ظل الكولون هم السلطة الحقيقية في البلاد يديرون شؤونها وأحوالهم كما يريدون[1].

**رد فعل الجزائريين:**

رغم كل المناورات التي قامت بها سلطة الاحتلال في هذه الاحتفالات وما جرى خلالها من إهانة وخطب انصبت في معظمها على إهانة عقيدة الجزائريين وتهديد شخصيتهم الوطنية. فإن موقف الجزائريين كان قويّا وحافزًا لهم لكي يشمروا على سواعدهم في سبيل العمل من أجل تحرير وطنهم، والمحافظة على مقومات شخصيتهم في وجه تلك التهديدات. وهنا يرى أحد الكتاب الجزائريين أن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد ساعد على تدعيم الحركة الوطنية تدعيمًا كبيرًا[2].

ومن فوائد هذه الاحتفالات بالنسبة للشعب الجزائري أنها أيقظت من كان نائمًا ونبّهت من كان غافلاً. فأحس الأحرار في الجزائر بضرورة العمل الوحدوي، والتكتل من أجل تحرير البلاد من الظلم والاستعمار. والواقع أن هذا الاحتفال كان نقطة[3] تحول عظيم في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. ولذلك فإنّ سنة 1930 كانت في تاريخ الجزائر السياسي بمثابة سور عظيم ضرب بين ماضي طالما خيّم على الأهالي احتقارًا وذلاً، ومستقبل مشرق شعر فيه الجزائريون بشخصيتهم المتميزة، وألقى بسلطة

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 15.

2 – أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1956، ص 166.

3 – أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار الكتاب، الجزائر، ط 2، 1963، ص 71، 80.

الإدارة الاستعمارية في العواصف تثيرها ضدها أمثال جمعية "نجم الشمال الإفريقي" وجمعية "العلماء المسلمين الجزائريين"[1].

إنّ مهازل الفرنسيين سنة 1930 قد جعلت بعض الجزائريين يكتشفون الأخطار التي كانت تحدق بشعبهم، وبناءً على قول أحد الفرنسيين فإنّ بعض الجزائريين كانوا أثناء الاحتفال يصفون الأحوال السيئة لبلادهم ويتأسفون على شعبهم كأنه أصبح ميتاً[2].

وفي جوان وجويلية 1928 نشر حزب نجم الشمال الإفريقي بياناً في جريدة "الإقدام" الناطقة باسمه بعنوان "من أجل استقلال إفريقيا الشمالية" جاء فيه ما يلي: « أيها الجزائريون أعلنوا حقوقكم، أعدوا أنفسكم للاحتفال باحتلال بلادكم بطريقتكم الخاصة بتنظيم حركة واسعة ضد الإمبريالية»[3].

أما جريدة "المغرب"[4] فقد وجهت في 23 جوان 1930 لومها إلى "نخبة الشعب" الذين لم يحركوا ساكنا، ثمّ وجهت نداء للمفكرين الجزائريين لكي يظهروا للعالم أنهم قادرون على تكوين كتلة من المناضلين للدفاع عن وجود الأمة، ونفس الصحافة رددت العبارة القائلة: «إنّ الفرنسيين لن يحتفلوا بعد ذلك باحتفال مئوي ثانٍ»[5]. وقد صدقت الجريدة في هذا.

والحق أن الاحتفال المئوي وما تبعه من دعايات واسعة بشتى وسائل الإعلام للإدماج والفرنسة، وما ذاع عن السلطات الاستعمارية بأنه لا وجود لشخصية جزائرية،

---

1 – محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 295، 296.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 351.

3 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

4 – صدر العدد الأول من جريدة "المغرب" الأسبوعية بالجزائر العاصمة سنة 1930. وقد طبعت أعدادها الاثنى والثلاثون بالمطبعة الإرشادية بحي "سانت أوجين" بالعاصمة وهي مطبعة يملكها أصحاب جريدة "البلاغ" أما الأعداد الستة الأخيرة فقد طبعت بالمطبعة العربية التي أسسها أبو اليقظان في شهر فيفري 1931. انظر: د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من (1939 – 1947)، الجزائر، 1980، ص 93 وما بعدها.

5 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 463.

وإنّ الجزائريين ليسوا إلا فرنسيين، وإنّ القطر الجزائري هو فرنسا، وما هذه المظاهرات كلّها إلا وسيلة لتعميق الجرح في قلوب الجزائريين ذلك بعد أن أعادت في نفوس الأهالي ذكرى الاحتلال المريرة فحركّت بذلك في نفوسهم مشاعر الثأر للكرامة والشخصية وجعلهم يؤمنون أكثر من أي وقت مضى، بأنه لا بدّ من عمل جدي متكاتف في سبيل الحفاظ على شخصيتهم المتميزة. ومن هنا يمكن القول بأن فترة الثلاثينات وما بعدها كانت بالنسبة للقطر الجزائري بداية عهد جديد لبروز حركة إصلاحية شاملة، وتحولا من مرحلة الشكاوى[1] إلى مرحلة العمل السياسي المجابه. كما تعتبر المرحلة انتقالاً حاسمًا من مرحلة الآراء النظرية الفردية إلى عصر العمل الجماعي الموحد. الأمر الذي ساعد على مضاعفة الجهود الوطنية، وزيادة الروح النضالية بين الأحزاب السياسية الجزائرية، سواء في الداخل أو في الخارج. وفي أوروبا أستنكر الجزائريون المتمردون احتفالات 1930. وبالمناسبة نظمت "لجنة المغرب العربي" التي ظهرت أثناء الحرب مؤتمرًا كبيرًا للاحتجاج على الاحتفال الفرنسي.

وبهذا الصدد أصدروا بيانًا[2] بعنوان "قرن من استعباد المسلمين الجزائريين تحت النير الاستعماري" غير أن الحكومة الاستعمارية منعت هذا البيان من الصدور. ذلك أنه كلّما ضغطت الحركة الوطنية من أجل الاعتراف بها أصبح رد فعل فرنسا أكثر جفاء وسلبية. الشيء الذي أدى في النهاية إلى ضرب مطالب الوطنيين السياسية واعتبارها هامشية. لتأثرها بدعاية القومية الإسلامية[3].

هكذا ثارت ثائرة الجزائر بهذا العيد الاستعماري وأدى ذلك إلى تمسك المواطنين بإسلامهم وعروبتهم. واستبشرت الأمة بالعلماء المسلمين الذين هم ملاذها وحماتها في هذه المحنة، فالتفت حولهم، وازداد العلماء إيمانًا بوجوب اتحادهم في جمعية تنظم الجهاد العظيم لحماية دينهم ووطنهم.

---

1 – MERRAD Ali, Le péformisme musulman en Algérie (1925 – 1940), Paris, 1967, p. 389

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 352.

3 – المرجع نفسه، ص 353.

فكان العيد المئوي الذي قصد به الاستعمار النكاية بالإسلام والمسلمين خيرًا وبركة لهم، فكان ذلك من الأسباب المباشرة لنشأة الحركات السياسية والإصلاحية في الجزائر، كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري. والمؤتمر الإسلامي. وإن كانت وسائلها مختلفة ولكنها متحدة من حيث الأهداف والغايات، وهي "رفع الظلم والجور، وطلب الحرية"[1].

**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:**

تأسست هذه الجمعية سنة 1931 وهي حركة عربية إسلامية، وإصلاحية. وكانت تشرف على هذه الجمعية نخبة من العلماء المتنورين بثقافة عربية متينة، نذكر من بينهم، الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي ومبارك الميلي والشيخ الطيب العقبي. وقد حملت هذه الجمعية عبء نهضة الإسلام ومحاربة الطرقية والخرافات كما قامت بنشر التعليم العربي الحر وتوجيه السياسة الجزائرية توجيهًا عربيًا إسلاميا. ساهم رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس مساهمة فعالة في تأكيد وتعزيز الفكرة الوطنية الجزائرية. سواء بدروسه ومحاضراته أو بمقالاته التي كان ينشرها في جريدة المنتقد والصراط ومجلة الشهاب.

وكانت جمعية العلماء تهتم بأحياء الشخصية الجزائرية المتمثلة في عروبتها وإسلامها وكان شعار الشيخ عبد الحميد بن باديس: الجزائر وطننا، والعربية لغتنا، والإسلام ديننا.

وتعتبر الحركة الباديسية حركة إصلاحية سلفية، وهي أقرب من كل الحركات الأخرى إلى النفوس وأدخلها إلى القلوب لأنها تمثل آمال الشعب ومطامحه وتعبر عن شخصيته. وبذلت جهودًا محمودة في حفظ الكيان الجزائري من خطر الذوبان والانحلال في الكيان الفرنسي. إذ كانت تعارض كل سياسة تنادي بإدماج الجزائر في فرنسا، وتطالب بالمحافظة على الإسلام والعربية. كما عملت على تعميم الثقافة العربية

---

1 – د. أحمد طالب الإبراهيمي: جريدة المجاهد الأسبوعية، العدد 506، 3 مارس 1970.

ونشر الوعي القومي في الجزائر، الشيء الذي وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية، وأقلق السلطات الفرنسية.

وكانت الجمعية تهدف في حركتها التربوية والإصلاحية إلى تكوين جيل صالح يعمل على أحداث النهضة المنشودة وقيادتها نحو الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى بروز النهضة.

ولم يخرج أندري جوليان عن نفس الفكرة تقريبًا فالعلماء في نظره كانوا يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية[1].

وقد كان لتأسيس جمعية العلماء المسلمين أكبر علامة للتحدي ورد الفعل لكل محاولة الغزو الفكري التي كانت الحكومة الاستعمارية تمارسها في الجزائر. وتلتقي هذه الجمعية في أهدافها البعيدة مع الأحزاب السياسية الجزائرية من الناحيتين:

1 – السياسية فهي تلتقي مع حركة النجم الإفريقي الذي أشرت إليه، وحزب الشعب الجزائري الذي سأتعرض له فيما بعد في الدعوة إلى تحرير الجزائر ضمن نطاق الحضارة العربية الإسلامية.

2 – الإصلاحية فهي تلتقي مع مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر[2]. لقد ذكر السيد فرحات عباس أن من أهداف الجمعية: تجديد الإسلام والصراع ضد المرابطين المنحرفين أداة الاستعمار. وتكوين إطارات الثقافة العربية[3].

---

1 – شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرين، الدار التونسية للنشر، 1976، ص 114.

2 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 66.

3 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 129.

**حزب الشعب الجزائري**

تأسس في مارس سنة 1937[1]، وكان غرضه المطالبة باستقلال الجزائر العام في ظل حضارتها العربية الإسلامية. ولذلك حورب من قبل الاستعمار، ولقي اضطهادا عنيفا بسبب مبادئه الثورية، وتمسكه بأصالته الوطنية الجزائرية. ولما قامت الحرب العالمية الثانية سنة 1939 تعطل نشاطه واعتقل زعماؤه. وبعد نهاية الحرب أعاد تشكيلته مصالي الحاج وذلك باسم "حركات الانتصار للحريات الديمقراطية" وواصل عمله حتّى وقع خلاف بين زعمائه[2]. ويعتبر حزب الشعب من الأحزاب الوطنية التحريرية الأكثر عمقًا وجذورًا في تاريخ النضال السياسي في الجزائر. ومن مطالبه:

1 – تكوين حكومة جزائرية وبرلمان جزائري.

2 – احترام الأمة الجزائرية واللغة العربية والإسلام.

3 – تجريد كبار المعمرين من الأراضي التي استولوا عليها بالقوة والمكيدة.

4 – إشراك المسلمين في إدارة البلاد.

5 – ضمان حرية الرأي وفتح المجال السياسي أمام الجزائريين.

وإذا كان العلماء المصلحون هم الذين أعدوا الجزائر للانفجار على أعدائها، فإن حزب الشعب الجزائري هو الذي عمل على توعية الشعب وتوحيده حول أهداف وطنية معينة ساعدت فيما بعد على تكوين روح المقاومة الوطنية والمطالبة بحقوق الجزائريين المشروعة[3]. فقد قام بدور كبير في كشف السياسة الاستعمارية التي تهدف إلى إدماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي وبهذا يعتبر الأول في طرح موضوع استقلال الجزائر، بتكوين منظمة للنضال من أجل تحقيقه.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 463.

2 – MAHSAS Ahmed, Le Mouvement révolutionnaire en Algérie (1918 – 1954), Paris, 1979, p. 149 et sq.

3 – محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، ط 1، الجزائر، 1971، ص103.

وقد عملت كل من جمعية العلماء وجماعة النخبة والمؤتمر الإسلامي في هـذا الاتجاه[1].

## المؤتمر الإسلامي 1936

لقد استبشر الشعب الجزائري لانعقاد هذا المؤتمر واعتبره بداية لحركة شـاملة لتوحيد الحركات الوطنية. وقد كان الشيخ عبد الحميد بن بـاديس – صـاحب مجلـة الشهاب ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين – أول من فكر[2] في عقده ودعـا إليه في الجزائر. كما كان من المؤمنين بأن «المرجع في شؤون الأمة هو الأمة نفسها والواسطة لذلك هو المؤتمرات»[3].

شارك في المؤتمر ممثلون[4] من النواب ومن الحزب الشيوعي الجزائـري[5]. وأفرادًا من جمعية العلماء باسمهم الخاص وذلك للدفاع عن الكيان العربي الإسلامي.

---

1 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 149 et sq.

2 – محمد خير الدين: جريدة البصائر، العدد 55، السنة 2، السلسلة 2، 8 نوفمبر 1948، ص 2.

3 – الشهاب، ج 4، م 12، عدد يوليو 1936، ص 198.

4 – الشهاب، ج 4، م 12، جويلية 1936، ص 201.

5 – تأسس سنة 1924. فكان في الحقيقة تابعًا للحزب الشيوعي الفرنسي، غرضه هو توحيد الشعب الجزائري بالشعب الفرنسي، وهذه النزعة لم ترض بها الأحزاب والحركات الوطنية الجزائرية، وفي النهاية لم تكن مساهمة هذا الحزب فعالة في دفع الحركة الوطنية إلى الأمام. وكان يؤيد بقاء السيادة الفرنسية وسياسة الاندماج، وهذه فكرة سلبية بالنسبة للحركة الوطنية. فقد كرّس جهوده لتطبيق سياسة إصلاحية بين فرنسا والجزائريين كان هدفها الحقيقي تجديد القوى لفائدة الجبهة الشعبية. ولو كان ذلك بالتراجع عن المطالب الثورية للشعب الجزائري. وأخطر ما توصل إليه هو تبنيه لمشروع فيوليت قاعدة سياسية له رغم أنه مشروع يهدف إلى عرقلة تطور الحركة الوطنية. هكذا كان الحزب الشيوعي الجزائري خارج الحركة الوطنية.

انظر المصادر التالية:

1 – MAHSAS Ahmed, op.cit, p 149 et sq.

2 – جوان غليسي، الجزائر الثائرة، مرجع سابق، ص 84.

وقد كان الغرض من الدعوة إليه وانعقاده هو محاولة جمع صفوف الأمة على اختلاف مشاربهم السياسية من أجل الاتفاق على أهم المطالب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي توحد العمل بينه وبين الاتجاهات السياسية الأخرى.

ومن جملة النقاط التي ناقشها هذا المؤتمر "مشروع فيوليت" المتضمن فكرة منح الجنسية الفرنسية لبعض المثقفين الجزائريين بدون التخلي عن أحوالهم الدينية واحترام حقوق الجزائريين الآخرين في العيش بروح القرآن ونصوصه وإلغاء قانون الأهالي الذي كان مطلب الجزائريين منذ وضعه في أواخر القرن الماضي[1].

وقد كان هذا المشروع – الذي واجهته معارضة عنيفة من طرف الحركات السياسية الجزائرية ما عدا "حركة المنتخبين الجزائريين" – يهدف إلى فصل النخبة المثقفة بالثقافة الفرنسية عن شعبها ودمجها في المجتمع الفرنسي عملا بسياسة "فرق تسد".

ثمّ إن هذا البرنامج لم يقصد به تغيير وضعية الجزائر البائسة، بل ازدادت الحالة سوء على سوء بعد تطبيقه. ولعل هذا هو السبب الذي ساعد على مضاعفة الجهود الوطنية ضد الاحتلال ومما يدل على ذلك رفضها لهذا المشروع الذي كان يهدف إلى جعل الجزائر جزءًا لا يتجزأ من فرنسا. واعتبار الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية يقومون بجميع الواجبات المطلوبة مثل المواطنين الفرنسيين ولكنهم لا يتمتعون بحقوق وامتيازات المواطن الفرنسي في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية بسبب رفضهم التنازل عن قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية[2].

هكذا كان رد فعل الجزائريين تجاه هذا المشروع "فيوليت" قويّا لأنهم أدركوا أن الخطة لا تخلو من مكر وخداع. ثمّ إن هذا المشروع إذا كان قد لوح ببعض الحقوق فإنه اشترط لنيلها الانسلاخ التام عن الأحكام الإسلامية والعودة إلى القانون الوضعي في ظل الجنسية الفرنسية. ولذا وجد أمامه منافسًا عملاقًا ألا وهو رد فعل جمعية

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 164. انظر النص الكامل لبرنامج "فيوليت" في مجلة الشهاب، ج 3، م 13، عدد مايو 1937، ص 159.

2 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 74.

العلماء وحركة نجم[1] الشمال الإفريقي اللتين وقفتا ضده وضد كل محاولات التشـويه والمسخ للشخصية الجزائرية. بهذه الصورة طويت صفحة "مشروع فيوليت" ولم يكتب له النجاح بفضل الرفض والمقاومة الوطنية. وقد عبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمـي عن موقف العلماء من مشروع فيوليت حيث قال: «إنّ فيوليت صاغ مشـروعه علـى اعتبارات سياسية دقيقة وضعه في ألفاظ استهوت الجزائريين "النخبة" وشبابهم»[2].

والملاحظ أن هذا المشروع قد ظهر مرة أخرى سنة 1936 في عهـد الجبهـة الشعبية وأصبح يعرف باسم برنامج "بلوم فيوليت" ولكنه عندما قدّم للبرلمان الفرنسـي لمناقشته رفضه سنة 1937، كما رفضه مجلس الشيوخ الفرنسي من قبـل فـي عـام 1935[3]. كما رفضته جمعية العلماء فيما بعد، هكذا ورغم كل الوسائل التي تذرع بها الاستعمار للحد من نشاط المؤتمر الإسلامي المنعقد فـي الجزائـر العاصـمة سـنة 1936[4]. فإنّ المؤتمرين واصلوا عملهم بنجاح. وقد أسفر عن مجموعة من المطالـب يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – إلغاء القوانين الاستثنائية المفروضة على الجزائريين منذ 1874.

2 – إجبارية التعليم الابتدائي بالنسبة للجزائريين كما هو ساري المفعول بالنسبة للفرنسيين.

3 – حرية التعليم باللغة العربية.

4 – فصل الدين الإسلامي عن الدولة عملا بقانون فرنسـا الصـادر بتـاريخ 1905 القاضي بفصل الدين عن الدولة.

5 – المحافظة على الشخصية الوطنية للجزائريين.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 18، 151.

2 – الشهاب، يوليو 1936، ص 25.

3 – د. أنيسة بركات، الحركة الوطنية الجزائرية سنة 1936، مجلة التاريخ، مرجع سابق، ص 55.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 162.

إلى غير ذلك من المطالب الأخرى وهي كثيرة – التي تندرج كلها في نطاق الإصلاحات ضمن الوضعية الاستعمارية للبلاد.

وقد عيّن وفدًا إلى باريس لعرض مطالبه على المسؤولين في الحكومة الفرنسية بعد محاولات كثيرة لم يحصل المؤتمر على نتيجة تذكر – وعاد الوفد الجزائري خائبا بسبب اعتراض المعمرين الفرنسيين ورفضهم لمطالب المؤتمر. وقد رأوا فيه خطرا على وجودهم ونفوذهم السياسي. وبعد ذلك دب الفشل في أعضاء المؤتمر، الأمر الذي أدى إلى حلّه.

ومن الشخصيات البارزة التي ترأست هذا الوفد الدكتور ابن جلول، وشارك فرحات عباس في حركة المؤتمر الإسلامي بمواقفه وبمقالاته الصحفية التي كان ينشرها للتعبير عن أهداف هذه الهيئة. وكان من مؤسسي جماعة "النخبة" مع الدكتور ابن جلول، ثمّ نشر البيان الجزائري وهو مجموعة من المطالب السياسية قدمها للحكومة الفرنسية والحلفاء الأمريكان والإنجليز الذين حلت جيوشهم بالجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية كما سأبين ذلك.

**الفترة الثالثة: تطور الحركة الوطنية (1939 – 1945)**

تتميز هذه الفترة بتطور النشاط السياسي للأحزاب والحركات الوطنية[1]. تمهيدا لثورة أول نوفمبر المباركة. وقد لعبت دورًا هامًا في طرح القضية الجزائرية وإبراز حقوقها على المستوى الوطني والدولي. كما أنها بعث وطني عام. ويقظة قومية شاملة. ففيها تكونت معظم الحركات الوطنية واتسعت شعلة النضال السياسي بتوحيد الصف في بداية الأمر. وواصلت الحركات والأحزاب السياسية التي – أشرنا إليها – نشاطها ووقعت حوادث كثيرة جعلت هذه الفترة تتميز عن سابقتها باندلاع الحرب العالمية الثانية وما ترتب عنها من حوادث ونشاط سياسي نحاول أن نبيّنه باختصار.

---

1 – KEDDACHE Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien (1919 – 1951), T1, Alger, 1980, p. 198, 199.

من النتائج الخطيرة التي آلت إليها الحركة السياسية في الجزائر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف نشاط الحركة الوطنية. ومما يدل على ذلك أن زعماء "حزب الشعب" الجديد كانوا في السجون، وحزبهم قد صدر قرار بحلّه كما صدر قرار بحل الحزب الشيوعي الجزائري، وانقسام فيدرالية النخبة إلى قسمين[1]:

1 – الاتحاد الفرنسي الإسلامي بزعامة "ابن جلول".

2 – والاتحاد الشعبي بزعامة "فرحات عباس"، واندفاع النواب وجماعة النخبة بحكم وظائفهم الرسمية إلى تأييد فرنسا الديمقراطية ضد ألمانيا النازية. فالمجندون الجزائريون حملهم الفرنسيون إلى الجبهة الأوروبية للدفاع عن حرية فرنسا[2]. وادعت فرنسا رغبة الجزائريين في المشاركة في الحرب من أجل الدفاع عن حريتها[3].

أما الوطنيون فقد زج بهم في غياهب السجون. لكن رغم هذه المناورات فإنّ رد فعل الجزائريين كان قلقًا، فهذا مصالي الحاج قد كتب مقالاً بجريدة "الأمة" هاجم فيه الاستعمار الفرنسي ووعده بأنه سيستمر في عدائه لفرنسا لأن شمال إفريقيا ليس له شيء يربطه بفرنسا. ومن أجل ذلك أعيد إلى السجن بعد أن أفرج عنه[4].

أما أندري جوليان فكا يقول: «إنّ كلا من حزب الشعب والعلماء، كانوا ينادون بالاستقلال عندما اندلعت الحرب ولكنهم لم يستطيعوا وضع برنامج موحد. أما النخبة المتطورة فقد خابت آمالها في الإصلاحات، ولكنها ظلت في انتظار الساعة التي تنهزم فيها فرنسا لتواصل نشاطها حسب الوضع الجديد...»[5].

والواقع أن ظروف الحرب العالمية الثانية لم تزد الجزائريين إلا إيمانًا بمبادئهم وتعلقًا بوطنهم وخاصة بعد أن أعلنت فرنسا – التي كانت تدعى الهالة والقوة –

1 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 156.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 185.

3 – المرجع نفسه، ص 186.

4 – المرجع نفسه، ج 3، ص 187.

5 – أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سابق، ص 13.

عجزها أمام قوة ألمانيا في يونيو 1940 وقد كان ذلك كافيًا لإيقاظ بقيـة الجزائـريين الذين كانوا يعتقدون في فرنسا. بالإضافة إلى الدعاية التي كانت الجزائر مسرحًا لهـا، سواء من دول المحور "ألمانيا وإيطاليا" أو من الحلفاء "روسيا وبريطانيا ثمّ أمريكـا". فقد ساعدت أيضًا هي الأخرى على تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين، وإقناع المتمردين[1]، مما ساعد على ظهور نخبة جديدة من المناضلين الشباب خاصة في صـفوف حـزب الشعب بعد اعتقال[2] معظم مسؤولية البارزين أمثال مصالي الحاج.

وإن كان لا نجد حركة ثورية منسقة مـن الجزائـريين خـلال عهـد فيشـي "الماريشال بيتان" وهذا يعود إلى سياسة الحكام الفرنسيين عندئذ – أمثال "فيدال وشاتل" – الذين استعملوا تأثير المرابطين لتنويم الجماهير. وهناك من يرجع هذا التنويم إلـى شخصية "بيتان" فهو بطريقته الأبوية استطاع أن يجلب إليه عددًا كبيرا من الجزائريين وغير الجزائريين. مما جعله يتمتع بسمعة كبيرة[3].

غير أنه إن صح هذا بالنسبة لبعض النواب – وذلك بحكم ضعف مستواهم الثقافي والعلمي – فإنّه لا يصح مع قادة الرأي من الجزائريين الذين وقفوا أمامه موقفا عـدائيا، كما سنرى ذلك بعد حين.

وأثناء عهد حكومة "فيشي" انتشرت في الجزائر الدعاية لـدول المحـور مـن الفرنسيين أنفسهم لاسيما المعمرون. فقد ظهرت صحائف ذات اتجاه جديد في الفترة ما بين (1940 – 1942) كانت تـدعو بالنصـر لقـوات المحـور، وتسـتنكر أعمـال الديمقراطيات الرأسمالية (بريطانيا وأمريكا). التي كانت تمشي في ركاب "البولشفية".

ومن صحافة المعمرين خلال هذه الفترة "لاد يبيش" و"لافو دي كولون". ويـذكر فرحات عباس أن 80% من المعمرين الفرنسيين في الجزائر كانوا مـوالين لحكومـة

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 188.

2 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 156.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 188.

فيشي والألمان. وكان همهم الوحيد عندئذ كما كان في السابق الاحتفاظ بالجزائر تحت سلطتهم[1].

وقد كان عهد "فيشي" عهد الاعتقالات للوطنيين الجزائريين من هؤلاء أعضاء حزب الشعب الجزائري الذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية. فخلال (1939 – 1944) قرر الجنرال "نوقيس"، قائد القوات الفرنسية في "شمال إفريقيا" سجن أعضاء الحزب ومنهم مصالي الحاج لقيامهم بنشاط مكشوف معاد لفرنسا بدعوى أنهم كانوا يعملون على إضعاف روح المقاومة في نفوس الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي. ويحرضونهم على العصيان وعدم المشاركة في الحرب ضد السوريين في الشام[2]. وخلال هذه الفترة قدم السيد فرحات عباس للمارشال "بيتان" نصًا ضمنه مجموعة من المطالب الأساسية لمساعدة الفلاحين وتطوير الجزائريين في الميدان التعليمي والإداري. غير أن هذه المطالب ظلت حبرًا على ورق، بحيث لم تجد عند الحكومة الفرنسية قبولاً[3].

ويبدو من هذه اللائحة أن فرحات عباس ما زال يعلق على فرنسا الثقة الكاملة، في حل بعض مطالب الشعب الجزائري. وخاصة عند وصول الخلفاء إلى الجزائر يوم 8 نوفمبر 1942[4] للضغط على حكومة "فيشي" التي بلغت شأوا من الاعتقالات في صفوف الزعماء السياسيين الجزائريين.

وفي هذا الإطار قام الحاكم العام "بيرتون" بإطلاق سراح بعض المناضلين الوطنيين بمختلف الأحزاب أمثال فرحات عباس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشيء الذي مكّن حزب الشعب من تجنيد قواه من جديد من أجل العمل الواسع.

---

1 – المرجع نفسه، ص 191.

2 – المرجع نفسه، ص 293.

3 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 156.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 208.

في حين أن الحزب الشيوعي كان مهتمًا بما يهم المصالح الفرنسية فقط أو لشن المعركة من أجل الخبز كما تقول بعض شعاراته[1].

والملاحظ أن أهم ما تتميز به هذه الفترة من الجانب الوطني محاولة ملء الفراغ السياسي على يد فرحات عباس وجماعة النخبة الذين كانوا يتحركون بشيء من الحرية رغم ظروف الحرب القاسية، وظهور الشيوعيين الذين استأنفوا نشاطهم في غياب منافسهم أعضاء "حزب الشعب الجزائري". ومن نشاط الحركة خلال هذه الفترة العمل على كسب تأييد الحلفاء بالخصوص أمريكا وإنجلترا من جهة ومحاولة التفاهم مع لجنة فرنسا الحرة، من جهة أخرى. وخلال ذلك برز تيار وسط مثّله "البيان الجزائري" الذي مثّل مرحلة جديدة في تفكير أعضاء النخبة وخطوة إلى الأمام[2]. ومما يدل على ذلك تخلي السيد فرحات عباس عن سياسة الإدماج التي تعلّق بها من قبل.

وهو الأمر الذي جعل الفرنسيين يعتبرون ذلك خيانة، وإن كان فرحات عباس لا يعتبر متطرفًا[3] في مطالبه ويعتبر موقفه من القضايا الوطنية إيجابيًا لتقاربه من المطالب الوطنية التي كان يقدمها "حزب الشعب" للتعبير عن مطامع الجزائريين. وقد كان له اتصال مع الحلفاء لتوحيد جهود الجزائريين ضد العدو المشترك. وفي هذا الإطار قدّم لهم مشروعًا سياسيًا سمّاه البيان بإمضاء النواب الجزائريين المنتخبين من أجل الحصول على حق تقرير المصير. مقابل مساعدة الجزائريين للحلفاء ضد ألمانيا.

ونفس المشروع قدّم في جانفي 1943 للحكومة الفرنسية وكان مصيره الرفض من طرف الجنرال "جيرو". وتؤكد المصادر الأمريكية بأن الوطنيين الجزائريين قد اتصلوا بممثل الحكومة الفرنسية السيد "مورفي" وعبروا له عن رغبتهم في مساعدة الحلفاء على حصول الجزائر على الاستقلال. وكان زعيم هذا الاتصال السيد فرحات عباس الذي وصفه السيد "مورفي"، بأنه وطني عربي جزائري متحمس، وأن له حركة في مقدورها أن

---

1 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 170.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 208.

3 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 156 - 170.

تسبب مصاعب شاقة أمام نزول القوات لو استعملها[1]. هذا وقد اغتنم الشـعب الجزائـري ظروف الحرب العالمية الثانية فتقدم للحكومة الفرنسية بمطالب تجسدت خاصة في الرسائل التي قدمها فرحات عباس للسلطات الفرنسية والحلفاء في الجزائر.

وبتاريخ 2 ديسمبر 1942 طالب فيها بتشكيل لجنة تقوم بإعداد قانون إصلاحي عـام للجزائريين[2]. غير أن الجنرال "جيرو" قائد القوات الفرنسية في الجزائر رفـض مقترحـات الوفد الجزائري الذي قابله في الفاتح من سنة 1943 بدعوى أنه مسؤول عن الحرب ولـيس عن السياسة. ولعل هذا الرفض كان أحد العوامل الهامة التي سـاعدت الجزائـريين علـى البحث عن حركة جديدة للضغط على الفرنسيين لكي يتخذوا موقفًا واضحًا مـن مطـالبهم[3]. بعد أن كانوا يعتبرون الجزائر مستعمرة فرنسية، ويعتبر هذا العمل أولى خطـوات فرحـات عباس التي أدت إلى نشر البيان الجزائري[4].

**بيان الشعب الجزائري**

بعد اجتماع دعا إليه السيد فرحات عباس، وبعد مشاورات مع قادة الـرأي فـي البلاد من زعماء النخبة والعلماء وبعض النواب والطلبة وحزب الشعب[5] أمثال عسـلي حسن، والدكتور الأمين الدباغين وغيرهم[6]. كلّف السيد عباس بإعداد نص البيان. وبعـد أن استعرض البيان العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ 1830 لاحظ أنها علاقـات تقـوم على الاضطهاد والتفرقة العنصرية وحرمان الجزائريين من الحقوق الأساسية[7]. حتـى صار المسلم الجزائري يعيش فوق أرضه وفي تراب آبائه وأجداده كأنه أجنبي دخيل.

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 215.

2 - KEDDACHE Mahfoud, T 2, op.cit., p. 640 - 641.

3 - د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 224.

4 - KEDDACHE M., T 2, op.cit., p. 640 - 641.

5 - د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 225.

6 - KEDDACHE M., T 2, op.cit., p. 642.

7 - الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 225.
Voir également COLLOT Claude et HONRY Robert, Le mouvement national algérien (1912 – 1954) Textes T 2, Alger, 1981, p 152 et sq.

وكان البيان يطالب بتحقيق المبادئ التي جاءت بها ثورة 1789[1] الكبرى كالعدل والحرية والمساواة. وفي 12 فيفري 1943[2] كتب فرحات عباس نص البيان وضمّنه مجموعة من الانتقادات ضد النظام الاستعماري الذي كان يرفض الاعتراف بالمساواة بين المواطنين الفرنسيين والجزائريين. ومما جاء في هذا البيان. ما يلي:

1 – تحليل ظروف استعمار الجزائر من طرف فرنسا ونقد نتائج الاحتلال.

2 – طلب تطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها والقضاء على الاستعمار.

3 – الحرية والمساواة بين جميع السكان بدون تمييز.

4 – القضاء على الملكية الإقطاعية وإجراء إصلاح زراعي. والرفع من مستوى الطبقات العاملة.

5 – الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في نفس المستوى مع اللغة الفرنسية.

6 – التعليم المجاني والإجباري لكل الأطفال وللجنسين.

7 – مساهمة المسلمين الجزائريين في حكومة بلادهم على غرار ما فعلته بريطانيا في سوريا.

8 – حرية الصحافة وحق التجمع.

9 – حرية العقيدة.

10 – الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين مهما كانت انتماءاتهم السياسية[3] والحزبية.

وفي 31 مارس 1943 قدّم فرحات عباس نص هذا البيان إلى الحكومة الفرنسية والحلفاء بالجزائر. كقاعدة للإصلاح في الجزائر. والملاحظ أن نص هذا البيان كان معتدلا نوعا ما، لأنه لا يطالب بالاستقلال التام للجزائر، إنّما كان يطلب

---

1 – KEDDACHE M., op.cit., p. 643.

2 – Idem, p. 644.

3 – KEDDACHE M., op.cit., p. 644, Voir MAHSAS, op.cit., p. 156 et sq.

باتحاد شمال إفريقيا[1]. غير أن الحكومة الفرنسية كعادتها رفضت البيان ولم ترض بتغيير قوانينها في الجزائر.

وقد تجسد هذا الرفض خاصة في تصرفات الحاكم العام "كاترو" الذي كان عسكريا أكثر منه سياسيًا[2]. وادعى أنه لم يكن مستعدًا لتغيير عقلية الجزائر الفرنسية. وأطلق على حركة البيان الجزائري التي ظهرت خلال 1943 اسم "العاصفة" التي وعد بوقفها مهما كان الثمن. وقد ذكر أن النواب الجزائريين قدموا له بيانهم وهو الذي يتضمن فكرة الجمهورية الجزائرية، ورأيه هذا جاء نتيجة « عاصفة من التحرر هبت من الشرق وما وراء الأطلس فوق شمال إفريقيا. وكان من الضروري في نظره إيقاف هذه العاصفة [3].

ولم تعترف بمطالب الجزائريين. والهدف من كل هذا هو الاحتفاظ بالجزائر "كقطعة فرنسية". هكذا أدرك أصحاب البيان طبيعة الاستعمار الفرنسي، وحقيقة الديمقراطية الفرنسية[4].

ولذلك فإنّ النواب الذين تعامل معهم الاستعمار قد غيروا موقفهم وطالبوا بحقوق الشعب الجزائري. وقد احتل فرحات عباس في هذا الصراع – على حد تعبير شارل أندري جوليان – مكانة مرموقة، وتعاظم دوره إلى حد أنه اصبح رمز الوطنية الجزائرية[5].

وعندما طلب "جيرو" من الجزائريين أن ينضموا إلى صفوف الجيش الفرنسي كان جواب فرحات عباس والنواب أنه لا بدّ من إعطاء الجزائريين حقوقهم كاملة ليشاركوا في الحرب مع الحلفاء ضد ألمانيا. وذلك يكون بتأسيس دولة جزائرية يتمتع

---

1 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 156 et sq.

2 – KEDDACHE M., op.cit., p. 648.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 233. *انظر أيضا: Voir aussi MAHSAS, op.cit., p. 186 et sq.

4 – MAHSAS A., op.cit., p. 156 - 170.

5 – شارل أدري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، مصدر سابق، ص 308.

فيها المسلمون والفرنسيون بحق المواطنة الكاملـة[1]. ويتبـين مـن هـذا الموقـف أن المواجهة[2] بين الحكومة الفرنسية والوطنيين الجزائريين كان لا بدّ منها. في المسـتقبل القريب. ويأتي بعد البيان الجزائري حركة أحباب البيان والحرية.

### حركة أحباب البيان والحرية

إنّ تأسيس حركة أحباب البيان والحرية جاءت كرد فعل ضد سياسة الاسـتعمار الذي كان يرمي إلى إدخال الجزائر في البوتقة[3] الفرنسية بدل أن يؤهلها للاسـتقلال. إنّها جبهة وطنية متكونة من جميع الحركات الوطنية كحركة مصالي الحاج وفرحـات عباس وجمعية العلماء. وهذه لجبهة هي حركة أحباب البيان والحرية. وأودع فرحـات عباس قانونها الأساسي بولاية قسنطينة في 4 أفريل سـنة 1944[4]. وكـان هـدفها الرئيسي المطالبة بالاستقلال والتعاون مع العرب المسلمين، ومعـاداة الإمبرياليـة[5]، وتقرير فكرة الأمة الجزائرية والترغيب في إنشاء جمهورية مسـتقلة يحميهـا نظـام فيدرالي مع جمهورية فرنسية[6]. وعلى هذا الأساس تلاشت أطماع الفرنسـيين الـذين كانوا يؤمنون بفكرة "الجزائر الدائرة في فلك فرنسا"[7].

وقد بعثت هذه الحركة الأمل في أوساط الجزائريين باعتبارها حركـة وطنيـة تجمع في صفوفها كل الاتجاهات الوطنية التي أخذت منعطفًا جديدًا في الحركة الوطنية

---

1 – أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 370.

2 – MAHSAS Ahmed, op.cit., p. 186 - 188.

3 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 180. انظر أيضًا: شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 328. وميثاق الجزائر، جزب جبهة التحرير الوطني، الجزائر، 1964، ص17.

4 – COLLOT Cl., HENRY R., op.cit., p. 185 et sq.

5 – MAHSAS A., op.cit., p. 185 - 186.

6 – أندري جوليان، إفريقيا تسير، المرجع سابق، ص 329.

7 – MAHSAS A., op.cit., p. 185 - 186.

منذ سنة 1944[1] ولذلك أصبحت كلمة الجزائريين لأول مرة موحدة وراء هدف واحد وهو الحرية والاستقلال ضمن إطار الشخصية الوطنية.

غير أن هذه الحركة لم تعمر طويلا إذ وقع حلها[2] بعد حوادث 8 ماي 1945. وعلى الرغم من ذلك فإن النشاط السياسي ظل مستمرا طوال هذه الفترة. وبعد شهور قليلة من تاريخ تكوين "حركة أحباب البيان والحرية" ظهر حزبان جديدان وهما:

1 – حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. في مايو 1946 بزعامة السيد فرحات عباس.

2 – حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1946 بزعامة مصالي الحاج.

ويلتقي هذان الحزبان مع جمعية العلماء في مبدأ المحافظة على الشخصية الوطنية بكل مقوماتها الروحية والفكرية واللغوية، ولكنهما من الناحية السياسية يختلفان في طريقة الحصول على الاستقلال للجزائر.

فالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري يطالب بتكوين جمهورية[3] جزائرية تتمتع بالحكم الذاتي. أما حركة الانتصار للحريات الديمقراطية فهي تطالب بتكوين جمهورية جزائرية لها استقلالها وكيانها الدولي الكامل[4].

**حوادث 8 ماي 1945**

الملاحظ من خلال التحليل السابق أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يقتصر على الرفض لكل المطالب الجزائرية التي كانت تهدف إلى رفع الظلم وتخفيف الضغوط الاستعمارية على الشعب الجزائري، واحترام شخصيته فحسب، بل كان يتحين الفرص لكي يقضي على العناصر الوطنية في صفوف الشعب الجزائري.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 251.

2 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 190.

3 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 200، 202.

4 – المرجع نفسه، ص 211.

ويصفيهم حتى يصفو له الجو، ولا تقوم بذلك في وجهه أية معارضة أو مقاومة شعبية قد تهدد مصالحه في الجزائر. ولعل أهم حدث يمكن اتخاذه حجة علــى هــذه النوايــا السيئة للإدارة الاستعمارية في بلادنا ما وقع سنة 1945 بعد انتهاء الحــرب العالميــة الثانية مباشرة.

وفي هذا الظرف الذي يصادف اليوم العالمي للعمال 1945 وانتصــار الحلفــاء الذي كان يرمز إلى انتصار الحرية والديمقراطية[1] والعدالة. نظمت "حركــة أحبــاب البيان والحرية" مظاهرات سلمية في الجزائر العاصمة وفي سطيف و قالمة وخراطــة وفي كل التراب الوطني. فخرج الجزائريون إلى الشوارع حاملين اللافتات التي تنــدد بالاستعمار، وتنادي باستقلال الجزائر حرة كريمة. هذه الحرية التي شارك من أجلهــا عدد كبير من الجزائريين المجندين في صفوف الجيش الفرنسي.

لكن السلطات الحاكمة واجهت هذه المظاهرات السلمية بالعنف والوحشية وقــد أدى ذلك إلى مقتل حوالي 45000[2] ضحية من الجزائريين. شــارك فيهــا الجــيش. والشرطة والمليشيات في سطيف وقالمة والمدن والقرى المجاورة. وبعد هذه الحوادث المؤلمة قررت الحكومة الفرنسية حل "حركة أحباب البيان والحرية"، وأعلنت الأحكــام العرفية[3]، واعتقلت عددًا كبيرًا من المواطنين والمسؤولين السياسيين، المناضلين فــي حركة أحباب البيان والحرية، وحزب الشعب الجزائري، ونقابات العمال والعلمــاء[4]. منهم فرحات عباس والدكتور

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 245.

2 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 186. انظر أيضًا البصائر، العدد 146 سنة 1950، ص 1.

3 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 189.

4 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

سعدان، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ونفي مصالي الحاج إلى إفريقيا الوسطى[1].

وعلى غرار الأحكام العرفية أصدرت المحاكم الفرنسية من جانبها 1307 أحكاما منها 99 بالإعدام و64 بالأشغال الشاقة مدى الحياة و329 بالأشغال الشاقة لمدة معينة. وحكمت بالبراءة لفائدة 250[2]. والملاحظ أن المنظمات اليسارية قد عارضت هذه الحوادث واجتمع الحزبان الاشتراكي والشيوعي الجزائريان يوم 7 جوان 1945 لفضح أعمال المهرجين الفاشيين[3].

فالشيوعيين لم يتضامنوا مع أحباب الحرية والبيان بل اتهموا الحركة الوطنية بالرجعية والتواطؤ مع الفاشية والإمبريالية[4].

وبعد هذه الحوادث تبين للمسؤولين أنه لا سبيل للقضاء على الاستعمار الفرنسي إلا بتوحيد الصف والمقاومة المسلحة ويمكن القول بأن هذه الحوادث مهدت فعلا لإعداد أول نوفمبر 1954 واندلاع الثورة المباركة التي اتسعت شعلتها.

### ثانيا: – الوضع الاقتصادي

تعرضت في الشطر الأول من هذا الفصل للوضع السياسي في الجزائر واستعرضت أهم التيارات السياسية التي تطالب بالحرية والاستقلال، وتوصلت إلى نتيجة مؤلمة وهي أنه رغم الجهود المكثفة للقادة السياسيين الجزائريين. فإنّ السياسة الاستعمارية تجاه المستقبل السياسي للجزائر لم تتغير ولم تخرج عن دائرة الإدماج والفرنسة طوال فترة الدراسة، وفضلا عن هذا الوضع السياسي الذي أصيب بفتور بسبب مواقف

---

1 – شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سابق، ص 336.

2 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3 – المرجع نفسه، ص 338.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 219.

الاستعمار المتصلبة تجاه المطالب الوطنية، كما لاحظنا – فإن الجزائر قد تعرضت لخراب اقتصادي خطير، وهو كما وصفه أحد الكتاب يدل على فقر[1] وبؤس.

من هنا يتضح لنا أن هدف الاستعمار في الجزائر لم يكن هدفًا سياسيًا فحسب، بل كان مطمعًا اقتصاديا بالدرجة الأولى. ومما يدل على ذلك أن معظم الموارد[2] الاقتصادية كانت بأيدي المعمرين واليهود والأجانب الذين استقدمتهم فرنسا إلى الجزائر بعد الاحتلال. وقد استولت على كل المجالات الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة والوظائف الإدارية. ولم يبق للأهالي أي مجال يرتزقون منه سوى الفلاحة وبعض الصناعات التقليدية البسيطة. وبسبب ذلك اصبح المواطنون وهم الأغلبية الساحقة عمالا وأجراء تحت رحمة معمرين مستغلين لليد العاملة الوطنية. وبهذا الحيف والسلطة الفرنسية الجائرة تقرر مصير الفلاح الجزائري التعس، فاضطر إلى العمل.

تحت سلطة المحتلين أجيرًا، مهضوم الحق ومسلوب الكرامة تقهره الحاجة. وأصبحت حالته[3] أشبه شيء بحالة عبيد الأرض في القرون الوسطى على حد تعبير فرحات عباس، هكذا ظل الجزائريون محرومين من كل الحقوق وفي جميع الميادين.

ففي الميدان الزراعي عمل الاستعمار منذ تواجده على أرض الجزائر على انتزاع الأراضي الزراعية من أهلها الشرعيين بشكل واسع حتّى أصبحت معظم

---

1 – كوليت وفرانسيس جانسون: الجزائر الثائرة، ترجمة علوي الشريف وآخرين، دار الهلال، 1957، ص 133.

2 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954), T 2, Paris, 1979, p. 414.

3 – انظر فضلا أدبيًا رائعًا لحالة الفلاح الجزائري من فصل كتبه فرحات عباس في سنة 1924 في ليل الاستعمار، ص 143.

الأراضي الخصبة بأيدي المعمرين. أما الجزائريون فقد بعثوا إلى المناطق[1] الـوعرة الفقيرة بدعوى أنهم لا يعرفون استغلال الأراضي بطريقة علمية[2] في نظرهم.

والملاحظ أن سياسة الاستعمار لم تقتصر على انتزاع الأراضي، بل تجـاوزت ذلك لتشمل المقابر وبعض أراضي العرش. وعلى سبيل المثال ما حدث في مليلة سنة 1918[3] وعملا بهذه السياسة وبطلب من الإقطـاعيين الفرنسـيين أصـدرت الإدارة الفرنسية قرارًا تمّ بموجبه منع الجزائريين من شراء الأراضي بدعوى أن ذلك يعتبـر خطرًا يعرقل السياسة الفرنسية في الجزائر.

واستنادًا إلى الإحصائيات الصادرة في الفترة ما بـين (1914 – 1927) فـإنّ نسبة الأراضي التي استحوذ عليها المعمرون قد بلغت 237000 هكتارًا وحتّى تبقـى في أيدي المعمرين إلى الأبد اشترطت عليهم الحكومة الفرنسية الإقامة بها مدة عشرين سنة مع الالتزام الكامل بعدم بيعها إلاّ لمستعمر فرنسي ومن أصل أوروبي[4]. ونحـن نعلم أن الأراضي الزراعية هي مصدر الرزق لسكان الريف علمًا بأن الجزائـر بلـد زراعي في المقام الأول. ذلك أن 70% من السكان الجزائريين كانوا يعيشـون مـن الزراعة، ولذلك عمد الاستعمار إلى انتزاع الأراضي منهم. وهذا في نظـرهم وسـيلة هامة للضغط على الاقتصاد الجزائري، وهو ما حدث بالفعل، وقد تجسدت هذه الفكرة خاصة في نقص مساحاتهم المزروعة وفي ثرواتهم الزراعية والحيوانية.

---

1 – النصوص الكاملة لميثاق الثورة الزراعية، المركز الجزائري للإعلام والثقافة بيروت سنة 1972، ص 8.

2 – KEDDACHE M., op.cit., p. 14 - 16

3 – Idem, p. 20.

4 – KEDDACHE M., T 1, op.cit., p. 20.

وتؤكد الإحصائيات أن محصول الحبوب بعدما كان في الفترة ما بين 1901 – 1920 يبلغ 19.60 مليون قنطار انخفض إلى 16 مليون قنطارًا في الفترة ما بين 1921 – 1930[1].

هكذا كانت الجزائر خلال الثلاثينات تعاني الكثير من سوء الأوضاع الاقتصادية حتّى أن بعض الكتاب كان عندئذ يتحدث عن شبح المجاعة الذي اصبح يهدد السكان[2]. وقد لخصت صحيفة بريطانية عدم الاستقرار الاقتصادي في الجزائري معتمدة على تقارير السلطات الحاكمة التي تشير إلى الانحطاط الحاد في أسعار المواد الفلاحية، وانهيار سوق الحبوب وسقوط قيمة الأجور، بالإضافة إلى نسبة البطالة[3].

وقد ذكر أحد المؤرخين الفرنسيين أن نسبة البطالة في الفترة ما بين 1931 – 1935 قد وصلت إلى 77%[4] من الجزائريين منها 12% في الجزائر العاصمة. وقد جاء في تقرير آخر لأحد الفرنسيين أن المواطن الجزائري كان يأخذ راتبًا أقل من راتب المواطن الفرنسي في مثل عمله وطبقته، وأن العامل الجزائري كان يأخذ أجرًا اقل من نظيره الفرنسي، وأن أغلب الجزائريين كانوا يعيشون دون خبز بينما تصرف الحكومة الفرنسية المليارات على الروس والبولنديين والرومانيين[5].

وتبريرًا لاستغلال المعمر للفلاحين الجزائريين وتدهور الأوضاع الاقتصادية راحوا يلومون الفلاحين على مصيرهم. ومن ذلك قولهم بأن أسباب المصاعب الاقتصادية تعود إلى تضخم السكان وانتشار الخرافات ونفوذ رجال الدين وتعصبهم

---

1 – Idem, p. 81.

2 – الشهاب، أوت سنة 1932.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 40. نقلا عن التايمز (لندن) 19 أفريل 1930، ص 19.

4 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954), op.cit., p. 413 - 414.

5 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 42.

وبدل من أن يدعو هؤلاء إلى تحرير الجزائريين من ربقة الجهل والفقــر، والمــرض دعوا إلى تأييد المرابطين والزوايا التقليدية لأنها في نظرهم عامل استقرار، وأمل[1].

والملاحظ أن هذه الأسباب غير صحيحة وهي مجرد مبررات واهية. ذلــك أن الصلة في نظرنا لم تكن ناتجة عن الأسباب التي أشرنا إليها، ولا عــن فقــر الــبلاد اقتصاديًا، إنمّا السبب الحقيقي يعود إلى الحرب العالمية وما ترتب عنها من توظيــف الحكومة الفرنسية لكل إمكانيات البلاد في خدمة الحرب. ولعل أهــم المنــاطق التــي تأثرت بهذه الأزمة. الأغواط[2]، والجلفة. هذا بالإضافة إلى مرض التيفوس الذي هاجم البلاد وقضى على عدد كبير من سكانها، لذلك كانت أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الفترة (1940 – 1942) بالخصوص موضع تعاليق الجميع، بالإضافة إلــى العوامــل المذكورة، هناك المجاعات، وضعف المحاصيل، وزيادة السكان[3]. وهنــاك أوصــاف كثيرة للحياة الاقتصادية المزرية في الجزائر. وهذه بعض نتائجها، من ذلك ما ذكــره أحد الكتاب المعاصرين أن كلّ شيء في هذه البلاد من المواد الغذائية وغيرهــا كــان مقدّرًا، ومقننا بدقة كما كانت السوق السوداء تغطي كافة إنتاج الجزائر.

وكانت سنة 1951 بالخصوص سنة صعبة على السكان من الوجهة الاقتصادية رغم أن الجزائر كانت بلدًا غنيًا بالمواد الأولية والاستهلاكية وكان يمكنهــا أن تعــيش على الاكتفاء الذاتي لو لم تصدر كل منتجاتهــا إلــى الخــارج لتغــذي الأوروبيــين والفرنسيين خاصة. فقد كانت نسبة الصادرات[4] إلى فرنسا وحدها في الفترة ما بــين 1920 – 1929، 64% و87% خلال سنوات 1933 – 1936. فمخــازن الجزائــر أفرغت عن آخرها، من محتوياتها بحجة تغذية الوطن الأم (فرنسا).

---

1 – المرجع نفسه، ص 43.

2 – KEDDACHE M., op.cit., p. 23.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 203.

4 – AGERON Ch. R., Histoire de l’Algérie contemporaine (1871 – 1954), op.cit., p. 414.

ورغم هذا كلّه كان المارشال "بيتان" يخاطب الجماهير الجزائرية بلغة الاستسلام للقضاء والقدر، وأنه لا بدّ من تكفير الذنوب التي ارتكبها الإنسان الجزائري في حق الإله[1].

وهناك وصف آخر كتبه الدكتور توماس الذي عمل طويلاً في مستشفى مدينة الجزائر. خلال الحرب العالمية الثانية حيث يقول «لقد عشت في مدينة الجزائر مدة طويلة، وقد رأيت فرقًا من الأطفال في أسمال بالية، يجنون قوت يومهم، ابتداء من سن الخامسة يبيع الجرائد، ومسح الأحذية، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية وهي أماكن تعتبر عارًا على فرنسا الحضارية. وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثًا عن العمل ينامون في الليل في الحفر. ويتغذون ببعض حبات من التمر والعنب، لقد كنت خجولا من كوني فرنسيًا. إنّني كنت في الجزائر سنة 1945 في وقت المجاعة عندما كان آلاف الناس يموتون جوعًا خلال سنة الجفاف، وقد شاهدت القمع المروع الذي نتج عنه هلاك 60 ألف شخص، وشاهدت أطفالاً عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب، كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا. في بضعة أيام في غرادية، فكيف لا نحصد الثورة عندما نكون قد زرعنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد والإرهاب والبؤس»[2].

هكذا كانت الجزائر خلال الحرب وفي عهد فيشي خاصة بؤس في الحياة الاقتصادية، وفراغ في الحياة السياسية. وقمع من جانب الإدارة الفرنسية. وقد كان الهدف من وراء ذلك هو تدمير الكيان الاقتصادي الوطني للجزائريين بعد أن تمكن الاحتلال من تدمير كيانهم السياسي خلال سنة 1830 الذي قضى على روح المقاومة في نفوسهم. وقد أعلن قادة الاحتلال منذ وقت ليس ببعيد بأن نزع ملكيات الوطنيين هو الشرط الأول الذي لا مفر منه لتثبيت أقدامنا في أرض الجزائر[3]، وإلى جانب سياسة

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 203.

2 – الماركسية والثورة الجزائرية، ميشال باندة، مجلة العمل، مارس أفريل 1958، ص 58، تعريب د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 205.

3 – كوليت وفرانسيس جانسون، الجزائر الثائرة، مرجع سابق، ص 32.

التوسع الاقتصادي والغزو الاستعماري اتبعت فرنسا سياسة التهجير والاستيطان للعنصر الأوروبي من فرنسا وأوروبا إلى الجزائر. الواقع أن هؤلاء لم يكونوا من النخبة الأوروبية، بل كانوا من سفلة القوم ومن الطبقة الحقيرة وحتّى من اللصوص والمجرمين الذين أخرجتهم الحكومة الفرنسية من غياهب السجون، وعفت عنهم وجلبتهم إلى الجزائر ليعمروها.

ولذلك لاحظ المؤرخون أن الأفواج الأولى من المعمرين كانت لا مبدأ لها ولا ضمير إلاّ حب المال والنهب والاستغلال والرفاهية. فصاروا يعاملون الأهالي معاملة اللصوصية والمخادعة[1].

وقد كان هدف هؤلاء المغامرين هو استغلال الأراضي الجزائرية وثرواتها، وإفقار أهلها. وبهذه الطريقة أصبحت الأراضي التي تقع في السهول وعلى مجاري المياه في يد المستوطنين الأوروبيين[2] ولم يعد الجزائريون يملكون سوى 7% فقط من الأراضي الزراعية الخصبة في سواحل الجزائر و17% في منطقة متيجة بضواحي العاصمة ونحو 15% في منطقة وهران، و23% في مستغانم، و24% في منطقة سيدي بلعباس، وقس على ذلك بالنسبة لبقية الأراضي الزراعية الخصبة الأخرى إعتمادا على إحصاء أجرته الحكومة الفرنسية في الجزائر قبل ثورة نوفمبر فإن متوسط ما يملكه المزارع الأوربي قد ارتفع من 108 هكتار سنة 1940 إلى 126 هكتار سنة 1952.

وبذلك زادت ملكية المعمرين للأراضي الجزائرية خلال الفترة ما بين (1940 – 1952) على حساب المزارعين الجزائريين. ولم يقتصر الأمر على مصادرة أراضي الجزائريين بل عمل الأوروبيون على تحويل الأراضي التي استولوا عليها إلى زراعة الكروم لغرض إنتاج الخمور، بحيث وصلت الأراضي المزروعة كرومًا حتّى

---

1 – عبد الحميد بن العربي بن أشنهو: تطور الاستعمار في الجزائر وفي سائر المستعمرات، الإصالة، العدد 22، السنة 3، أكتوبر نوفمبر ديسمبر 1974، ص 171.

2 – كوليت وفرانسيس جانسون، الجزائر الثائرة، مرجع سابق، ص 89.

عام 1910 إلى 15 ألف هكتار ثمّ تطورت إلى 400 ألف هكتار عام 1935 بينما لم تتغير مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب[1].

وقد كان هذا كله على حساب احتياجات الجزائريين إلى المواد الغذائية الشيء الذي جعل الجزائر تستورد القمح من الخارج لإطعام سكانها في حين كانت قبل ذلك من البلدان المصدرة للحبوب إلى مختلف دول العالم ومن بينها فرنسا.

**ثالثا: – الوضع الثقافي**

إنّ هدف الاستعمار في الجزائر لم يكن اقتصاديًا أو سياسيًا فحسب، بل كان استعمارًا ثقافيًا، هدفه محو الثقافة العربية الإسلامية وإحلال ثقافة فرنسية دخيلة محلها على المجتمع الجزائري. وحتّى يتضح لنا ذلك أكثر نحاول أن نتعرض لوضعية الثقافة في الجزائر في بداية الاحتلال وأثناءه.

1 – وضعية الثقافة في الجزائر في بداية الاحتلال: كانت الثقافة في الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي مزدهرة ازدهارا كبيرًا. يدل على ذلك انتشار المؤسسات الثقافية وارتفاع مستوى التعليم بحيث لم يختلف عمّا كان عليه في المدارس الفرنسية وذلك باعتراف الكتاب الفرنسيين أنفسهم[2].

وكانت مدن ومناطق الجزائر كبجاية وتلمسان وقسنطينة، ومازونة، والجزائر العاصمة ووهران، وعنابة، وتيزي وزو من أهم المراكز الثقافية في الجزائر. وقد بلغ عدد المدارس في قسنطينة قبل الاحتلال (80) مدرسة و(7) معاهد و(35) مسجدًا ولم يبق منها بعد الاحتلال سوى (30) مدرسة.

---

1 – د. عبد الله شريط، ومحمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، قسنطينة 1965، ص 218.

2 – المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمر (1830 – 1880) تأليف الأستاذ "إيفون تورين"، باريس، 1971، تقديم د. أبو عمران، الأصالة عدد 16، السنة 1، جانفي 1982، ص 117.

وكان يوجد في تيزي وزو عدد غير محدد من المدارس والزوايا يتردد عليها تلاميذ وطلبة كثيرون. وهكذا بالنسبة إلى المراكز الثقافة العربية الأخرى في بقية الجهات الجزائرية[1].

وكان يتولى التدريس فيها أساتذة متبحرون ومتضلعون في العلوم المختلفة كالأدب وعلم الكلام والفقه والتفسير، والحديث، وأصول الفقه. وهذه الثقافة العربية الإسلامية من النوع التي كانت في العالم الإسلامي[2].

هكذا كانت الثقافة والتعليم منتشرة بين الجزائريين، ومما يؤكد ذلك أن نائبًا فرنسيًا يدعى "طوكفيل" ندد سنة 1847 بشدة بمخربي المجتمع الجزائري حيث قال: «إنّ المجتمع الجزائري لم يكن غير متمدن بل كانت مدنيته إلا متأخرة وناقصة. وكان يحتوي على عدد كبير من المؤسسات الدينية، مهمتها البر والإحسان ونشر التعليم في جميع أنحاء الجزائر. وقد استحوذنا على مداخلها وحرفنا، أهدافها، وقضينا على الجمعيات الخيرية، وخربنا المدارس، وشتتنا شمل الزوايا. إلى أن يقول: لقد انطفأت في الجزائر مشاعل العلم، ومراكز إشعاع العلم والمعرفة وأهملنا العلماء والفقهاء المسلمين فصاروا قومًا بورا، وقذفنا بالمسلمين الجزائريين في البؤس والجوع... ثمّ رمينا بهم في حالة أكثر همجية مما كانوا عليه فسخطوا علينا سخطًا كبيرًا »[3].

ومن نتائج انتشار التعليم والثقافة بين الجزائريين في بداية الاحتلال كثرة عدد المتعلمين بصفة عامة وقلة الأمية بين السكان. وقد لاحظ هذه الظاهرة عدد كبير من المؤرخين الفرنسيين. وكذلك بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر قبل الاحتلال، وبعده. وسجلوا هذه الانطباعات من ذلك ما كتبه "إسماعيل أوربان"[4] من أن

---

1 – إيفون تورين، المرجع السابق، ص 117.

2 – أحمد درار: التعليم الأصلي في الجزائر خلال العشر سنوات، من استرجاع الاستقلال، الأصالة، العدد 8، السنة 2، ماي جوان 1972، ص 230.

3 – فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص 104، 105.

4 – أسلم وهو من أنصار نابليون بونابرت، كان يعطف على الجزائريين، وله مكتب هامة تدل على مساوئ الاستعمار، ويحاول إنصاف المظلومين.

الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا أكثر عددا من الفرنسيين الذين كـــانوا يقرأون ويكتبون. وقد لاحظ أن 45% من الفرنسيين كانوا أميين حينذاك، وأن الجزائر احتلها جنود فرنسيون من طبقة جاهلة تمام الجهل وهو يعني طبقة الفلاحين. ثمّ يقول: «يجب علينا أن نعترف للحقيقة أن المسلمين في إفريقيا الشـــمالية – رغــم انخفـــاض مستوى العلوم بها وقلة الكتب – كانوا يولون مسائل التربيـــة والتعلـــيم عنايـــة لهـــا قيمتها»[1].

إنّ جميع الوثائق المتوفرة عن الجزائر قبيل 1830 تشهد بـــأن الجزائـــر قـــد ازدهرت فيها الثقافة، وإن كانت نوعًا ما فقيرة من حيث المؤلفات المبتكرة، إلا أنها مع ذلك تشكل جانبًا من الثقافة الوطنية الأصيلة، ولم يكن لها إلاّ اســـتعداد ضـــئيل ولـــم يختلف في جوهره عن الأفكار العربية الأخرى كالمغرب وتونس وليبيا ومصر. وذلك نتيجة الجمود المفروض الذي طغى على العالم الإسلامي. ولم تتمكن البلاد من مرافق التقدم والرقي ومسايرة الحضارة والتكيف معها[2]. ومما زاد الوضع تأزمـــا ســـيطرة الطرق الصوفية المنحرفة على الفكر الإسلامي إذ بلغ نفوذها درجة مذهلة.

وقد اغتنم الاستعمار هذه المظاهر السلبية وغذاها في نفوس العامة السذج حتّى يبقوا على هذه المبادئ الغالطة. هكذا فبدل أن يتولى زعماء الزوايا القيـــادة الوطنيـــة والسياسية مثلما فعلت الرحمانية والقادرية، انغمسوا في المرابطية تاركين للفرنســـيين يدًا حرة في الجزائر مبدين لهم مساعدة عن وعي أو عن غير وعي ذلـــك بتســـليطهم الخرافي على عقلية الناس وسذاجتهم.

---

1 – سعد الدين بن ابيشنب: النهضة العربية في القرن 14 هـــ، مجلة كلية الآداب، الجزائر، العدد 1، السنة 1، سنة 1964، ص 39.

2 – د. أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية (1962 – 1972)، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، 1972، ص 14.

وقد جاء في رسالة طويلة[1] للسيد "دوكستان" شـرح فيهـا الكاتـب بإسـهاب المساعدات العظيمة التي يأتيها شيوخ الطريقة التيجانية خدمـة للاسـتعمار. هـؤلاء الشيوخ الذين مكنت لهم فرنسا من المال والجاه. هكذا تعاونـت فرنسـا مـع بعـض الطرقيين فيما يجب من الوسائل الرادعة لمقاومة وتشتيت المسلمين.

يقول أحد الكتاب الفرنسيين الذي لم يذكر اسمه: « يجب أن يكون على حـدود مستعمراتنا رجال من أصحاب الدهاء والخبرة التامة بأحوال الطوائف الإسلامية الذين يعلمون دخائلها وعيوبها ليستعملوا كل خلل يجدونه لصالح وطننا فرنسا »[2].

---

1 – نشرت في مجلة العالمين الشهرية، العدد الصادر في فاتح مارس 1889.

2 – انظر مجلة المنار لرشيد رضا، المجلد الأول، القاهرة، 1935، ص 426.

## وضعية الثقافة في الجزائر أثناء الاحتلال

إنّ فرنسا المعروفة بمكائدها نحو الجزائريين وتجاه الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر لم تكتف بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه، ومسخ شخصيته، بل عملت على إفساد العقول. وقد تجلى عملها التخريبي في ثلاث نقاط أساسية هي:

1 – القضاء على المراكز الثقافية: ويتمثل ذلك في إغلاق العديد من المساجد والمدارس القرآنية لأنها كانت مراكز التثقيف للصغار والكبار، وغرس روح الشهامة والاعتزاز في نفوسهم، كما أنها حولت الزوايا التي سلمت من التخريب إلى أوكار تدين بالولاء مع الاقتصار فيها على حفظ القرآن. وهذا ما اعترف به أحد المستشرقين عام 1908 حيث قال: «إنّ المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلميذ عن ظهر قلب. أما المدارس التي يستطيع التلميذ أن يتعلم فيها مواد أخرى، فعددها محصور جدًا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار»[1] هكذا استطاعت فرنسا أن تقلل من المراكز الثقافية وأن تهدم الكثير منها، واستولت على الأوقاف التي كانت تغذيها وتنميها. ثمّ حاول المستعمر تشويه تاريخ الجزائر. وادعى أنه ليس لنا تاريخ ولا حضارة.

2 – تشويه تاريخ الجزائر[2]: حتّى يتمكن المستعمر من الجزائريين حاول أن يقضي في نفوسهم على جذوة الاعتزاز بتاريخهم وبقيمه الحضارية. وبالمبادئ التي كانوا يؤمنون بها وادعى أنه ليس لنا تاريخ ولا حضارة في حين أنه صاحب رسالة وحضارة. وأننا شعب متخلف ومتوحش، من ذلك أن العقل الجزائري كان وما يزال راكدًا ومتحجرًا.أما العقل الأوروبي "الديكارتي" فهو عقل جامح يتطلع على ميادين المعرفة ويجوب آفاق الحياة يكتشف أسرارها ويحاول السيطرة على المجهول والمخفي منها. هكذا ظهرت فكرة التفاضل والتمايز بين الشعوب فكان هناك علماء يؤمنون بأفضلية الشعوب الأوروبية على الشعوب غير الأوروبية، وينادون بضرورة "تمدين"

---

1 – د. أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، مرجع سابق، ص 15.

2 – انظر بهذا الخصوص الفصل الثالث من هذا البحث.

هذه الأخيرة لأنها متخلفة عن الركب الحضاري[1]. وهذا لربط ماضي الجزائر بالكنيسة حضاريًا وثقافيًا.

والواقع أن هدف المستعمر لم يكن تمدين الجزائر بقدر ما هو تحطيم للمعنويات التي يتمتع بها الشعب الجزائري. ويتجلى هذا الموقف في القضاء على الثقافة الوطنية، ونشر التعليم الفرنسي مكانها.

3 – استبدال التعليم العربي بالتعليم الفرنسي: وقد كان الغرض من هذا التعليم أن يتحول المجتمع الجزائري تحويلا كليًا يجعله يخدم مصالح المستعمر ولهذا انتهجت السلطة الفرنسية سياسة[2] الاندماج. وارتأت أن التعليم أحسن وسيلة لتلقين الناس عادات جديدة في التفكير والتذوق والسلوك. وقد كتب "جون هاردي" مدير التعليم في الجزائر وصاحب نظرية استعمارية في الموضوع كتب كلمة صريحة في هذا الشأن فقال: «إنّ أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصًا في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة بمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود إذن، هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد»[3].

وقد عمل المستعمر على حصر هذا النوع من التعليم في أقلية محدودة تتوسط بينه وبين بقية الشعب. ويمكن تلخيص هدف المستعمر في هذا المجال في نقطتين وهما:

1 – تكوين نخبة مزيفة من المثقفين مقطوعة عن الجماهير الشعبية، بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء بين ذويهم فتنقطع صلتهم بأبناء الوطن ويتنكرون للتقاليد، وأن يتقمصوا شخصية الأجنبي، بعدما ضلوا السبيل، وأعمتهم الدعاية الاستعمارية.

---

1 – د. سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزائر، 1978، ص 18.

2 – المجابهات الثقافية، تقديم د. ابو عمران، الأصالة، عدد سابق، ص 118.

3 – الأستاذ العباسي: لنقطع جسور التبعية الثقافية التاريخية والاغتراب المفروض، مجلة الفلاح والثورة، عدد 34، 1981، ص 10، 11.

2 – فرنسة الوسط الجزائري، بنقل المدرسة الفرنسية إلى البلاد ببرامجها وأهدافها، الأمر الذي أدخل الرعب إلى قلوب بعض الجزائريين وبناء على قول "غوتي" فإنّ عضوا من جماعة "النخبة" قد أخبر زميله الفرنسي في المجلس[1] البلدي بالعاصمة قائلا «أنني أشعر بالخجل من عربيتي» وذلك لما شابها من كلمات فرنسية دخيلة تسربت إلى ألسنة الجزائريين بسبب سيطرة اللغة الفرنسية على شؤون الإدارة، والتعليم، ووسائل الإعلام، ومختلف النشاطات الثقافية. وقد صور لنا كاتب جزائري هذا الخوف، على لهجة الحديث بالعامية في مقال كتبه عام 1938 في جريدة "البصائر" تحت عنوان "بعد غربة اللغة العربية أصبحنا نخشى على اللغة الدارجة".

قال موجهًا كلامه إلى الشباب الجزائري: « لئن كان منكم من جيل بينه وبين الفصحى فلا أقل من أن ينال حظه من اللغة الدارجة، فإن الرطانة التي تفاحش أمرها في عموم القطر، وتشوهت بها الألسن أيما تشويه تركتنا خائفين على لغتنا العامية ذلك الخيال الباق من العربية »[2]. وانطلاقًا من هذه السياسة تجاه الثقافة العربية في الجزائر سادت الأمية في وسط الشعب الجزائري حتّى أصبحت بعد قرن وثلث من الاستعمار تشكل 90% بين الرجال و98.4% بين النساء أما القلة التي أتاح لها الاستعمار التعليم والثقافة فلم تتجاوز نسبتها 5.1% بين الرجال و2.6% بين النساء[3].

هكذا انتهج الاستعمار سياسة تجهيل الشعب الجزائري، بحيث يمكن أن يفقد شخصيته ومكانته التاريخية أو يجعله يشك فيهما. وبناء على هذا عمد المستعمر على نهب وتجريد التراث العربي الإسلامي في الجزائر. وأشهر حادثة في ذلك تدمير مكتبة الأمير عبد القادر بحيث أن بعض الجنود ذكروا أن الأمير أصابه حزن شديد. وهو

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 339.

2 – البصائر، العدد 23، السنة 1، 12 يونيو 1938، ص 2، مقال كتبه أبو العباس أحمد، ابن الهاشمي.

3 – عمار بوحوش: مقال منشور في مجلة الثقافة، العدد 14، 1973، ص 62.

يتتبع آثار الطابور الفرنسي مسترشدًا بالأوراق المبعثرة في الصحراء التي انتزعها الجنود الفرنسيون من الكتب التي عانى الكثير في جمعها[1].

ولعل الغرض من هذا النهب المتعمد للتراث الثقافي الجزائري من طرف الاستعمار يندرج في نطاق سياسته في محاربة اللغة العربية، والعمل على طمس معالمها الحضارية باعتبارها المقوم الأساسي للشخصية الجزائرية. هذا ولم يكتف الاستعمار بسياسة النهب للمخطوطات الجزائرية – كما أشرت إلى ذلك، بل راح يحارب الصحافة الوطنية التي كانت تعمل على تثقيف الشعب، وتدافع عن الثقافة العربية. فقد عمل على إخماد صوتها عملا بسياسة محاربة اللغة العربية.

هكذا كانت معظم المجلات والجرائد العربية ما أن تبدأ في الصدور حتّى تختفي بسرعة. وعلى سبيل المثال، ما وقع لجريدة "المنتقد" التي كان يصدرها الأستاذ العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث أمر بإغلاقها نهائيًا بعد أشهر قليلة من تاريخ صدورها بحيث لم يصدر منها سوى 18 عددًا فقط. ونفس الشيء وقع لجرائد جمعية العلماء.

هكذا نجد في الجزائر خلال فترة الدراسة (1920 – 1945) صراعًا ثقافيا بين ثقافة المستعمر والثقافة الوطنية. والملاحظ أن الشعب الجزائري لم يرض بفلسفة الاستبداد. ورفضها رفضًا مطلقًا، وقاومها بكل ما لديه من قوة، وقد اكتسبت المقاومة الوطنية أشكالاً متنوعة، منها محاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية، ولرجال التعليم والعلم والثقافة دور كبير في هذا الصراع بحيث أيقظوا من كان نائمًا، وحرضوا الشعب على رفض التعليم الفرنسي مبينين لهم أهدافه وخطورته. وجعلوا من كل مدرسة وزاوية وكل مسجد مركزًا لمحاربة العدو الأمر الذي جعل المستعمر يتساءل في سر الوحدة الشعبية القوية للشعب الجزائري.

وقد أدى هذا الصراع الذي أشرت إليه إلى ظهور تيارين متباينين:

---

1 – نقلا عن تركي رابح، التعليم القومي، مرجع سابق، ص 94.

1 – تيار الثقافة الفرنسية.

2 – تيار الثقافة العربية.

ويمثل التيار الأول جماعة من الشباب الجزائري الذي أطلق عليهم الفرنسيون "جماعة النخبة"[1] وهم جماعة تثقفت بالثقافة الفرنسية. وتأثرت بالحضارة الأوروبية. وقد ظهر هذا التيار على المسرح السياسي خلال الحرب العالمية الأولى. وكانت له جرائد باللغة الفرنسية ودعاية في المحافل السياسية[2]. داخل البلاد وخارجها.

ويلاحظ أن أنصار هذا التيار هم الذين نجح الاستعمار الفرنسي والمبشرون المسيحيون في استمالتهم عن التيار العربي الإسلامي، وصبغهم بالصبغة الفرنسية حتّى أصبحوا يدينون له بالولاء وخادمين لأغراضه.

أما تيار الثقافة العربية فكان يمثله دعاة القومية الإسلامية بقيادة مشايخ الزوايا والعلماء المصلحين. وهذا ما سنعود إليه في فصول هذا البحث بكيفية أكثر تفصيلا.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 407.

2 – يمثل هذا التيار جماعة "اتحاد المنتخبين الجزائريين" التي كانت تدعو إلى دمج الجزائر في فرنسا.

## الفصل الثاني

## الحياة الدينية والثقافية في منطقة القبائل

### تمهيد

كانت منطقة القبائل وما تزال مركز إشعاع للعلم والمعرفة، ومنبعًا ثريًا للعلوم الإسلامية. ويرجع ذلك إلى ازدهار الحضارة بشمال إفريقيا عمومًا وفي منطقة القبائل خصوصًا[1]، على أيدي المسلمين الأولين أمثال الشيخ عبد الرحمن اليلولي صاحب الزاوية المشهورة في المنطقة قديمًا، والشيخ أحمد أو مالك ثمّ سيدي منصور صاحب الزاوية[2] المعروفة بناحية آيت جناد "جرجرة".

وقد نزل هذا الأخير "سيدي منصور" بهذه الزاوية خلال القرن التاسع[3] الهجري (15م)، أدى هؤلاء جميعًا خدمات جليلة للإسلام والمسلمين كترسيخ كلام الله وسنة رسوله في النفوس، وانتقالها إلى الناس جيلا بعد جيل مع ما يحيط بهم من عسر وضيق في المعيشة وانقطاع عن مواطن العمران. سواء في ذلك من تحصن بالجبال أو بالصحراء.

وقد كان اهتمامهم كبيرا بإقامة الشعائر الدينية وفي الحفاظ على العقيدة الإسلامية بالدفاع عنها وبناء المساجد والأضرحة والزوايا، وفي تحبيس الأحباس، التي تخدم هذه الأغراض، وفي دراسة التاريخ الإسلامي وبنوا لذلك الكتاتيب وغيرها من المؤسسات الدينية، وركزوا في تعليمهم على القرآن الكريم حفظًا وتفسيرًا، وتخرج

---

1 – باعزيز بن عمر: الزوايا في الزواوة، الشهاب، ج 1، م 9، جانفي 1933، ص 17.

2 – تقع في ناحية آيت جناد، دائرة عزازقة، تأسست خلال القرن التاسع الهجري (15م) على يدي الولي الصالح سيدي منصور، أحد المجاهدين الذين رابطوا في هذه الناحية في سبيل الله. وقد كانت مقصدًا لطلبة العلم والأدب، وحفظة القرآن الكريم، وعلوم الشرع الإسلامي ومن مختلف جهات القطر. وكانت تأوي حوالي 80 طالبًا وأحيانًا يصلون إلى 150 طالبًا وهم يتمتعون بالنظام الداخلي.

3 – BOULIFA Said, Le Djudjura àtravers l'histoire de puis l'antiquité jusqu'à 1830 : organisation et indépendance des Zouaoua, Alger, 1925, p 1 - 2.

على أيديهم طلبة كثيرون من سكان منطقة "جرجرة" وغيرهم من الطلبة الوافدين إليها من المناطق الأخرى طلبًا للعلم.

وإلى هؤلاء جميعًا يعود الفضل في إعلاء شأن الإسلام وحفظه في ربوع هذه المنطقة. بهذا عرفت المنطقة حياة دينية وثقافية خصبة كانت على الدوام الحصن الحصين للثقافة الإسلامية في الجزائر.

وقد نبغ فيها أعلام كثيرون في مختلف العلوم وخاصة العلوم الإسلامية كالفقه والتصوف. وكانت مراكز التعليم بها خلال مرحلة الدراسة وقبلها هي المساجد والزوايا التي كانت تؤدي دورًا تعليميا من جهة ودورا دينيا من جهة أخرى. « وقد كانت مدينة بجاية في العصر القديم مصدر النهضة العلمية بدون منازع، بحيث كانت همزة وصل بين الأندلس والشرق الإسلامي، وكان الأندلسيون يقصدون المرور بها للأخذ من علمائها عند سفرهم إلى المشرق العربي»[1].

وبذلك كانت بجاية من الناحية العلمية والثقافية ذات شهرة خاصة. ومما يدل على ذلك أن اسم جامعتها هو "سيدي التواتي البربري"[2] ومن علماء هذه المنطقة الذين أظهروا تفوقًا في اللغة والخط والنحو والفقه، ابن معطي صاحب الأجرومية النحوية[3]، والشيخ أعراب[4] صاحب الزاوية المشهورة في ناحية الأربعاء بني راتن. وممن تعلموا في هذه الزاوية العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطولي الأزهري الزواوي، وفيها أخذ القرآن الكريم وبعض المبادئ العربية والفقهية. وهو ناشر الطريقة الرحمانية في الجزائر والسودان[5]، ولعل ما تفخر به هذه المنطقة وخاصة

---

1 – د. أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، مرجع سابق، ص 7، 8.

2 – د. رشيد مصطفاوي: بجاية في عهد الحماديين، الأصالة، عدد 3، السنة 1، مارس 1971، مرجع سابق، ص 85.

3 – ابن معطي، من قرية آيت فراوسن جامع الصهاريج بلدية مقلع.

4 - TURIN Yvonne, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, (1830 – 1880), Paris, 1971, p. 126, 133, 134.

5 – أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، الجزائر، 1910، ص 35.

مدينة بجاية العاصمة الثقافية لها في العصر القديم. إنّها كانت إحدى الجامعتين الإسلاميتين اللتين زودتنا أوروبا بمادة الحساب والأرقام الغبارية التي ما تزال حتّى اليوم، ففي هذه المدينة تربى الرياضي الإيطالي الكبير "اليوناردبيز"[1] الذي تعلم على أستاذه البجائي "سيدي اعمر"[2] مختلف العلوم والمعارف وخاصة مادة الحساب التي أولع بها فيما بعد.

وقد اعترف الأجانب بتفوق بجاية على بلدانهم. ذلك أن بجاية قديمًا كانت أسعد حظا وأقوى على مواجهة أخطار الزمن، فقاومت ظروف الدهر وأهواله. وبالتالي فرضت وجودها في التاريخ[3]. وقد سجل لنا العالم الجليل "الغبريني"[4] أخبار وتاريخ

---

1 – وقد كان أبوه كاتبا وممثلا للجالية الإيطالية في مدينة بجاية، وهو المشهور بفبو ناكشي، عاش في القرن الثاني عشر الميلادي (1170 – 1240)، راجع الدوميلي (العلم العربي) ناشر بريل لايدان رولاند، ط 2، سنة 1996، ص 244. وقد دفعه ولعه هذا إلى التجوال في أصقاع المغرب العربي، ومصر والشام، واليونان، وصقلية للإطلاع على تراث المسلمين في العلوم الرياضية والحساب.
وأخيرا ألف كتاب العد في الحساب عام 1202م وكتابا آخر في الهندسة التطبيقية، وكتابين اخرين ابتكر فيهما طريقة جديدة لحل معادلات جبرية كثيرة من الدرجة الأولى والثانية. ويعتبر اليوناربيز أول أوروبي استعمل كل الأرقام الهندسية التسعة والصفر والطريقة العشرية. وادخل الحساب والجبر العربيين إلى أوروبا.

2 – د. يحيى بوعزيز: ملامح عن قلعة بني حماد والدولة الحمادية وبجاية: الأصالة، العدد 36، السنة 6، ديسمبر جانفي 1977، ص 17.

3 – د. يحي بو عزيز، المرجع السابق، ص 17.

4 – أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، فقيه مالكي، مؤرخ، له مشاركة في علم الحديث والتفسير والعربية والمنطق. تنتسب أسرته إلى بني غبرين ناحية عزازقة من منطقة القبائل الكبرى. وقد نبغ فيها غير "الغبريني" عدد من الأعلام أمثال أبو النجم هلال بن يونس بن حمامة الغبريني وهو من أفراد قبيلته أيضًا. درس أولا القرآن الكريم وعنى بقراءته ورسمه. تعلم في بجاية وتونس فأخذ عن محمد بن عبد العزيز القيسي وعبد الحق بن ربيع وأحمد بن عيسى الغماري وأبي القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون. وأحمد بن خالد المالكي ومحمد بن الحسن التميمي القلعي وابن عبد الله السجلماسي ومحمد بن صالح الكتاني وغيرهم. وبعد أن تقدم في دراسته أخذ يحضر في الحلقات العلمية التي كانت تعقد بالمساجد الكبيرة كالمسجد الأعظم ببجاية وغيره وكجامع الزيتونة بتونس. =

علمائها ومفكريها في كتابه القيم "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية". ومن العلماء المتضلعين في الفقه وعلم الكلام والتصوف والأدب واللغة ممن كانوا ينتمون للزواويين أبو علي منصور، أحمد بن عبد الحق المشدالي[1]، والصوفي الزاهد أبو زكريا الزواوي وغيرهما[2]. ومشدالة مشهورة في التاريخ حيث أخرجت علماء وفقهاء ومقرئين لامعين وهي تقع في دائرة أقبو ولاية بجاية.

وهذا مما يؤكد لنا ما للدولة الحمادية من دور في خدمة الفكر والحضارة، وما لبجاية نفسها من أهمية في التاريخ والحضارة والعمران والاقتصاد. سواء خلال العهد الحمادي أو العهود التي تلتها من الموحدين والحفصيين. داخل البلاد وخارجها، بحيث كانت جسرًا في إيصال عدد من العلوم والمعارف الإسلامية إلى أوروبا كانت هي السبب في نهضتها العلمية في أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث[3].

---

=وقد أكد أنه درس نوعين من العلوم، علوم الدراية كعلم الأصولين، أصول الدين وأصول الفقه، وعلم المنطق، وعلوم الرواية، كعلوم التفسير، وعلوم الحديث، وعلوم التذكير.

وقد درس طرق التدريس ببجاية فلاحظ أنها كانت تختلف باختلاف الشيوخ الذين كان يقرأ عليهم فمنهم من كان يعتمد على الطريقة التقليدية منهم من كانت طريقته تعتمد على الحوار والمناقشة والتعمق في البحث والتحليل كابن عبد الله محمد بن الحسين بن علي القلعي المتوفي سنة 673هـ. وأهم التيارات الفكرية التي يمثلها كتابه هذا "عنوان الدراية":

1 – محور الفقه وما يتبعه من علوم الدين وغيرها.

2 – محور الأدب من شعر ونثر ونحو.

3 – محور المباحث الفلسفية والتصوف بقسميه السني والفلسفي. انظرّ في ذلك عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر، ب.ت، ص 21، 24، 25، 28، 29، 41.

1 – الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1910، ص 134.

2 – نفس المرجع السابق، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر، ب.ت، ص 21، 43، 44.

3 – د. يحيى بوعزيز، ملامح بني حماد والدولة الحمادية، الأصالة، العدد السابق، ص 18.

ومن أعلام المنطقة الآخرين المعروفين بعلمهم في العصر الحديث الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي صاحب الزاوية المعروفة بناحية بوجليل الذي انتصب للتدريس في زاويته خلال القرن التاسع عشر[1]. وبذلك كانت قرية بوجليل منارة للإشعاع الروحي والثقافي، وينبوعًا ثريًا يؤمه الطلبة من كل حدب وصوب. وللشيخ مؤلفات وخطب وتقييدات منها تفسيرات على شرح الأجرومية للشريف بن يعلى وهو الكتاب الذي اشتهر تدريسه في منطقة القبائل في تلك الفترة. وكتاب "التبصرة في القراءات العشر" «وهو من أهم مؤلفاته حيث نقل لنا فيه صورة أمينة لمدرسة قائمة بذاتها في القراءات»[2].

هذا بالنسبة للقدامى، أما في القرن العشرين فإننا نجد ثلة من المشايخ نذكر منهم الشيخ السعيد بن أحمد الزكري الذي استقر بالجزائر العاصمة. ودرس في الجامع الأعظم، وتولى الإمامة بجامع سيدي رمضان بالعاصمة والإفتاء المالكي. توفي سنة 1914[3]. ومن مؤلفاته "أوضح دلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل" الذي ألفه سنة 1903، والشيخ المولود الحافظي[4] والشيخ أبا يعلى[5] الزواوي، والشيخ الرزقي الشرفاوي والشيخ السعيد البهلولي الذي انتصب للتدريس بزاوية سيدي موسى "القبائل الصغرى" وهو دون الثلاثين، له رسالة في الرد على من يقول بوجوب تلقين

---

1 – الأستاذ محمد الشريف الحسيني، جوانب من شخصية الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي، جريدة العصر الأسبوعية، العدد 32، السنة 1، 19 نوفمبر 1981، ص 3.

2 – د. عمار الطالبي، محمد بن أبي القاسم البوجليلي، وكتابه "التبصرة في القراءات العشر"، محاضرة ألقيت في الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة 1981، ص4.

3 – الأستاذ رابح بونار: مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية، الأصالة، العدد 8، السنة 2، ماي جوان 1972، ص 89.

4 – انظر تراجم أعلام الإصلاح في منطقة القبائل في نهاية هذا البحث.

5 – لأبي يعلى تآليف مفيدة منها تاريخ زاوية "مخلوط" و"الأمة العربية"، "الإسلام الصحيح"، و"تعدد الزوجات في الإسلام"، "الخطب المنبرية"، "جماعة المسلمين"، "رسالة في العائلة الزواوية المهاجرة إلى الشام". انظر ترجمته في نهاية هذا البحث.

الأوراد للعوام من المريدين، وهي الرسالة التي طبعت بمطبعة أوديس على نفقة بعض أعيان قرية "سيدي عيش" سنة 1928[1].

هكذا كانت منطقة القبائل طيلة هذه الفترة وقبلها تزخر بنشاط ثقافي، وبحركة علمية تضم في كنفها طائفة من الأفذاذ، رجال الفكر والأدب والثقافة، وغدت بذلك مركزًا هامًا للثقافة والعلوم استقطبت عددًا لا يحصى من رجال الفن والأدب. وهو ما كان له تأثير بالغ في تأسيس الكثير من الزوايا في هذه المنطقة.

**الزوايا:**

إنّ أهم ما تتميز به زوايا منطقة القبائل أنها ليست كسائر الأمكنة والأبنية التي يطلق عليها اسم الزوايا كما يزعم بعض الناس، بل هي مدارس[2] ابتدائية ومعاهد علمية، أسست لقراءة القرآن الكريم وما إلى ذلك من العلوم الأخرى المختلفة. ولأهميتها سواء من الناحية الدينية أو التعليمية أو السياسية أرى من الواجب أن أتوقف عندها قليلا فأعطي لمحة عن حالتها العامة، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – أنواعها.

2 – قوانينها.

3 – مقرراتها وطرق التدريس بها.

4 – مواردها الاقتصادية (الأحباس).

وسأتعرض فيما بعد لأهم الزوايا[3] التي خدمت الثقافة ونشر التعليم العربي الحر في منطقة القبائل "جرجرة" كمثال ونموذج، للزوايا الصالحة التي خدمت اللغة العربية في الجزائر منها:

---

1 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء: الشيخ السعيد البهلولي المصلح الديني في بني ورتلان، جريدة العصر السبوعية، العدد 8، السنة 1، 4 جوان 1981، ص 4.

2 – باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مجلة الشهاب، مصدر سابق، ص 17.

3 – انظر قائمة خاصة بأسماء زوايا منطقة القبائل في ملاحق هذا البحث.

1 – زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي.

2 – الزاوية السحنونية بالأربعاء نآيت إيراثن.

3 – زاوية سيدي علي بن يحي بذراع الميزان.

4 – زاوية آيت بو يحي بالأربعاء بني دوالة.

ومن أهداف هذه الزوايا أنها تربي الطلبة تربية إسلامية عملية قوية، وتغرس فيهم أخلاق الرجولة واعتماد الطالب على نفسه في كل شؤونه كالتقشف في العيش الذي يخلق النفوس القوية، كما تعلمهم العشرة الطيبة للزملاء وحب العمل، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله.

وقد انتشر هذا النوع من المعاهد بوادي بجاية بعد احتلال إسبانيا لبجاية، ومغادرة سكانها خصوصًا الجالية الأندلسية التي كانت لاجئة فيها. إنّ الكثير من أفرادها أسسوا معاهد في بني يعلى وبني وغليس[1] وأن أسماءهم لا تزال محفوظة في تاريخ علماء بجاية في ذلك العصر الزاهر، وفي "تاريخ[2] أزواوة" لأبي يعلى الزواوي[3].

ولهذه المعاهد "الزوايا"[4] أحباس وقوانين داخلية – كما سأبين ذلك في تحليل لاحق بكيفية أكثر تفصيلا – انتشرت في معظم معاهد القبائل وهي تمتاز عن نظم الزاوية، إذ الزاوية في الغالب تخضع لتصرف شيخ الطريقة أو مقدمها أما المعاهد فلها قوانين محكمة، وإذا وقع خلل أو سوء فهم في تطبيق تلك القوانين فإنّ الزملاء المتخرجين منها هم الذين يرجع لهم الفضل حيث يجتمعون لحل المشاكل كثيرًا ما كانت تشد أزر الرباط في سبيل الله.

1 – المهدي البوعبدلي: الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، الأصالة، عدد 13، مارس أفريل، 1973، ص 26.

2 – باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مجلة الشهاب، مرجع سابق، ص 15، 16.

3 – انظر ترجمته في ملاحق هذا البحث.

4 – المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، مرجع سابق، ص 26.

وقد كثرت هذه المؤسسات الدينية وانتشرت خلال الزحف الاستعماري الفرنسي في القرنين التاسع عشر ومطاع القرن العشرين[1]. الشيء الذي يبين لنا دور الزاوية السياسي. وتعتبر منطقة القبائل من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا حيث بلغ عددها سنة 1933 أكثر من 40 زاوية[2] ما بين صغيرة وكبيرة. ويوجد في المنطقة نوعان[3] من الزوايا:

1 – زوايا حرة كزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي، وزاوية الشيخ أحمد بن إدريس، وزاوية الشيخ محمد السعدي بناحية دلس.

2 – زوايا مسيرة من طرف أبنائها بالوراثة كزاوية سيدي أحمد أومالك وزاوية[4] سيدي عمرو الحاج، وزاوية سيدي بهلول في ناحية عزازقة، ثمّ زاوية سيد عمرو الشريف بناحية دلس، وزاوية سيدي أحمد زروق "بجاية" وزاوية سيد علي يحي، وزاوية سيدي الحاج احساين "بسيدي عيش"، وزاوية سيدي موسى تينبذار "بجاية" ثمّ زاوية سيدي منصور بلدة أزفون. ومن مظاهر التطور بهذه الزوايا:

---

1 – د. يحي بوعزيز: أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين 19، 20، الثقافة، عدد 63، السنة 11، ماي جوان 1981، ص 16.

2 – باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مرجع سابق، ص 15.

3 – ابن الزكري سعيد بن أحمد الجنادي الزواوي: أوضح دلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مطبعة فونتانه، الجزائر، 1903، ص 70.

4 – تقع في ناحية عزازقة، تأسست قديمًا على يد سيدي عمرو الحاج حوالي القرن الثامن الهجري (14م) وقد سميت باسمه، وهو دفين زاويته، واصل سيدي عمرو الحاج من الساقية الحمراء ووادي الذهب (معلومات متواترة). وقد توافد على الزاوية عدد كبير من المشايخ أمثال الشيخ محمد السعيد بن سحنون عام 1871. ثمّ محمد المختار أحمد أعراب الذي جاء إليها من جيجل، ثمّ الشيخ محمد سعيد آيت أحمد "قرية سيدي عمرو الحاج" وقد مكث فيها 14 سنة (1910 – 1924) وهو تاريخ وفاته ثمّ الشيخ أبي يعلى الزواوي. ثمّ الشيخ السعيد اليجري من (1948 – 1954). ومن نشاطه في الزاوية تحفيظ القرآن الكريم، وبعض مواد اللغة العربية. وفي عهد الحاج العربي الذي أصله من باليسترو، عرفت الزاوية تطورًا ملحوظًا، وللزاوية نظام وقوانين وأحباس كغيرها من زوايا المنطقة. انظر: ابن زكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 70.

أوّلاً – اختيارها للمشايخ الذين تعتقد فيهم الكفاءة العلمية والاستقامة في السلوك والأخلاق. وكانت تستقدمهم من نواحي الجزائر وأحياناً من تونس[1] الشقيقة.

ثانيًا – تنظيمها للبعثات العلمية داخل الوطن وخارجه. ويلاحظ أن عدد المشايخ في كل زاوية أمر يتوقف أساسًا على كثرة الطلبة أو قلتهم، وعلى وفرة الأرزاق الموقوفة على الزاوية أو ضعفها[2]. وتقوم هذه الزوايا على نظم وقوانين داخلية نبينها فيما يلي:

**قوانينها:**

تقوم الزاوية على نظام بسيط للغاية إذ هناك رئيس الزاوية وهو المؤسس أو من أبنائه وأحفاده أو بعض القائمين بأمره، وهو الموجه في الأمور المهمة، والمساعد في وقت الشدة، وكلمته هي العليا والأخيرة في تسيير وتجهيز الزاوية. ولهذا الرئيس مساعدون ممن يرى فيهم الكفاءة في مجال الرأي والعلم، ومن قدماء طلبة الزاوية. هذا بخصوص رئاسة الزاوية، أما فيما يتعلق بالطلبة فلهم قانون وضعي يسمى "سفارة" مكتوب في كراس عادي يوضع داخل خزانة الطلبة الموضوعة تحت حماية المقدم[3].

ويقرأ هذا القانون مرة على الطلبة للإعلام والتذكير، وللطلبة "مقدم" ينتخبونه وهو المسؤول على كل ما يجري داخل الزاوية. وله كلمة مسموعة سواء لدى الطلبة أو لدى رئيس الزاوية كما يتولى ضمان إعداد المواد الغذائية اللازمة كل أسبوع ويساعده في كل ذلك الوكيل، ومهمته السهر على نظافة الزاوية والمساجد أو حجرات الدراسة وغيرها.

---

1 – الأستاذ علي مقران: الزاوية السحنونية بالأربعاء نايت إيراثن، مجلة سيرتا (يصدرها معهد العلوم الاجتماعية بقسنطينة)، عدد 5، السنة 3، 1981، ص 60.

2 – أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 37.

3 – علي مقران، الزاوية السحنونية، مرجع سابق، ص 63. انظر أيضًا: ابن زكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 69، 70. ثمّ المشروع الذي أعده الأستاذ علي أمقران السحنوني بعنوان "غبار السنين".

وهناك منصب آخر مقر صاحبه "السقيف"[1] ويدعى صاحبه وكيل السقيف وهو الذي يتولى مراسم استقبال الضيوف وزوار الزاوية، وللزاوية أيضا شروط خاصة بالطلبة الذين يدخلون إليها لأول مرة.

**3 – شروط دخول الطلبة إلى الزاوية:**

لكي يلتحق الطالب بالزاوية لا بد من هذه الشروط:

1 – السيرة الحسنة، والرغبة القوية في التعليم.

2 – حفظ شيء من القرآن الكريم.

3 – أن يتصل برئيس الزاوية بنفسه أو مع وليه فقط.

4 – أن يخبر المقدم الذي يتولى – فيما بعد – تقديمه لزملائه الطلبة.

5 – أن يدفع ما عليه من حق الانضمام إلى طلبة الزاوية. ويسمى حق السكن – وهو يتراوح ما بين دينار وخمسة دنانير خلال الخمسينيات، وبعد ما يدفع الطالب الجديد ما عليه من حق يخبر المقدم الطلبة بعد النظر في أمره فيقول أمام الطلبة الحاضرين: «إنّ هذا الشخص الوارد القاصد للانتظام في سلك أهل هذه الزاوية قد وقع عليه الإجماع على قبوله وإلحاقه بزمرتكم فادعوا له بالخير والنجاح»[2].

يلجأ الطلبة بالدعاء إلى الله أن يفتح عليه. ثمّ على الطالب الجديد أن يقبّل رؤوس كل الطلبة الحاضرين عملا بالعرف. وما أن يبدأ بهذه العملية حتّى يتعالى دوي الطلبة بإعفائه "سماح – سماح" وبعد هذا يعد الطالب الوافد واحدا من طلبة الزاوية. وأخيرًا تأتي عملية التسجيل[3] ويكون بكتابة اسم الطالب منسوبًا إلى منطقة سكنه أو مكان ميلاده أو قبيلته أو قريته، ويسبق بكلمة "سي" التي تعني السيد مثل سي

---

1 – السقيف: مبنى قرب دار الشيخ للزاوية، فيه يحفظ الأثاث المستعمل في حركة العمل اليومي. ومنه تخرج جميع الأدوات، ويوزع الأكل بعد حمله من دار الشيخ (أكل الزوار) وغيرهم.

2 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 45.

3 – يلاحظ في كيفية هذا التسجيل ما اثر عن كيفية تسجيل جيش الأمير عبد القادر وقد ذكر هذا في كتاب وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، لقدور بن رويلة، تحقيق د. محمد بن عبد الكريم.

محمد الوغليسي، وسي عبد القادر الأمجادي نسبة إلى عرشه وقبيلته، وسي إبراهيم أمعاليو نسبة إلى القرية التي ينتمي إليها... هكذا، وإذا كان هناك اسمان متشابهان ينتميان إلى بلد واحد يفرق بينهما بلفظ الكبير والصغير، مثل سي محمد الرزقي الزنداوي الكبير، وسي محمد الرزقي الزنداوي الصغير[1].

ويشتد الإقبال على الزاوية في فصل الخريف والشتاء والربيع فيرتفع عدد الطلبة حتّى يصل أحيانًا إلى "500" طالب في بعض الزوايا. وكلهم يتمتعون بما يشبه النظام الداخلي. وفي الصيف لا يبقى في الزاوية إلا عدد قليل من الطلبة.

وللزاوية مجلس[2] تأديبي يتولى النظر في العقوبات الخفيفة والخطيرة التي يستحقها بعض الطلبة المنحرفين، ولا يسمح لأي كان بمغادرة الزاوية إلا بإذن من رئيسه وإلاّ تعرض للعقوبات الأدبية وهي أشد إيلامًا من المادية.

أما مدة التدريس في الزاوية فتتوقف على إرادة الطلبة، فهي بين المد والجزر، أي قد تطول أو تقصر، وذلك بحسب نظام الزاوية أولاً، وإرادة الطلبة ثانيًا. وفي فصل الخريف يتقاطر[3] الطلبة على الزاوية، وتبدأ الدراسة الجديدة، ويوضع برنامج وتوقيت وتنظيم الطلبة.

### 4 – مقررات الزاوية وطرق التدريس بها:

يقوم الشيخ بتدريس الطلبة، وفي حالة غيابه يتولى أحد الطلبة النجباء الأكثر علما وخلقًا التدريس بالزاوية نيابة عن الشيخ[4]. وهو شبيه بطريقة جامع الزيتونة[5] "سابقا بتونس" بحيث يتحلق الطلبة حول شيخهم الذي يلقي عليهم الدرس إلقاء وعلى

1 – علي أمقران، مجلة سيرتا، العدد 5، عدد سابق، ص 65، 66.

2 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 57.

3 – علي أمقران، مجلة سيرتا، عدد سابق، ص 68.

4 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 54، 55.

5 – مجلة سيرتا، مرجع سابق، ص 71.

الطريقة التقليدية، تكون مشفوعة بمجموعة من الأسئلة التي يطرحها الطلبة بعد انتهاء التدريس.

وينتظم الطلبة داخل الزاوية إلى مجموعتين وكل مجموعة تتكون من ثلاث فئات.

**المجموعة الأولى:** 1 – فئة المبتدئين. 2 – فئة المتوسطين. 3 – فئة المنتهين. والمبتدئ هو الذي لم يختم سورة البقرة. أما المتوسط فهو الذي يكون قد ختم سورة البقرة وشرع في الإعادة. والمنتهي يكون قد ختم القرآن كلّه ولم يبق له إلا الرواية والتجويد[1].

أما بالنسبة للطلبة الذين أنهوا المدة المقررة ولم يستوفوا أغراضهم فأمرهم في تمديد المدة موقوف على نظر المقدم. فله أن يزيد له ولكن بعد تلقي الموافقة من الشيخ الرئيس وبشهادة الطلبة عليه بأنه محمود السلوك شديد الرغبة في إتمام دراسته.

أما **المجموعة الثانية** – فتتكون أيضًا من ثلاث فئات:

1 – فئة الأجرومية وابن عاشر.

2 – فئة القطر والرسالة.

3 – فئة الألفية والرسالة ثمّ الشيخ الجليل[2].

ولهذه الزوايا مقررات عامة تقريبًا. تقوم الزاوية زيادة على القرآن الكريم بتدريس العلوم المختلفة "كالقراءات" وعلوم اللغة العربية "نحو، صرف، بلاغة، عروض" والمنطق والفقه المالكي. والفرائض والحساب والتاريخ الإسلامي وخاصة الجغرافيا والسيرة النبوية مع اشتراط حفظ القرآن الكريم في طلب العلم[3].

والمشايخ هم الذين يتولون النظر فيما ينبغي اقتناؤه من الكتب وتكليف الطلبة بمطالعة الكتب غير المتداولة ككتب التاريخ والجغرافية والمقامات وسير الملوك وما

---

1 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 37، 38.

2 – الأستاذ علي أمقران، مجلة سيرتا، مرجع سابق، ص 71، 72.

3 – العدد السابق، ص 59، 60.

شابه ذلك من الكتب القيمة النادرة التي بها تتفتح أبصارهم على المعارف الجديدة. يجد الطلبة رغبة تامة وقريحة قوية تدعوهم لقراءة هذه الكتب و البحث عنها من غير إلزام.

**5 – الموارد الاقتصادية للزاوية:**

تعتمد الزوايا من الناحية الاقتصادية على موارد أساسية يمكن تلخيصها في نقطتين هامتين هما:

1 – المساعدات التي يقدمها المحسنون من الأغنياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية "حبوب وزيتون، وحيوانات، وأدوات وألبسة ومفروشات وغيرها".

2 – الأوقاف الإسلامية التي يوقفها الناس عليها، وتتمثل في أراضي زراعية وحقول الأشجار المثمرة، والغلال كالزيتون والتين والخروب والحيوانات المحلوبة والمحلات التجارية والحمامات المعدنية في الأرياف[1]. تدر عليها الأموال اللازمة لاحتياجاتها المختلفة كالتغذية والإنارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة والإنفاق على الطلبة، وتغطية أجور المشايخ العاملين بها، ومعيشة الطلبة. وللزوايا مصدر اقتصادي آخر يتمثل في أموال الزيارات والوعادي "جمع وعدة" التي يقدمها إليها زوارها من الإخوان والأتباع والمريدين على شكل نقود وبضائع، ومواد غذائية متنوعة وألبسة.

وتختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب اختلاف أهمية الزائرين ومصادر أموالهم وثرواتهم، ومدى حبهم وتقديرهم للزاوية وللشيخ العامل بها. وهذه ظاهرة موجودة ومنتشرة في منطقة القبائل. ولعل السبب في ذلك يعود إلى سلطة المرابط القوية على العامة. وكثيرًا ما كانت تبعث هذه الزوايا "أو المعمرات" وفودًا من طلبتها وتلاميذها والمشرفين عليها إلى القرى المجاورة لها وأحيانًا من منطقة إلى منطقة أخرى بعيدة لجمع أموال الصدقات والزيارات والوعادي.

---

1 – د. يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين 19، 20، مجلة الثقافة، مصدر سابق، ص 463.

وفي مواسم معينة مثل موسم جني الزيتون في الشتاء وموسم جني الحبوب في الصيف، وموسم الزكاة في مناسبتي عاشوراء والمولد النبوي الشريف. ويــذكر ابــن الزكري أن لزاويتي الشيخ عبد الرحمن اليلولي والشيخ أحمد بــن إدريــس أرضــ[1] موقوفة، وأخوانًا ومريدين في ناحية سيدي عيش "القبائل الصــغرى" يوقفــون عليهــا نصيبًا من أرزاقهم لفائدة الزاوية.

فالزاوية بالنسبة لسكان الناحية لها أهمية كبيرة. ولعل هذا يعود بالدرجة الأولى إلى الدور الذي تضطلع به هذه الزوايا الثقافي والديني والسياسي. وبفضل هذه الأموال والهبات المتنوعة التي تجود بها أيدي المؤمنين الحسنين، تتولى هذه المؤسسات الدينية الإنفاق على طلبة العلم، والقائمين عليها من قداشــين[2] "جمــع قــداش" والمقــدمين والمؤذنين وأئمة المساجد، وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. كما تستعمل هــذه الأموال في تشييد الأضرحة مثل ضريح سيدي محمد بن عبد الرحمن "بوقبرين" فــي الجزائر، وضريح سيدي علي موسى بناحية معاتقة.

كما تشيد بها أيضا المساجد مثل مسجد جامع الصهاريج ومسجد تيقزيرت نايت أومالك[3] بالقبائل الكبرى. هذا بالنسبة للحالة العامة لهذه الزوايا أما الآن فســأتعرض لأهم الزوايا مبينًا دورها الديني والتعليمي والسياسي.

أهم الزوايا: من الزوايا الهامة في منطقة القبائل خلال فترة الدراسة وقبلها:

1 – زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي، ومؤسسها هو ســيدي عبــد الــرحمن اليلولي وكان مسقط رأسه بقرب عزازقة. اشتهر بالتقوى والعلم والعمل الصالح. وهو

---

1 – أوضح دلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مرجع سابق، ص 73. انظر أيضا: وثيقة خاصة بأحباس زوايتي سيدي عبد الرحمن وأحمد بن إدريس بدائرة أقبو، في ملاحق هذا البحث، الأصالة، العدد 65، 66، السنة 8، جانفي فيفري 1979، ص 85.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 260.

3 – محمد سي يوسف، مقاومة الاحتلال الفرنسي بمنطقة القبائل ثورة (بوبغلة 1850 – 1854)، رسالة تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات المعمقة قسم التاريخ، الجزائر 1981، ص 23.

دفين[1] زاويته بناحية عزازقة ولاية تيزي وزو، وكان متبحرًا في علوم القرآن. تعلم العلوم الإسلامية عن شيخه محمد السعدي دفين[2] زاويته بمدينة دلس[3].

وتوفي الشيخ اليلولي سنة 1105 هـ (1705م) وقد كان محل تقدير واحترام لدى جميع السكان. ومما يدل على ذلك أن كثيرا من الناس يخشون أداء اليمين على ضريحه. وكان يلقب عند سكان المنطقة "بأزقاغ أبوالن" أي أحمر العينين[4]. وتقع زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي في ناحية عزازقة وعلى إحدى قمم جبال "جرجرة" الشماء التي كانت خلال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر مأوى وملجأ للثوار والمجاهدين الذين رفضوا قبول السيطرة الفرنسية، وتزعموا المقاومة ضدها أمثال "الشريف بوبغلة" وغيره[5].

ولهذه الزاوية شهرة كبيرة منها تخرج العديد من الطلبة وعلماء هذه المنطقة[6] الذين درسوا بها وفي غيرها من الزوايا الأخرى يهدون الناس إلى الحق، ويعلمون اللغة العربية، وبعض العلوم الإسلامية للطلبة الوافدين إليها من غير الزواويين. وتهتم هذه الزاوية بالقرآن الكريم أكثر من غيرها. وفضلا عن الكتب العامة فهي تنفرد عن غيرها من الزوايا الأخرى بتدريسها لكتاب الله. ولعل هذا الاهتمام بالقرآن بدل الفقه يعود إلى أنه لا يوجد في غيرها من الزوايا الأخرى بالطريقة المطلوبة. ولذلك كان حرص الطلبة عليه شديدًا وقويا بخلاف الفقه لأنه يوجد في غيرها من الزوايا الأخرى وهي كثيرة.

---

1 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 43.

2 – أنها قديمة (ليس هناك تاريخ يحدد بدقة تاريخ تأسيس هذه الزوايا) وحسب المعلومات المتوافرة فمعظمها تأسس تقريبًا خلال القرن التاسع الهجري (15م)، أدت واجبها الديني إلى أن اندلعت الثورة المباركة وبعثت من جديد بعد الاستقلال على أيدي أبنائها وفيها نحو 48 طالبًا يدرسون القرآن وبعض العلوم الدينية. وكلهم يتمتعون بما يشبه النظام الداخلي في الوقت الحاضر.

3 – المرجع نفسه، ص 43.

4 – المرجع نفسه، ص 44.

5 – د. يحي بوعزيز، ثورة 1871 ودور عائلتي المقراني والحداد، الجزائر، ب.ت، ص 15.

6 – أبو يعلى الزواوي، ما هي الزوايا، جريدة السنة، عدد 13، السنة 1، 3 يوليو 1933، ص 7. انظر أيضًا: مجلة الشهاب، ج 1، مجلد 9، 1933، ص 15، 16.

كذا كان الطلبة يطلبون القرآن في الزاوية الأم[1] "اليلولي" أما الفقه فكانوا يدرسونه في الزوايا الأخرى كزاوية تيفريت نايت الحاج[2]. ومن هؤلاء المشايخ الشيخ الشريف الإفليسي[3] الذي قضى في هذه الزاوية 13 سنة[4] مدرسًا وواعظًا والشيخ السعيد الزلالي المعروف بتضلعه في الفقه، ثمّ الشيخ السعيد اليجري النحوي الذي لقبه الأستاذ عبد الحميد بن باديس بشباب الشيوخ. ثمّ الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ الشريف الجنادي الذي انتقل من هذه الزاوية سنة 1282هـ/1882م إلى تونس[5]، وهناك عينته بعض الشخصيات شيخًا ومربيًا لأولادهم، وقام به أحسن قيام إلى أن توفي هناك. ثمّ الشيخ أغطر الفقيه القرآني والخطاط البارع الذي نسخ[6] تسعًا وتسعين مصحفًا بخطه. وهو من أولاد علي أوحرزون بعرش أولاد بترونة من قبائل زواوة، ودفين الزاوية. والشيخ الأخداشي المتوفى في داره بقبيلة بني يليلتن ناحية عين الحمام، سنة (1263هـ)[7] 1863م. ثمّ الشيخ أبو القاسم البوجليلي الذي كان مدرسًا في زاوية الشيخ عبد الرحمن، وأحد مؤسسيها، والشيخ الحاج عمرو أو فضة أحد تلاميذ الشيخ عبد الرحمن. والشيخ علي أولخيار ثمّ الشيخ محمد الطيب الأقروبيسي وأخيرًا الشيخ أرزقي الشرفاوي الأزهري الذي انتصب للتدريس في هذه الزاوية خلال الثلاثينيات.

وفي عهد الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ الشريف الجنادي عرفت زاوية سيدي عبد الرحمن تطورًا ملحوظًا تمثل في تهذيب أساليب التدريس بها. فكانت بذلك قبلة

---

1 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 48.

2 – توجد في ناحية عزازقة بلدية عكورن، تأسست قديمًا وفيها الآن حوالي 38 طالبا، أدت واجبها الديني إلى أن جاءت ثورة التحرير، حيث توقفت بسبب الاستعمار الذي طوق المنطقة وفرض على المؤسسات المرابطية مراقبة شديدة.

3 – نسبة إلى قرية إفليسة الواقعة على شاطئ البحر ناحية تيقزيرت.

4 – محمد الصالح الصديق، حقائق عن زاوية عبد الرحمن اليلولي، جريدة العصر، مرجع سابق، ص 4.

5 – ابن الزكري، أوضح دلائل، مرجع سابق، ص 54، 55.

6 – ابن الزكري، المرجع السابق، ص 44.

7 – المرجع نفسه، ص 54.

للعلم والعلماء[1]. ولذلك فإنّ ما يقال عن التعليم الباديسي بالجامع الأخضر وسيدي قموش يقال أيضًا عن هذه الزاوية، بحيث كان التعليم فيها متطورًا ومنظمًا، ومسايرًا لنظام التعليم في العصر الحديث[2].

هكذا اشتدت رغبة الطلبة في الإقبال على دروسهم فارتفع عددهم فكانوا يصلون أحيانًا إلى 80 طالبًا. وهذا حسب فصول السنة، ففي فصل الخريف والشتاء والربيع كما هو معروف يرتفع عددهم حتّى يصل إلى 200 طالب[3].

## 2 – الزاوية السحنونية بالأربعاء بني راتن

يعود الأصل في ظهور الزاوية السحنونية التي سميت فيما بعد بالمعهد السحنوني إلى أن هذه الأراضي كانت من أملاك زاوية[4] سيدي عمرو الشريف الذي انتقل من زاوية اسحنون إلى مكانه الحالي قرب دلس. وذلك بعدما قام أهالي قرية "اعبوذن"[5] بقتل ولده[6].

---

1 – المرجع نفسه، ص 54، 55.

2 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية القومية، مرجع سابق، ص 246، 247.

3 – معلومات شفوية أدلى بها لي الشيخ شاب الله علي، خريج الزيتونة وواحد من المشايخ المقتدرين الذين خدموا اللغة العربية والثقافة الإسلامية في هذه المنطقة وفي أوقات حالكة جدا. وبعد الاستقلال تولى الإمامة بالجامع العتيق بتيزي وزو ثمّ التدريس بمدرسة ابتدائية وهو ما يزال فيها إلى اليوم.

4 – توجد قرب سيدي داود ناحية دلس، تأسست قديمًا على يد الشيخ عمرو الشريف الذي هاجر من منطقة اسحنون بالأربعاء بني راتن إلى مكانه الحالي. جددت على يد أبناء المنطقة المصلحين، أدت واجبها حتّى بداية الثورة التحريرية المباركة، حيث توقف نشاطها، وبعد الاستقلال بعثت من جديد وهي عامرة إلى الآن وفيها نحو 70 طالبًا يتمتعون بالنظام الداخلي. (معلومات أفادني بها الشيخ قدور عيسى إمام مسجد باب الوادي بالجزائر، ومفتش الشؤون الدينية على الناحية في الستينيات).

5 – أعبودن: عبارة عن ثلاث قرى تقع وسط القبيلة الشهيرة بالزعامة آيت إيراتن. وفي وسط هذه القرى الثلاث يقع معهد وزاوية سيدي عمرو الشريف.

6 – الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مرجع سابق، ص 56.

واستخلف مكانه في رئاسة الزاوية الشيخ علي بن محمد[1] السحنوني الذي قدم من جامع الصهاريج، وصديقه وزوج ابنته في أخريات حياته. ومنهما كانت هذه الأسرة السحنونية التي يشرف فرع منها على المعهد بالأربعاء بني راتن وغيره، ولا يزال الجامع الأصلي لسيدي عمرو الشريف قائمًا إلى الآن.

وقد اختلف الرواة في اصل بناء هذا الجامع، فمنهم من يرى أن الحكومة التركية هي التي بنته ومنهم من يرى أن السحنونيين هم الذين ساهموا في بنائه وتشييد صرحه. ومن السحنونيين الذين تولوا مشيخة الزاوية السحنونية بالأربعاء بني راتن بعد الشيخ محمد وعلي السحنوني[2]. الشيخ محمد السعيد بن أمقران تلميذ الشيخ محمد وعلي السحنوني وابن عمه[3].

ولهذه الزاوية أو بالأحرى الأسرة السحنونية شهرة كبيرة في ناحية الأربعاء بني راتن وخارجها. وذلك بفضل ما أخذ يقوم به فيها أستاذها الفاضل وصاحبها الشيخ الشريف أحد متخرجي الزيتونة[4]. وقد كان الشيخ محمد السعيد بن أمقران قبل ثورة 1871 قد قصد عرش بني وغليس بوادي بجاية "الصومام" وتولى المشيخة في زواياه

---

1 – محمد بن سحنون أول من نزل جامع الصهاريج على أميرها "أبو ختوش" المذكور في رحلة الورتلاني. والراجح أن أصله يرجع إلى سيدي سحنون الحاج الموجود في جبل من الجبال التي تحتلها قبيل بني وغزان بالونشريس المطل على منطقة الأصنام "وادي الشلف حاليًا".

2 – أحد قادة ثورة 1871م البارزين في وادي عمراوة، لا يقل أهمية من الناحية الروحية عن شيخ ابن الحداد، ولا عن آل المقراني رؤساء الثورة من حيث القيادة الفعلية في المعارك. ولما انتهت الثورة تشتت الأسرة السحنونية فألقي عليه القبض مع بومرزاق والمقراني ثمّ نفي إلى منطقة بجيانا الفرنسية بأمريكا اللاتينية. ولما أطلق سراحه أختار منطقة اليمن ومنها انتقل إلى المدينة توفي ودفن بالبقيع قرب الإمام مالك والإمام نافع المقرئ الشهير. له رسائل مخطوطة بعث بها من الحجاز إلى الجزائر (سيرتا، ص 57، 73).

3 – المرجع السابق، ص 57.

4 – الشيخ باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مرجع سابق، ص 16.

المعروفة إلى الآن مثل زاوية سيدي الحاج احساين[1]. بسمعون وزاوية سيدي أحمد زروق[2] مدة طويلة.

وبمساعدة سكان ناحية بني وغليس وخاصة سكان قرية "امعايون" أسس الشيخ محمد السعيد السحنوني زاوية سميت فيما بعد بزاوية الشيخ محمد السعيد أو زاوية اسحنونن أو زاوية أو سحنون "بتاغراست"، التابعة لأملاك قرى "امعايون" قرب "وادي الصومام" بين اغزار أمقران وتاغراست حاليًا، وفي مكان يقابل تمامًا زاوية الشيخ الحداد الثائر[3].

وفي بني وغليس أسس الشيخ محمد السعيد زاوية تاغراست الفرعية للزاوية الأصلية بالأربعاء بني راتن التي غطت على أخبارها حوادث ثورة 1871م التي شاركت

---

1 – من أحفاد الشيخ الطاهر الجزائري المشهور بالمشرق العربي وأبوه الشيخ الصالح هو فقيه مشهور في المشرق ولكنه غير معروف في الجزائر. وإبان هذا القرن بحثت عنه فرنسا بواسطة سلطاتها المحلية بسيدي عيش فوجدوا أنه من فرع "آيت الشيخ المنقرض". انظر: مجلة سيرتا، العدد 5، السنة 3، 1981، ص 73.

2 – كانت هذه الزاوية مقصدًا لطلبة العلم والأدب وحفظة القرآن الكريم، من مختلف جهات الوطن. وهي أولى زوايا المنطقة التي تأثرت بالحركة الإصلاحية، التي تأسست في المنطقة خلال العشرينيات ومن مظاهر تطور التعليم بها، تنظيم برامجها وطرق التدريس بها. ومما تتميز به النشاطات الثقافية التي كانت تقام بها سنويا وفي مناسبات دينية خاصة.

ومن المشايخ الوافدين إليها من طرف جمعية العلماء الشيخ أحمد الدراجي يحياوي المختص في علم الفرائض والشيخ فضلاء. وفي الفترة ما بين (1936 – 1938) تحولت الزاوية إلى مدرسة إصلاحية حرة لتعليم الأطفال اللغة العربية والدعوة إلى الإسلام كما جاء به القرآن[*]. ومن الزوايا الهامة أيضا زاوية بن علي الشريف قرب أقبو. وهي ذات شهرة عظيمة في منطقة القبائل. فكان يضرب بها المثل وبالمتخرجين منها في تحصل العلم، وسعة الاطلاع، وغزارة العلم، وإجادة الفهم والتأويل والاستنتاج.

* – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، مقابلة شخصية بتاريخ 1981/9/29.

** – سعد الدين بن أبي شنب: مجلة الآداب، الجزائر، العدد 1، السنة 1، 1966، ص 38.

3 – الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مجلة سيرتا، مرجع سابق، ص 57.

فيها الأسرة السحنونية بنصيب وافر. وقد كان تأسيسه لهذه الزاوية ببني وغليس في أواخر القرن التاسع عشر[1].

وبتأسيس الزاوية الفرعية بتاغراست "بني وغليس" تضاعف نشاط الشيخ محمد السعيد. ومما يدل على ذلك تنقلاته بين الزاويتين بحيث كان يزور الزاوية الأصلية بالأربعاء نايت إيراتن أسبوعيًا يختلي فيها ويتعبد وكان يصحبه مرارا بعض تلاميذه، وبمساعدة السكان وضع أساسًا أو برنامجًا لزاويته هذه ثمّ نصب فيها بعض الطلبة.

وبعدما أحس بوجوب الاستقرار في مكان واحد لتقدمه في السن تخلى عن المشيخة في تلك "الزوايا" وجعل كل جهوده في تدبير شؤون الزاويتين الأصلية بالأربعاء نايت آيراتن والفرعية بتاغراست في بني وغليس، كما أخذ يتردد بينهما بنظام وعند الضرورة فقط.

والملاحظ أنه بعد تأسيس زاوية[2] تاغراست بدأت القوافل من الطلبة تتوافد عليها من جميع نواحي الجزائر الشرقية والوسطى[3]. بل الغربية بدءًا من عنابة إلى وهران، ولا تزال بالمعهد قبور بعض من توافدوا عليها من ليبيا وتونس والمغرب الأقصى وهم قلة[4].

وبعد وفاة الشيخ المؤسس سنة 1914 ترك أولادًا صغارًا دون سن الرشد فتولى مشيخة الزاويتين أحد تلامذته الشيخ أبو القاسم[5] بن الحاج أحمد بن طعيوج

---

1 – المرجع نفسه، ص 58.

2 – الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مرجع سابق، ص 58.

3 – في عهد الشيخ بلغ المعهد والزاوية ببني وغليس حدًا كبيرًا من الازدهار، إذ قصدته الجموع المتعطشة إلى العلم والمعرفة فذاع صيته حتّى غطى على المعهد الأصلي بالأربعاء بني راتن.

4 – الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مرجع سابق، ص 58.

5 – هو أصلا من بني ورزدين بمنطقة بني مجالد قرب جيجل، ولاصطدامهم بآل ابن جبيلس في بداية الاحتلال الفرنسي، حيث أن آل بني جبيلس كانوا من المتعاونين مع الفرنسيين في حين أن بني ورزدين كانوا من المقاومين للفرنسيين اضطرت أسرتهم على الهجرة إلى السيلات قرب برج السياباط بوادي الزناتي، بولاية قالمة حاليًا ولا يزال أحفاده مقيمين هناك. والشيخ ابو القاسم درس على الشيخ محمد =

الورزديني. حتّى وافته المنية سنة 1932، بمقر عائلته بالسيلات حوز وادي الزنـــاتي. ثمّ نقل إلى تاغراست حيث دفن بالزاوية في صحن مسجدها القديم هناك. ويلاحظ فـــي هذه الفترة بداية انتفاضة الحركة الجزائرية مثل حركة الأمير خالد، وظهـــور الشـــيخ عبد الحميد بن باديس، واشتداد حركة الهجرة إلى الخارج.

وقد بلغت الزاوية قمة ازدهارها ما بين الحربين (1914 - 1939) حيث توافد عليها الطلبة بأعداد كبيرة تتراوح من 100، 350 طالبًا، وأحيانًا كانوا يصـــلون إلـــى 500 طالب[1] من مختلف الأعمار والمناطق لحفظ القرآن أو لدراسة الفقـــه والعلـــوم العربية وغيرها. وتبدأ الدراسة فيها في بداية فصل الخريف حتّى نهاية فصل الصيف.

ولكن نشاط الزاوية أخذ في التلاشي مع بدايـــة 1958 عنـــدما ألقـــى الجـــيش الفرنسي القبض على الشيخ محمد الشريف وابن أخيه محمد وعلي، وشرّد الباقي مـــن الطلبة. فمنهم من استشهد ومنهم من لا يزال حيًا يعاني من آثار السجن إلى الآن.

ومن المشايخ[2] المستقدمين إلى الزاوية من تونس الشيخ الحبيب مـــن ســـليانة، وعمرو الماجري والكامل القرشيشي، وإبراهيم صمادح والد الشاعر التونسي المعاصر منصور صمادح.

ومن الجزائر الزايدي بن الشيخ تواتي وهو من سكرين بعين ولمـــان وعمـــرو الخلفاوي والحسن بن قارة الزنداوي، وموسى بن سكيرة الزنداوي، وأحمد المرواثـــي

---

=السعيد مؤسس المعهد السحنوني يوم كان شيخًا في معاهد بني وغليس. وكان يتبعه أبن ذهب. ولما اكتملت معرفته اتجه نحو الشرق فتولى مشيخة معهد سيدي معطي الحركاتي بعين البيضاء وهناك اتصل بالشيخ الشهير محمد المكي بن الشيخ مصطفى بن عزوز فأجازه كما أجازه الشيخ محمد حمدان الونيسي الشهير بقسنطينة ولا تزال هاتان الإجازتان ضمن أوراق المعهد السحنوني. فكانت له صداقة بالشيخ عبد الحميد بن باديس. وقد ترك كتابًا في التصوف والطريقة الرحمانية، مشهور ومتداول بين أيدي تلاميذه. وتوجد منه عدة نسخ الآن. علي امقران، المعهد السحنوني، عدد سابق، ص 74.

1 - العدد نفسه، ص 59.

2 - الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مجلة سيرتا، مرجع سابق، ص 60.

السطيفي، ويوسف الورتلاني والشريف أبو دريوة "بودريقة"، وعبد المجيد بن الحبيب لغبولي "يخلف" ومحمد النوري من برج الغدير.

وفي هذه الزاوية مجالس علمية تعقد بين أساتذة الزاوية، أو بينهم وبين من يقصد الزاوية من المشايخ أمثال الشيخ الطيب شنتير والشيخ أرزقي أبي يعلى والشيخ السعيد اليجري، وحسن آمنة الترليوي الجزائري أصلا البنزرتي التونسي نشأة... فيديرون الكلام حول المسائل العلمية المختلفة التي تعرض عليهم. وكثيرا ما يحتدم النقاش بينهم فيضطرون إلى استشارة الكتب المختلفة أو مكاتبة من كانوا يعتقدون فيه الكفاءة العلمية يرتضونه حكما بينهم من علماء الجزائر وتونس خاصة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

ومما يدل على ذلك وجود بعض الأوراق بالزاوية تحمل نقوشا متعددة من مختلف المصادر والمراجع في تلك المسائل التي تناول فيها القول، ويذكر الأستاذ علي أمقران أن بعض هذه الأوراق لا يزال ضمن ما بقي من مكتبة الزاوية[1].

ومن نشاط الزاوية تنظيم البعثات إلى خارج الوطن، باختيار أنجب التلاميذ، وإعانتهم على التوجه نحو تونس، والانضمام إلى طلبة الجامع الأعظم "جامع الزيتونة" ولعل هذه الخطوة تعد ثاني محاولة تقوم في الجزائر بعد محاولة جماعة الجنوب الجزائري. "منطقة بني ميزاب" بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة[2]. ثمّ تلتها بعثات جمعية العلماء في بداية النصف الثاني من القرن العشرين إلى المشرق العربي.

وتعد هذه الخطوة بحق من مآثر الزاوية المحدودة الإمكانيات، وقد تمت في منتصف الثلاثينيات وبسعي من أهالي الزاوية. وتظهر هذه الإعانة خاصة في إيجاد

---

1 – علي أمقران، المرجع السابق، ص 60.

2 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

محل سكن تلك البعثة بمدينة تونس[1]. والذي بقي بيد الزاوية حتّى أواخر عام 1955م[2]. وكادت هذه العملية أن تتواصل لولا ظروف الحرب العالمية الثانية.

ثمّ ظهور مشاكل أخرى غير الحرب منها: أن هذه المشاريع لا يمكن أن يقوم بها الأفراد أو الجماعات الصغيرة وخاصة في بلد يعاني من وطأة الاستعمار كالجزائر مثلاً.

ولهذه الزاوية مكتبة مزدوجة بمختلف المراجع والمصادر لمن شاء من مشايخ الزاوية الطموحين للعودة إليها لتوسيع مداركهم وتنمية ثقافتهم العامة.ولهذا تكونت لهذه الزاوية مكتبة عامرة من فروع المعرفة وحتّى العلوم الحديثة تتجاوز في مجموعها عشرة آلاف كتاب ما بين مطبوع ومخطوط. غير أن نصف ما تزخر به هذه المكتبة قد ضاع أثناء الثورة التحريرية الجزائرية.

وللزاوية شبه اشتراك مع بعض المكتبات خارج الوطن كالثميني، العيسلي والأمين بتونس كما كانت لها اتصالات وثيقة وواسعة بالمطبعة الثعالبية ومكتبتها بالجزائر، بل وحتّى ببعض المكتبات بمصر[3].

كما كانت لها اشتراكات مع أغلب صحف الجزائر وبعض الصحف من تونس ومصر. ومن هذه الأخيرة نجد "الفتح" لمحب الدين الخطيب، و"الرابطة العربية" لأمين سعيد، و"الهداية الإسلامية" لمحمد لخضر حسن، و"الأزهر"، "نور الإسلام" و"بريد الأزهر" من صحف جامع الأزهر، و"مكارم الأخلاق"، ثمّ "الهداية الإسلامية"العراقية، و"التمدن الإسلامي" و"الرسالة" للزيات، و"الثقافة" لأحمد أمين.

---

1 – ومن بين أعضاء تلك البعثة السادة المشايخ: موسى بن كسيرة، الحسين بن قارة، أحمد بوجملين، عمر صباح ويوسف ججيق، وغيرهم، كما سكن تلك الدار وقتًا من الزمن فيما بعد السادة الأساتذة: عبد الرحمن سيبان، أحمد حسين، محمد الصغير، الأخضر الناصري بولخلايس، الطيب بن لحسن، محمد العربي مخيلف، محمد الشريف حسينو عبد المجيد بن الحبيب يخلف.

2 – الأستاذ علي أمقران، المعهد السحنوني، مرجع سابق، ص 61.

3 – الأستاذ علي أمقران، المرجع السابق، ص 61.

أما من تونس "المجلة التونسية"، "الزهـرة"، "النهضـة" والإرادة وغيرهـا. ومـن الجزائر "الشهاب"، "الصراط"، "السنة"، "الشريعة"، "البصائر"، "النجاح"، "الأخلاق"، "البلاغ الجزائري" و"الإصلاح"[1].

وفضلاً عن الكتب العامة المعتمدة في هذه الزوايا فإنّ الزاوية السحنونية تنفـرد عن غيرها من زوايا المنطقة بتدريس مختلف العلوم منهـا "مبـادئ العلـوم وتـدبير الصحة، كتاب النبات" ومبادئ الهندسة وأصول الجبر.

### 3 – زاوية سيدي علي بن يحي بذراع الميزان

الشيخ علي بن يحي واحد من المرابطين المجاهدين الذين رابطوا في العديد مـن الأماكن جهادًا في سبيل الله، وقد حل الشيخ بمنطقة ذراع الميزان فـي القـرن التاسـع الهجري (15م) وهو تاريخ يوافق نزوح المسلمين من بلاد الأندلس، قادمـا مـن جهـة المغرب العربي أو من الساقية الحمراء، كانت رغبة هذا المتصوف الفاضل ليلتحق بهذه الجبال التي أختارها مقرًا لنشر الدعوة الإسلامية وتبليغ الرسالة المحمدية إلى الناس.

تقع هذه الزاوية في قرية بني كوفي، في مكان يشرف على المنطقة كلّها. تبعـد عن مقر بلدية بوغني بحوالي 8 كلم. ومن خلال هذا الموقع المختار يتبين لنـا هـدف صاحب الزاوية في الرباط في سبيل الله. ليس هناك تاريخ دقيق يحدد تاريخ إنشاء هذه الزاوية ومجيء الشيخ إليها. غير أن سيدي علي بن يحي كان يقوم بالتـدريس عنـد مجيئه مباشرة، إذ يقال لعائلة في القرية اليوم "آيت طالب علي". وهذا يدل على أن هذه العائلة كانت من سلالة طالب عند الشيخ علي بن يحي.

لم يكن في ناحية ذراع الميزان إلا هذه الزاوية لتلقي العلوم الدينية ومحو الأميـة بين الناس. في وقت ليس للناس من بصيص نور العلم إلاّ هذه المعاقل، وقد كانت زاوية الشيخ ابن عبد الرحمن الأزهري بجانبها في قرية آيت إسماعيل، ابتداء من القرن الثاني عشر الهجري (18م). ولكن لم يكن لها حظ الاستمرارية فـي مواصـلة التـدريس، إذ

---

1 – المرجع نفسه، ص 61، 62.

أوصدت أبوابها لفترات طويلة وخاصة بعد ظهور مدرسة التبشير المسيحي في بونوح، كمنافسة للمدرسة القرآنية، وهذه ظاهرة معروفة عند الآباء البيض.

هكذا بقيت زاوية الشيخ علي بن يحي وحيدة بمنطقة ذراع الميزان، تستقبل الطلبة من مختلف النواحي من ناحية قسنطينة وسطيف وباتنة ومن البويرة، وسيدي عيش والأخضرية. ويصل عددهم أحيانا إلى 100 طالب يتمتعون بالنظام الداخلي[1].

وكان سكان قرية بني كوفي يتابعون دراستهم بهذه الزاوية بانتظام وفيها تخرج الكثير من حفظة القرآن الكريم من شباب هذه القرية وغيرهم ممن نزحوا إليها من النواحي الأخرى، وهم موزعون على القرى المجاورة ليقوموا بالإمامة والتدريس في مساجدها. بهذا الجو القرآني كانت قرية بني كوفي مقصد طلاب الأئمة لسكان القرى المجاورة الراغبين في الأئمة وخاصة من "بني بوادو" وبني وسيف وناحية ذراع الميزان... وفي قرية بني كوفي ثلاث مساجد تقام فيها صلاة الجمعة والعيدين. وكل الشعائر الدينية المعروفة عند المسلمين.

وقد حاول المبشرون أن يؤسسوا مدرسة في القرية كعادتهم لضرب المدرسة القرآنية فعادوا من بني كوفي مدحورين بالرغم من المماطلة وجس النبض الذين عرفوا بهما، ذلك أن صخرة القرآن كانت عنيدة، فلم يجدوا غير النفور من التبشير ومدارسه.

هكذا كان التعليم الوحيد بهذه القرية "بني كوفي" عربيًا إسلاميًا. وللزاوية كغيرها دور اجتماعي إذ كانت مقرًا لحل النزاعات والفصل بين السكان للإصلاح بينهم، حسب الشريعة الإسلامية، وخاصة ما يتعلق بالمشاكل العائلية "كالزواج والطلاق"، وتوزيع التركات أو الاختلافات الأخرى، لأن السكان لا يتقدمون إلى المحاكم الاستعمارية خوفًا من غراماتها الباهظة، وتكاليفها المعقدة بالإضافة إلى المماطلة وكثرة الرشاوي. كل ذلك

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي السادة الآتية أسماؤهم: "الشيخ شباب الله علي" شيخ الزاوية قديمًا. "الأستاذ عبد الرحمن مصطفاي ابن الزاوية"، "الشيخ قدور عيسى مفتش الشؤون الدينية على الناحية"، في الستينات بتاريخ 1983/4/25.

غيب العدل في هذه المحاكم. ولم يبق أمام الناس إلا هذه الجمعيات القرآنية لحل مشاكلهم اليومية مستعينين بالإمام أو أحد حفظة القرآن الكريم.

هكذا أعطى السكان ثقتهم الكاملة لطلاب القرآن، فاستفادوا من إرشاداتهم وإصلاحاتهم في وقت كان الحرمان أهم عامل في خلق المشاكل الحادة بين السكان، بالإضافة إلى تذكية هذه المشاكل من طرف الاستعمار بإثارة روح الكراهية بين الناس.

ولهذه الزاوية علاقة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومما يدل على ذلك زيارة الشيخ السعيد صالحي لقرية "بني كوفي" مقر الزاوية سنة 1953 رغم معارضة القائد[1] الذي كان خانقًا من هذا التصرف وهدد شيوخ الزاوية بالحبس والتغريم وهي ظاهرة معروفة في سجل الاستعمار. ومن المشايخ الذين تعرضوا لهذه التهديدات الشيخ شاب الله علي شيخ هذه الزاوية. وهو الذي بعث في هذه الزاوية نفسًا جديدًا بما أدخله إليها من أساليب حديثة في التدريس. واستفاد منه الطلاب فوائد جديدة. وقد توافد على الزاوية في الفترة ما بين 1914 – 1945 عدد كبير من المشايخ الإجلاء نذكر منهم، الشيخ محمد تواتي من سيدي موسى. وقد نزل بها عام 1914. والشيخ محمد وعلي والحاج عمر أوفضة "من أفريقات" الذي مكث بها سبع سنوات (1916 – 1923). وقد قام هذا الأخير بشراء أرض للزاوية، وله إلمام بعلم الفلك. ثمّ الشيخ أبو يعلى الزواوي من (1924 – 1927) والشيخ على أو الخيار عمدة جمعية العلماء في المنطقة من (1928 – 1930) وأحمد بن الربيع من الأخضرية من (1927 – 1928) والشيخ محمد السعيد من سيدي علي موسى من (1930 – 1935) والشيخ الطيب أقريبيسي من برج أم نائل والشيخ محمد تباني من "آيت عبد المؤمن" في الفترة ما بين (1947 – 1949) وهو خريج جامع القرويين، وأخيرًا الشيخ شاب الله علي من آيت يوسف من (1949 – 1953) وهو أيضًا خريج الزيتونة، إلى غير ذلك من المشايخ والعلماء

1 – القاضي عبد النور.

المعروفين بالورع والتقوى، وخدمة الإسلام واللغة العربية في هذه المنطقة وفي أوقات صعبة جدًا[1].

وتهتم الزاوية بالقرآن الكريم حفظًا وتجويدًا إلى جانب المواد المساعدة لفهم الدين ككتاب لابن زيد القيرواني في الفقه. وابن عاشر في الفقه والتوحيد. وابن مالك في الألفية، والسنوسي في علم الفلك والسيرة النبوية، وقد لعبت الزاوية في المنطقة أدوارا هامة في مختلف الميادين الاجتماعية والتعليمية والسياسية.

**4 – زواية آيت بو يحي بالأربعاء بني دوالة**

تأسست هذه الزاوية عام 1936 على أيدي أبنائها وبأموالهم وأنفسهم خدمة للدين الإسلامي واللغة العربية في هذه الناحية وهي بمثابة رد فعل عنيف للمدرسة الفرنسية التي أسسها المبشرون في تاقمونت أوعزوز لهدف منافسة المدرسة القرآنية.

ولهذه الزاوية شهرة عظيمة في المنطقة، أدت واجبها الديني والتعليمي على أحسن وجه، يؤمها الطلبة من جميع النواحي وحتّى من سطيف طلبًا للعلم، وبدون مقابل إلا بعض النقود التي كانت تدفع للزاوية رمزًا وتبركًا. وكان عدد الطلبة بها يصل أحيانًا إلى 150 طالبًا. وهم يتمتعون بالنظام الداخلي.

يتلقى الطلبة من مشايخهم الكرام القرآن الكريم على الطريقة التقليدية القديمة "إملاء على اللوح"، وبعض العلوم الأخرى كالفقه الإسلامي والحديث النبوي، والنحو الواضح والصرف – وهي مراجع عامة كما لاحظنا – ومن جملة المشايخ الذين ساهموا في هذه الحركة القرآنية الشيخ محمد أمزيان والشيخ أحمد عمرو والشيخ سليمان وكلهم من القرية. والشيخ علي اليجري من عزازقة، والشيخ موسى السطيفي،

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي السادة:

– شاب الله علي "شيخ الزاوية قديمًا".

– الأستاذ عبد الرحمن مصطفاي "ابن الزاوية".

– الشيخ قدور عيسى إمام مسجد باب الوادي، ومفتش الشؤون الدينية في المنطقة خلال الستينيات، بتاريخ 1983/4/25.

والشيخ الصادق الينوي "من بني يني" ثمّ الشيخ الشريف بن العطار من دلس. وقد تخرج في هذه الزاوية في الفترة ما بين (1936 – 1960) عدد كبير من حفظة القرآن الكريم وتوزعوا على الولاية كأئمة ومقيمين ومؤذنين ومعلمين للقرآن الكريم.

وفي سنة 1960 أغلقت الزاوية من طرف الاستعمار. وبعد الاستقلال أحييت الزاوية على أيدي أبنائها. وفي عام 1963 تحولت إلى معهد إسلامي[1]. هكذا كانت الزوايا وما تزال تؤدي دورها في جميع المجالات وعن أهميتها يحدثنا أحد الكتاب الفرنسيين الذي شبه هذه الزوايا بجامعات أوروبا في العصر الوسيط كما تحدث الجغرافي والرحالة الإنجليزي "شو" عن بعض الزوايا فخص بالذكر زاوية "جامع الصهاريج" ناحية أزفون فقال: « إنّ زاوية جامع الصهاريج يدرس بها نحو 500 طالب وتتولى الإنفاق عليهم بنفسها »[2].

## مكانة الزاوية في منطقة القبائل

لعبت هذه المؤسسات الدينية بمختلف أنواعها دورًا بارزًا في جميع المجالات الدينية منها والثقافية، والاجتماعية والسياسية. وقبل أن أتعرض لهذه الأدوار أرى من الواجب أن ألقي بعض الضوء على الطرق الصوفية في الجزائر باعتبارها مصدرًا أساسيًا للزوايا في الجزائر. ومن ضمن هذه الطرق:

1 – الطريقة الشاذلية (650هـ/1258م).
2 – الطريقة القادرية (1125هـ/1713م).
3 – الطريقة التيجانية (1196هـ/1783م).
4 – الطريقة الرحمانية (1208هـ/1793م).

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي السادة: الشيخ المولود أيمون إمام قرية بني بو يحي الشيخ قدور عيسى إمام مسجد باب الوادي ومفتش الشؤون الدينية، والشيخ علي اكعبيشان أحد مشايخ القرآن الكريم في قرية بني بو يحي.

2 – مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية بقسنطينة، مرجع سابق، ص 63، 64.

ولكل طريقة من هذه الطرق فروع كثيرة تحمل أسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ والمقدمين.

وقد أورد الضابط "لويس رين" في كتابه القيم "المرابطون والإخوان"[1] للشاذلية وحدها واحدًا وعشرين طريقة وزاوية فرعية لكل منها اسم خاص. وسأقتصر في الحديث عن الطريقة الرحمانية باعتبارها الزاوية الأم لزوايا منطقة جرجرة. ولأهميتها أرى من الواجب أن أتوقف عندها فأعطي لمحة عن مؤسسها وهو الشيخ عبد الرحمن الأزهري وعن نشاطها الديني والتعليمي والسياسي.

**الزاوية الرحمانية**

يعود اصل هذه الزاوية إلى الخلواتية[2]. وتتمثل الخلواتية في تلقين الذكر للمريدين بعد أخذ العهد عن الشيخ بالتزامه له مدة عمره، والذكر هذا يستعمل فرديًا بأن يبدأ المريد بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والاستغفار، والتشهد، وقراءة الفاتحة، وبعض الأدعية. وعدد الاستغفار والتشهد كلاهما مائة مرة (100) وأن يكرر المريد الشهادة – لا إله إلا الله من عصر الخميس إلى عصر الجمعة. وكل من يعطي له الذكر يزوده شيخ الطريقة بنصائح دينية تتمثل في الحث على طاعة الله، واتباع سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأن يكون متخلقًا بالأخلاق الإسلامية العالية، وأن يكون ذا رحمة وإحسان، وعطف على الفقراء.

وقد كان الشيخ ابن عبد الرحمن بمثابة المتمم للطريقة الخلواتية في الجزائر، وإليه تنتسب الطريقة الرحمانية، بل هو المؤسس الحقيقي لها في الجزائر في القرن الثاني عشر[3] (18م). وقد أخذ هذه الطريقة عن مشايخه في المشرق العربي غير أنه

---

1 – COPPOLANI Depont, COPPLANI Xavier, Les confréries religleuses musulmanes, Jordan, Alger, 1897, résumé par J. M. à Bounouhen, 1937, p. 31 - 32.

2 – Idem, p. 19.

3 – د. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20م)، ج 2، الجزائر، 1981، ص 156.

أدخل عليها بعض الطقوس الجديدة تميزها عن الخلواتية. من ذلك مثلا أن الرحمانيين لا يكتفون بالزهد، إذ كانوا يطلبون من مقدميهم أن يقدموا على توعية النـاس توعيـة دينية، وتزويدهم بتعاليم الإسلام الصحيح.

ولقد تضمنت الرحمانية قواعدها في كتاب مشهور لسي "مصـطفى بـن بـاش تارزي" الذي كان خليفة لمؤسس الرحمانية. ولهذه القواعد مختصر في كتاب "الوصية" الذي كان يستخرج منه المقدمون مادة تدريس[1]. ويعتبر الشيخ ابـن عبـد الـرحمن المؤسس الحقيقي لها في الجزائر.

## الشيخ ابن عبد الرحمن الجرجري الأزهري

ولد الشيخ ابن عبد الرحمن الجرجري القشطولي الأزهري الزواوي فيما بـين (1715 – 1725م) [2] من عائلة شريفة أصيلة بقرية آيت إسماعيل في "فروحة" علـى بعد 15 كلم من شرق مدينة ذراع الميزان وجبال "جرجـرة" القبائـل الكبـرى. زاول دراسته الابتدائية على يد الشيخ ابن أعراب في قرية الأربعاء نآيث إيراثن مع الشـيخ امحمد بن بلقاسم التاجديوي. وكان الشيخ أعراب قد زار مصر وتعلم هنـاك. وعـاد بثقافة واسعة تصدى للتدريس في موطنه، وأخذ طلاب العلم يفدون ويتقاطرون من كل حدب وصوب على الشيخ وعلى دروسه النافعة علمًا وأخلاقًا.

ومن هؤلاء المشايخ المعروفين بورعهم وتقواهم، الأسـتاذ محمـد بـن عبـد الرحمن[3] الجرجري الأزهري الذي ينتسب إلى قبيلة قشطولة. وبعد دراسـة مبـادئ اللغة والدين في بلاده "جرجرة" عقد رحلة، وهو في عنفوان شبابه إلى المشرق العربي

---

1 – COPPOLANI Depont, COPPLANI Xavier, op.cit., p. 108.

2 – د. يحي بوعزيز، ثورة المقراني 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد)، مرجع سابق، ص 72.
انظر أيضًا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 514.

3 – انظر مجلة صوت المسجد، مجلة شهرية دينية علمية أدبية اجتماعية تاريخية أخلاقية. أسسها الشيخ محمد العاصمي في الثلاثينيات بعد انفصاله عن صفوف جمعية العلماء التي تأسست سنة 1931، ص 5، 6.

انظر أيضًا: د. يحي بوعزيز، ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد)، مرجع سابق، ص 67.

طلبًا للعلم والمعرفة، فانتهى به المطاف إلى القاهرة حيث انخرط في سلك طلبة الأزهر الشريف. فدرس فيه العلوم العربية والدينية الإسلامية دراسة موفقة استغرقت معظم شبابه.

ومن أشهر أساتذته الشيخ محمد بن سالم الحفناوي شيخ الطريقة الدينية الحفناوية. وسالم النفراوي وعم الطحلاوي وحسن الجداوي والعمروسي. وخلال هذه الفترة أظهر الشيخ ابن عبد الرحمن نبوغه وتفوقه في العلوم الإسلامية بالأخص. بما شهد له علماء مصر الأعلام يومئذ. وقد كان بذلك محل التقدير والاحترام في سائر الأوساط العلمية. وبسبب نبوغه وحيويته أرسله شيخه الحفناوي مبعوثًا عنه كداعية ديني إلى بلاد الهند والسودان. وهناك نشط في نشر طريقة شيخه، وتعاليمها مدة ثمّ عاد إلى مصر وتزوج في القاهرة بامرأة حبشية مسلمة[1].

وفي سنة 1815م[2] عاد إلى الجزائر، ممتلئًا علمًا وثقافة واستقر بعض الوقت في بجاية، عاصمة العلم والثقافة في عصرها كواعظ ومرشد. في مسجد سيدي محمد أمقران لنشر العلم وتربية الخلق بعد أن أذن له شيخه الحفناوي وأسس لذلك زاوية في قرية بآيت إسماعيل.

ويذكر أحد أئمة[3] بجاية بأن الفضل في ظهور الحركة الإصلاحية في بجاية وضواحيها يعود إلى تعاليم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري.

صاحب الطريقة الرحمانية. ومن ذلك الحين نشأت في المنطقة حركة قرآنية قادها جمهرة من المشايخ، منهم الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي شيخ زاوية بو جليل، وأحد أتباع الطريقة الرحمانية وناشرها في قرية بوجليل. وكان للشيخ ابن عبد

---

1 – أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، مطبعة فونتانة الشرقية، 1910، ص 450، 451.

2 – اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ عودة الشيخ من الشرق فمنهم من قال بتاريخ 1770، أو 1815م.

3 – معلومات أدلى بها لي الشيخ عبد المجيد يخلف مدير الشؤون الدينية في بجاية بتاريخ 1981/12/31.

الرحمن أثناء إقامته بالمشرق تلاميذ يتراسلون معه ويعلمهم مبادئ الطريقة الرحمانية، ومنهم الذين منحهم الإجازة أثناء عودته إلى الجزائر أمثال الشيخ بلقاسم محمد بن المعاتقي نسبة لقرية معاتقة وهي قرية واقعة في ولاية تيزي وزو، الذي عينه في رتبة "مقدم" الطريقة، والشيخ العابد بن الأعلى الشرشالي والسيخ أحمد التجاني صاحب الطريقة التجانية[1].

واعتنى الشيخ محمد بن عبد الرحمن ببث روح الفضيلة، وأساليب الورع والتقوى، وبذر بذور الأخوة بين سائر السكان الذين هم في تعطش تام إلى هذا النوع من المشايخ. وقد تخرج على يده طائفة مختارة من التلاميذ كانت النواة الأولى في تلقين مبادئ التعاليم الدينية في النفوس. ومن هؤلاء التلاميذ نجد عبد الرحمن باش تارزي في قسنطينة، وابن عزوز في برج طولقة.

ويلاحظ أن مشايخ الزاوية الرحمانية كانوا كلهم من العلماء الإجلاء[2]. وقد دعا الشيخ ابن عبد الرحمن للإصلاح واعتنى في دعوته إليه بناحيتين[3]:

1 – ناحية نشر العلم والدين.

2 – ناحية بث الأخلاق الفاضلة، وتربية النفوس الكريمة التي بها كمال النفس.

يقول الشاعر العربي في معنى تربية النفوس:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها     فأنت بالنفس لا بالجسد إنسانا

يصف الشيخ الوازع الأخلاقي الروحي الذي بضعفه ضعف الجانب الأخلاقي والاجتماعي. ولذلك فالأمة "الجزائر" هي في أشد الحاجة إلى تطهير البواطن بإزالة الشك من القلوب، وإحلال العقيدة الصحيحة فيها محله، وتنوير الأذهان بمبادئ العلوم الدينية والدنيوية. الشيء الذي جعل الشيخ يصرف جل جهوده إلى هذه الناحية باعتبارها الشرط الأساسي في بناء المجتمع السليم. ومن كلام الشيخ ابن عبد الرحمن

---

1 – معلومات شفوية، محمد الشريف أحمد، إمام الجامع الكبير في العاصمة، 1981/9/29.

2 – مجلة سيرتا، دار النشر، معهد العلوم الاجتماعية بقسنطينة، العدد 3، ص 63.

3 – مجلة صوت المسجد، مرجع سابق، ص 5 – 7.

التي تضمنتها وصيته المشهورة قوله: «إنّ عهد الله وميثاقه أن تتقي الله في سائر أحوالك وتخلص في جميع أعمالك وعليك باتباع الكتاب والسنة فإنّهما الطريق الموصل إلى الله تعالى وأعمل متجردًا عن ضغوط نفسك في الدنيا والآخرة... وعليك بالإحسان إلى الخلق بتوقير الكبير، والرحمة على الصغير، وعليك بكف لسانك بما لا يعنيك وإياك والمخادعة، وحب الشهرة وعليك بالتزام الأدب مع كل مخلوق»[1].

هذه الصفات السامية المدعمة بالعلم والمؤسسة عليه هي سر توفيق العاملين، وهي الدعائم الأساسية التي يرتكز عليها سلوك أمثال الشيخ ابن عبد الرحمن الأزهري. وهي ما جعلته حيا خالدًا في قلوب الناس، وهي المعيار الذي يوزن به سلوك من يدعي الإصلاح والدعوة إليه. هكذا انتشرت تعاليم الشيخ داخل الجزائر وخارجها.

**انتشارها:** انتشرت تعاليم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري في الجزائر العاصمة، وخصوصًا في شرقها ووسطها. وفي تونس وفي السودان[2]، حين وجهه شيخه محمد سالم الحفناوي بعد إكمال معلوماته لنشر العلم، وتنظيم دروس الوعظ والإرشاد، وتلقين التربية والذكر للمريدين. وقد لبث بنفسه في السودان مدة سبع سنوات معلمًا وملقنًا لتعاليم الدين الإسلامي. وللزاوية الرحمانية كغيرها كالسنوسية والقادرية فروع في معظم بلدان القارة الإفريقية وفي مصر والحجاز وبعض البلدان الأوروبية[3].

والشيء الذي تجدر الإشارة إليه هو أن معظم شيوخ هذه الزاوية أو الطريقة – وعددهم ليس بقليل – لم تكن لهم ثقافة واسعة وإنّما كان لهم نفوذ كبير، على اتباعهم ومريديهم بما يفرضونه عليهم من أذكار وأوراد وتسابيح وتقاليد، وهذا يعود إلى حسن سلوكهم وأعمالهم الصالحة. واستفادوا من المثقفين الذين كانوا ينظمون إلى صفوفهم ومن هؤلاء الشيخ الحداد مقدم الطريقة الرحمانية بناحية صدوق "القبائل الصغرى". في

---

1 – صوت المسجد، مرجع سابق، ص 5، 7.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 514.

3 – د. يحي بو عزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 17.

النصف الثاني من القرن الماضي، والشيخ أحمد بن عليوة مؤسس الطريقة العلوية بمستغانم في النصف الأول من القرن الحالي.

وللزاوية الرحمانية صلة وثيقة بعدة مناطق وزوايا أخرى في الجزائر. وقد كانت منطقة الأوراس والسفوح الجنوبية الغربية منها على الخصوص مراكز هامة لعدد لا بأس به من الطوائف الدينية ولعل أبرزها زاوية طولقة وأولاد جلال وزاوية الهامل قرب بوسعادة، والتيجانية في تيماسين وقمار، والقادرية[1]. ونذكر أن في مدينة قسنطينة زوايا[2] هامة تابعة للرحمانية كزاوية "رحبة الصوف" وزاوية "حي الشارع" تقام فيهما الصلوات الخمس وتعليم الصبيان القرآن الكريم والتربية الدينية. وقد جدد أبناء قسنطينة زاوية "الشارع" وصيروها مسجدا كان من أهم مساجد المدينة.

وبالزاويتين قبور لأهل باش تارزي. وحسب المصادر فإنّ المؤسس الحقيقي لهذه الزاوية هو الأستاذ عبد الرحمن بن محمد بن حمودة بن مامش المعروف بمصطفى باش تارزي الجزائري المنشأ، القسنطيني دارًا. توفي في قسنطينة سنة 1806م وبها ضريحه. ويعتبر باش ترزي أحد تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهري البارزين علما وفقها ومن أتباع الرحمانية المشهورين في منطقة القبائل الكبرى الشيخ الحاج علي بن الحملاوي بن خليفة. ولقيمة هذا الأخير العلمية والأدبية بلغ عدد أتباعه 400.00 مريد[3]. وهم موزعون في كل من وهران والجزائر العاصمة. وللشيخ الحملاوي أتباع كثيرون في ناحية قسنطينة وفي بني منصور وحدها 800 إخوان وفي أقبو 112 إخوانًا والبويرة 225 إخوانًا. ويجابة 60 إخوانا، وأكثر من 2000 إخوان في كل من تونس وليبيا والقاهرة وفي جدة[4].

---

1 – د. يحي بو عزيز، المؤسسات الدينية، مرجع سابق، ص 12.

2 – جريدة العصر الأسبوعية، العدد 36، السنة 1، 17 ديسمبر 1981، ص 6.

3 – COPPOLANI Depont, COPPLANI Xavier, op.cit, p. 387 - 389.

4 – COPPOLANI Depont, COPPLANI Xavier, op.cit, p. 388 - 389.

وهناك شخصية أخرى هامة ومحبوبة لدى جمعية الرحمانية. وهو الشيخ محمد بن ابي القاسم البوجليلي مسير زاوية بوجليل الواقعة في دوار تيفريس بـأقبو. ولهـذه الزاوية أتباع كثيرون وزوايا فرعية كثيرة انظر الجدول[1] التالي:

| مكان الزاوية | عدد الزوايا | المقدمون | الإخوان |
|---|---|---|---|
| أزفون (عزازقة) | 1 | 2 | 120 |
| البويرة | 9 | 5 | 161 |
| ذراع الميزان | 1 | 5 | 520 |
| الأربعاء بني راتن | 2 | 2 | 150 |
| أقبو (بجاية) | 15 | 18 | 3386 |
| جيجل (بجاية) | 2 | 2 | 50 |

يزور المقدمون الزاوية في كل من جرجرة والجزائر مرة على الأقل في السنة ومن هؤلاء الشيخ محمد بن حسين القاضي القاطن في قرية آيت أحمد (جرجرة). وفي الجزائر وحدها حسب تحقيقات ديبون وكوبولاني 23 طريقة صوفية و49 زاوية و295185 مريدا.

ويبدو أن للزاوية الرحمانية في منطقة القبائل شعبية كبيرة ونفوذا قويا ودليل ذلك كثرة أتباعها وانتشارها في الجزائر وقد لعبت هذه الزاوية دورا أساسا يمكن تلخيصه في ثلاث نقاط:

1 – الدور الديني.

2 – الدور التعليمي.

3 – الدور السياسي.

1 – Idem, p. 390 - 395.

**أولاً – الدور الديني:** ويتمثل في نشر الإسلام رغم مضايقة الاستعمار لها وفي المحافظة على الإيمان في قلوب الناس طيلة عهد الاحتلال للجزائر. ومنها استمد الشعب الجزائري ثقافته الروحية وإيمانه بوحدة الدين، ووحدة المصير فكانت بذلك الحصن الحصين الذي اعتصم به الشعب الجزائري. وخاصة المجتمع الريفي في وجه الاستعمار والمبشرين. وعن هذه الروح الدينية عبرت المؤرخة الفرنسية إيفون تورين فقالت: « إنّ التمسك بالثقافة التقليدية وتقصد العربية خلال فترة الاحتلال يعتبر مظهرًا من مظاهر المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي»[1]. وقد أكد هذه الحقيقة أيضًا (فرانز فانون) في كتابه القيم "سيسيولوجية الثورة" فقال: « إنّ التمسك بالمحيط التقليدي.. يؤدي إلى الرفض المطلق للحضارة الاستعمارية»[2].

وقد أكد هذه الحقيقة أيضًا قادة الاحتلال أنفسهم في القرن التاسع عشر والعشرين حين كشفوا مظاهر المقاومة المعنوية للشعب الجزائري من خلال المؤسسات الدينية[3] وهذا يبين شعور الفرنسيين بالمقاومة المعنوية للشعب وبالشكل الثقافي الذي اتخذته هذه المقاومة من خلال المؤسسات الدينية.

**ثانيًا – الدور التعليمي:** بالإضافة إلى هذا نجد أيضًا الدور التعليمي ولا نميز في الواقع بين الدورين وكل واحد منهما يكمّل الآخر. وذلك نظرًا للعلاقة الموجودة بين الدين والتعليم ولعل هذا الترابط هو الذي كان حاجزًا حول كل المحاولات التي كانت ترمي إلى تغيير الشخصية الجزائرية.

وتؤكد نفس المؤرخة الفرنسية "إيفون تورين" هذه المواقف الصلبة للدور الذي كانت تضطلع به الزوايا آنذاك في البلاد فقالت: « إنّها مراكز دينية وثقافية ومدارس للكبار والصغار ودور للمعالجة والتداوي وإسعاف الفقراء وملتقى ذوي الرأي ونقاط ينطلق منها الجهاد ولا يعرف لها مثيل في أوروبا، ولم ينتبه المستعمر لنفوذها في

1 – نقلا عن محمد الميلي، قانون الثورة الجزائرية، ط 1، بيروت، 1973، ص 101.

2 – انظر: فرانز فانون، سيسيولوجية الثورة، ط 2، بالفرنسية، ص 115، تعريب الأستاذ محمد الميلي.

3 – TURIN Y., op.cit., p. 36.

القطر إلا بعد زمن طويل »[1]. من هذه الحقيقة ندرك دور الزاوية الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي.

وقد أدت الزاوية الرحمانية في منطقة القبائل خدمة هامة في نشر التعليم على أوسع نطاق فقد كان لها أساتذة في حياة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي منهم الشيخ أحمد بن الطيب الصالح الرحموني الذي نظّم أرجوزة في الفقه، ظل قضاة "جرجرة" يستعملونها، وقبل وفاة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، خلفه على الزاوية الجرجرية الشيخ علي بن عيسى المغربي. وقد ترك له جميع كتبه العلمية وأرضه وأوقاف الزاوية. وقد ظل الشيخ علي بن عيسى يؤدي واجب الزاوية، تعليمًا وتلقينا من سنة 1208هـ/1808م إلى سنة وفاة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجري سنة 1251هـ/1851م[2].

وقد نوه الأستاذ باعزيز بن عمر بهذه الزاوية وخاصة في الميدان التعليمي. منها تخرج الكثير من العلماء ممن ساعدتهم مواهبهم أن يكونوا فقهاء وعلماء في العلوم العقلية والنقلية أمثال الشيخ السعيد بن الزكري مفتي الجزائر العاصمة، والشيخ القاضي بسيدي عيش والشيخ أبي القاسم البوجليلي. والشيخ الطاهر القيطوسي المصلح العظيم الذي قرأ ألفية ابن مالك وختمها نحو 25 مرة[3].

والجدير بالذكر أن هذه الزوايا لا تزال تعد لنا رجالاً فطاحل لا يشق لهم غبار. وفي مقدمتهم الشيخ أبو يعلي الزواوي، والشيخ علي الخيار والشيخ علي الصدقاوي، والشيخ السعيد الإمام بقرية "قنزات" والشيخ السعيد اليجري النحوي، إلى غير ذلك ممن لا يستبعد أنهم غير معروفين لدى الطبقة المثقفة في الجزائر.

وعن هذا الدور الرائد للزاوية يقول أحد الكتاب الجزائريين: « لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر، تلك هي أنها

---

1- Idem.

2 – د. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 516.

3 – الأستاذ باعزيز بن عمر، التعليم بهذه الزوايا، الشهاب، ج 2، م 9، فيفري 1933، ص 76.

استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات وعمل رجالها العاملون الأولون على تأسيس المؤسسات القرآنية يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئين، وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها والتي نقف أمامها اليوم موقف المعترف المعجب لما كنّا نجد الآن في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين». وهو ما ذهب إليه الإبراهيمي حين قال: « لو تأخر ظهور جمعية العلماء 20 عامًا لما وجدت في الجزائر مدينة العربية.

ولأهمية هذه المؤسسات سواء في الميدان الديني والتعليمي يقول الكابتان "دونوفو" DENEVEU عن الزوايا الطرقية: « إنّ المعلمين الأهالي المتشبعين بمبادئهم الذين يغذيهم حقد لا هوادة فيه ضد المسيحيين ويعميهم التعصب الأعمى، هؤلاء المعلمون الذين يشتغلون حاليًا في التعليم يحاولون دائمًا أن يعدوا الجيل الصاعد وهو الجيل الذي يخرج ضدنا وهم مجاهدو ثورة التحرير»[1].

والملاحظ من قول دوفونو هو اعتراف الفرنسيين أنفسهم بأن ما قاموا به من مغامرات لا طائل من ورائها واعترافهم بالفشل الذريع. وقد ارجع بعض الكتاب الفرنسيين فشل سياسة الفرنسة والتنصير إلى الزوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على الكثير منها.

يبدو أن هذا التحليل صحيح إلى حد بعيد حيث أن العديد من الثورات التي قامت ضد الفرنسيين كان يتزعمها مشايخ الزوايا حتى أوائل القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. نذكر من هؤلاء الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ، وثورة لالة فاطمة نسومر، وثورة المقراني والشيخ الحداد، وثورة بومعزة، وثورة بوعمامة، وكلهم أبناء هذه الزوايا التي تخرج جنود الدفاع الروحي ضد المستعمر الفرنسي واستمرار المقاومة الثقافية وتغذيتها للمقاومة السياسية، إذ أنّ تمسك الشعب الجزائري بها حال دون محو الشخصية الجزائرية. ونذكر بعض الزوايا في المجال السياسي والوطني مثل زاوية الشيخ الحداد التي اشتهرت بمشاركتها في ثورة المقراني عام 1871.

---

1 – TURIN Y, op.cit, p. 109.

**ثالثًا – الدور السياسي:** يتمثل دور الزاوية في محاربة الاستعمار منذ دخوله أرض الجزائر. بحيث لم يدخر الزعماء الروحيون جهدًا لإعلاء صوتهم ضد الوجود الفرنسي، والغزو الصليبي المسيحي. على الرغم من إمكانياتهم المادية المحدودة. إلا أن عزيمتهم كانت قوية، ومعنوياتهم كانت مرتفعة جدًا.

وكلنا يعلم أن الشيخ الحداد مقدم الزاوية الرحمانية بصدوق (ناحية بجاية) الذي تجاوز الثمانين من عمره وهو أحد زعماء ثورة 1871م. قد كان يتجول في الأسواق مرفوعًا فوق الأكتاف ليحمس الناس للثورة ولجمع القوات اللازمة لذلك[1].

ونظرًا لمكانة الزاوية المرموقة، والاحترام الذي كان يحظى به أصحاب هذه المراكز فإنّ ناشر أية دعوة عن طريق هذه المراكز يجد لها صدى لدى السكان. ولهذا لا ينبغي أن نتعجب إذا تحمسوا لهذا النداء للجهاد المقدس من أجل محاربة العدو الدخيل الذي جاءهم باسم الكنيسة لمحاربة دينهم ولغتهم.

ولعل تركيز الشيخ الحداد على الناحية الروحية كان أقوى من الناحية المادية حتّى يجعلهم مرتبطين به روحيًا لأن الارتباط الروحي في نظره أقوى من الارتباط المادي.

واستنادًا إلى رؤية "مارسيل سيميان" التي لا تخلو من نزعة التعصب فإنّ الشيخ الحداد رمى عصاه على الأرض أمام السكان وصاح قائلاً: « بإذن الله وعون الرسول – صلى عليه وسلم – سنرمي الفرنسيين في البحر ونطردهم من البلاد »[2].

هكذا اتخذت الحرب طابعًا سياسيًا تصارع فيها أبناء القديس مع أبناء محمد بن عبد الرحمن بوقبرين أو الإخوان ضد الآباء[1]. ولا شك أنّ الهدف من إيراد مثل هذه

---

1 – محمد سي يوسف، مقاومة الاحتلال الفرنسي (1850 – 1854) لمنطقة القبائل، (ثورة الشريف بوبغلة)، دبلوم تقدم به لنيل دبلوم الدراسات المعمقة قسم التاريخ، ص 24. م.س.

2 – د. يحي بوعزيز، ثورة 1871، مرجع سابق، ص 235. نقلا عن مارسيل سيميان، ص 220، 204.

التعابير هو إثبات تعصب الحداد وأتباعه ضد الأوروبيين المسيحيين ومن الغزاة المستعمرين. ويذكر رين لويس الذي سمّى عام 1871 بعام المقراني. إنّه ما تزال العجائز إلى اليوم بمنطقة القبائل تتغنى ببعض الألحان والأشعار الشعبية وقد نشر القائد مولود مؤخرًا بعض هذه الأشعار لسكان بني يعلي وبني ورتلان في نفس الموضوع[2].

هكذا تعاون الشيخ والمداح بواسطة المدائح الشعبية التي كان يرددها في السوق على طرد الاستعمار الفرنسي. وانطلاقا من هذه الرؤية البعيدة أخذت الزاوية في المنطقة تنشر الثقافة العربية الإسلامية وحماية الدين الإسلامي، ومحاربة العدو الدخيل. وخاصة إذا علمنا أن فرنسا تخطط لنشر الديانة المسيحية في هذه المنطقة، لتكون تابعة لها.

وللزاوية الرحمانية نصيب أوفر في انتفاضة ثورة 1871، وتحريك الهمم وإيقاظ الشعور الوطني ضد الغزاة الدخلاء. ولهذا فمعظم المقدمين والرحمانيين كانوا بمثابة أئمة حرب في كثير من الأنحاء الثائرة. ويذكر بول غافاريل وهو أحد المؤرخين الفرنسيين: أن فرنسا تحارب في الجزائر أمة مدفوعة بعصبية ثنائية الوطنية والدين[3].

ففي ناحية ذراع الميزان نجد الشيخ محمد بن محمد الجعدي وكيل زاوية محمد بن عبد الرحمن (بوقبرين) في آيت إسماعيل. قرب ذراع الميزان من أكثر مقدسي، الشيخ الحداد بجبال جرجرة. عينه منذ عام 1860 وكيلا على هذه الزاوية، ومقدمًا على إخوانه، وأتباعه الرحمانيين. وامتدت نفوذه إلى جهات كثيرة من جبال (جرجرة) والبيبان. ففي أفريل من نفس العام وصل إلى زاويته مبعوثان من الشيخ الحداد هما: محمد أرزقي المشتراسي، وأكلي نايت بوزيد من آيت منداس حاملين للشيخ الجعدي

---

1 – COLLEVILIE La Vicomte de – Les grands hommes de l'Eglise au 192 siècle, Paris, 1905, p. 101.

2 – ثورة 1871، ص 198. انظر أيضًا: مجلة الأصالة، العدد 23، جانفي، فيفري 1975، ص 51 – 62.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 85.

نداء الحداد للجهاد فلبى الدعوة، واستدعى في الحين زعماء الإخوان بالمنطقة فاتفقوا جميعا على مهاجمة قرية ذراع الميزان لطرد من بها من الفرنسيين[1]. ومن الإخوان الرحمانيين الذين لعبوا دورًا سياسيًا خلال ثورة 1871م سي محمد علي السحنوني أحد المقدمين في ناحية الأربعاء نايت إيراتن. وقد قام هذا الأخير بتنظيم الهجوم على المدنية المحصنة التي حاصرها بجيشه أكثر من شهرين[2]. كما لعبت زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن في ذراع الميزان هي الأخرى دورًا هامًا في مقاومة الاستعمار، إذ تزعم رئيسها (سي الحاج عمرو) سنة 1851 حركة ثورية ضد القوات الفرنسية[3]. وكان قد عيّن في عام 1845 مقدمًا للرحمانيين، وهو زوج لالة فاطمة بنت سي الحاج بن عيسى الذي نظم الطريقة تنظيمًا محكمًا ولما تغلب على هذه الانتفاضة (المارشال راندو) هاجر سي الحاج عمر إلى تونس، وبقي هناك.

وأخيرا اتجه الناس إلى الشيخ الحقيقي للطريقة الرحمانية، الذي أصبح لامعا في بلاد القبائل وهو سي محمد أمزيان بن الشيخ الحداد من قرية الصدوق الذي لعب دورًا هامًا في ثورة 1871. وقد كان له تأثيرًا كبيرًا في الأوساط الشعبية المختلفة التي نفذت إليها الطريقة الرحمانية[4].

ولقد أعلن الشيخ الحداد الذي أصبح فيما بعد زعيمًا للجمعية الرحمانية الجهاد بعد أن ألح عليه ابنه سي عزيز ونادى الشعب إلى السلاح قائلا: « إنّ يوم الخلاص قد

1 – المرجع السابق، ص 262.

2 – محمد سي يوسف، مقاومة الاحتلال الفرنسي بمنطقة القبائل (ثورة بوبغلة)، مرجع سابق، ص24.

3 – د. عمار الطالبي، ندوة المجاهد، موضوع بعنوان: شعبية الثورة وشمولها لأغلب أنحاء الوطن، الأصالة، ع 2، السنة 1، ماي 1981، ص 50.

4 – عمار الطالبي، ندوة المجاهدين موضوع بعنوان: شعبية الثورة وشمولها لأغلب أنحاء الوطن، الأصالة، ع 22، السنة 1، ماي 1981، ص 50.

حان»[1]. هكذا انتشرت الثورة وراجت فكرة الجهاد ضد الفرنسيين في المساجد في الأسواق والمقاهي والأماكن العامة بفضل نشاطه ونشاط أتباعه. وخلال بضعة أسابيع ساهمت جهة القبائل وحدها بـ 150 ألف رجل[2] الأمر الذي جعل المستعمر يتساءل عن سر الوحدة الشعبية القوية بدون أن يتلمس أسبابها الحقيقية واستشهد الكتاب بتقارير ومراسلات ومؤلفات كثيرة تدل على تلك الروح الوطنية الدينية. فذكر الضابط "دونوفو" في كتابه "الإخوان" فعالية الحركة الشعبية فقال: « وبسبب سذاجة المواطنين قد اثر فيهم رجال جاءوهم باسم دينهم وباسم الله وباسم محمد (ﷺ) يحرضونهم على الثورة والتخلي عن المحراث في حين أننا أصبحنا مضطرين إلى استعمال القوة لحمل الأهالي على الامتثال لآرائنا ولإقناعهم بأننا نريد مصلحتهم »[3]. ونظرا للدور الخطير الذي تلعبه الزاوية في الميدان السياسي قال السيد ميشال: « إنّ هذا الوضع يقتضينا اليقظة التامة لأنه لا يمكن التسامح مع هذا النشاط المعادي الذي يحمل في ظاهره الطابع الديني بينما يخفي وجهه السياسي »[4].

ولذلك دعا كل من يعنيهم الأمر إلى ملازمة اليقظة والانتباه ومراقبة جميع النشاطات لهذه الجمعيات الدينية وخاصة تلك التي تنظمها جمعية العلماء تحت زعامة ابن باديس والعقبي والعمل على إبعاد المدارس القرآنية عن نشاط الجمعية. إنّ هذه الجمعية تقوم بدعاية تهدف إلى التشكيك في الولاء لفرنسا وهذا يستلزم رقابة دائمة لنشاطهم ولاسيما في المدن والقرى والأسواق العامة ويجب عدم التردد في كتابة

---

1 – كان الشيخ الحداد زعيم نفس الجمعية الدينية الرحمانية التي كانت تتزعم ثورتها لالة فاطمة حتّى أسرها الفرنسيون سنة 1857.

2 – د. سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 64.

3 – د. أبو عمران، مقال بعنوان: وضعية التعليم والثقافة في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، الأصالة، ع 6، السنة 1، جانفي 1972، ص 120.

4 – د. سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 21.

محضر بكل اجتماع من هذا القبيل ولاسيما ذلك الذي يأخذ طابعًا تجريبيًا معاديًا لفرنسا[1].

دور الزوايا السلبي:

وبالإضافة إلى وظيفتها الإيجابية نجد أيضًا للزوايا دورًا سلبيًا يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

1 – البدع التي أحدثتها في الدين، والخرافات والدروشة التي ينشرها أتباعها بسبب ضيق أفقهم الفكري، بحيث "آل أمر الكثير من هذه الزوايا إلى أحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان وأصبح شيخ الطريقة والمرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية. فهو الذي يعطي وهو الذي يمنح، وهو منبع كل خير، ومصدر كل شر. وتفشت إثر كل ذلك بدع وأباطيل، لا تشوه وجه الإسلام وحده بل تشوه وجه البشرية برمتها. يزعمون أنهم يقومون بها زلفى وتقربًا إلى الله، كضرب الدفوف، والرقص، واختلاط الرجال بالنساء وأكل الحشرات السامة والتمرد على الأشواك والتشبه بالحيوان الأعجم في مشيته وأصواته سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون»[2]. هذا هو الجانب المعيب فيها والذي حاربته مدرسة[3] التجديد الإسلامي في الجزائر.

2 – العمل على فساد الأخلاق في بعض الاحتفالات والمناسبات والتعامل مع السلطات الاستعمارية. ولعل أول شخصية وطنية معرفة للزوايا وما يجري داخلها هو "الأمير خالد". وقد بيّن لنا ذلك في مقال له نشره في جريدة "الإقدام" سنة 1923 بيّن في تحسّر وتألم مدى تأثير مشايخ الطرق على الأمة الجزائرية وما ينجر عن هذا التأثير من جهل وانحطاط، ويصف لنا بأسلوب لاذع وشديد اللهجة ما يجري في عقر زواياهم من منكر الفعل، وساقط العمل، ودنيء السلوك والأخلاق. ويقارب بين ما كان

---

1 – المرجع نفسه، ص 22.

2 – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 351.

3 – عن موقف المصلحين من الطرقية المنحرفة انظر الفصل الرابع من هذا البحث.

عليه أجدادهم من خلق متين وورع في الدين، وما اصبح عليه من تكالب على المناصب السياسية، والتملق للسلطات بغية الحصول على مراتب أو وسام.

يقول: «ومما يستغرب فيه أن بعض الزوايا فيها من أنواع الخمر ما لا يوجد منه في اعظم الديار الأوروبية يعدونه للحكام ومن يزورونهم من أعيان الأجانب وفيها من زخرفة الدنيا وزينتها. ما يحير عقول الزائرين من الأوروبيين الذين يتوسلون للشيوخ بالهدايا النفيسة طلبًا للمباهاة والأغراض الشخصية. والبعض من هؤلاء الشيوخ عند حلولهم بالعاصمة يفعلون الأفعال القبيحة التي تغضب الخالق، وتزعج المخلوق»[1].

وقد اغتنمت الإدارية الفرنسية هذه المظاهر السلبية وغذّتها في نفوس العامة السذج حتّى يبقوا على هذه المبادئ الغالطة. وخاصة عندما اتضح لها فشل سياستها أمام المقاومة الشعبية التي كان يقودها رؤساء الزوايا الصالحة المقاومين لسياسة الاستعمار، أمثال الأمير عبد القادر والمقراني والشيخ الحداد. وشجعت الحركة التبشيرية في الجزائر وأعطتها قوة مادية وأدبية لتحقيق المطامح الفرنسية. هذا ما سأتعرض له في الفصل الثالث مبينًا خطتها وأهدافها السياسية.

1 – الأمير خالد، في الزوايا خبايا، جريدة الإقدام، ص 132، (23 فيفري 1923).

## الفصل الثالث

## سياسة التبشير والتنصير في منطقة القبائل

### تمهيد

تحدثت في الفصل السابق عن الحياة الدينية والثقافية في منطقة القبائل، وبينت دور الزاوية سواء من الناحية الدينية أو التعلمية أو السياسية وكيف أن هذه الزوايا هي التي كانت على الدوام الحصن الحصين أمام سياسة المسخ والتشويه للثقافة الوطنية، وتوصلت إلى نتيجة هي أن الاستعمار عندما تبيّن له أن أعماله كادت أن تكون فاشلة، بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها رؤساء الزوايا من خلال الثورات العديد التي عرفتها الجزائر عبر التاريخ، بدءًا بثورتي الأمير عبد القادر والمقراني حتى ثورة نوفمبر 1954. لجأ إلى تحريض بعض مشايخ الزوايا الذين استمالهم ضد مصالح بلادهم، وتشجيع حركات التبشير المسيحي، بهدف التنصير والفرنسة.

غير أن الحديث عن حركة التبشير المسيحي في منطقة القبائل يقتضي مني حتمًا إلقاء بعض الضوء على السياسة الفرنسية في الجزائر، وذلك نظرا لاشتراكهما سواء في تحديد الأهداف، أو في تحديد الخطة العملية التي قامت عليها كل من السياستين، ولاسيما في القرن التاسع عشر عصر الاستعمار الحديث.

هذا العصر الذي اشتد فيه خطر التبشير المسيحي في الجزائر، وخاصة بعدما ارتبط بالنظم الاستعمارية التي فرضت على كثير من البلدان الإسلامية[1].

ومما يدل على ذلك ما صرّح به القادة الفرنسيون أنفسهم إبان احتلال الجزائر بأنهم يقودون حملة صليبية تهدف إلى القضاء على الدين الإسلامي في هذه الأرض العربية المسلمة.

---

1 – د. الحبيب الجنحاني: حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، محاضرة ألقاها في الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي بمدينة تيزي وزو جويلية 1973، ج 3، ص 1053.

وقد قال سكرتير[1] "بيجو": « إنّ آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إله غير المسيح، أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا »[2].

وتدعيمًا لهدف التنصير والفرنسة في الجزائر صرّح الأسقف لافيجري أكثر من مرة: «علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإنّ واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل»[3].

هكذا كان الاستعمار في الجزائر يستعين في تحقيق أهدافه بالمبشرين الذين كانوا له منذ البداية، روادا ودعاة له.

يقول "الأميرال ديفيدون" الوالي العام على الجزائر منذ تعيينه على الولاية العامة في الجزائر: « قضيت حياتي وأنا أساند الحركات التبشرية في كل جهات العالم»[4]. وقد ساند التبشير مساندة مطلقة، وفي عهده تطورت الحركة التبشيرية في الجزائر تطورًا كبيرًا.

وتقوم هذه السياسة على دعامتين أساسيتين هما:

1 – الناحية النظرية.

2 – الناحية العملية.

---

1 – هذا السكرتير يدعى "فويو" حسب ما جاء في مقال الدكتور أبو عمران الذي أشار إليه صاحب تحفة الزائر.

2 – محمد الصالح الصديق: الجزائريون في الماضي والحاضر، القاهرة، 1960، ص 35.

3 – د. محمد ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزائر، 1979، ص 79.

4 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France (1871 – 1914), T 1, Paris, 1968, p. 302.

وسأقتصر في بداية التحليل على الناحية النظرية، وذلك باعتبارها الركيزة الأساسية التي حاول المبشرون والمستعمرون من خلالها تبرير وجودهم في الجزائر بصفة عامة وفي منطقة القبائل بصفة خاصة.

أما الناحية العملية فسوف أتعرض لها في الجزء الثاني من هذا الفصل.

**الناحية النظرية:**

تعتمد هذه السياسة من الناحية النظرية على بعض نصوص المبشرين الذين بينوا فيها أهدافهم التبشيرية، ولذلك سأكتفي في هذه البسطة الموجزة بعرض آراء المبشرين والقادة السياسيين فقط.

ويمكن تلخيص هذه الآراء في النقاط التالية:

1 – تمجيد الحضارة الرومانية المسيحية، والحط من قيمة الحضارة العربية الإسلامية.

2 – سياسة التفرقة بين السكان إلى عناصر متضاربة.

3 – محاولة إبراز الكيان القبائلي ككيان منفصل، ومتميز ومستقل عن باقي السكان الجزائريين.

4 – الاعتماد على بعض الآثار التاريخية التي يقول عنها المبشرون بأنها من أصل مسيحي في ثقافتنا.

هذه هي أهم النقاط التي سأحاول تحديدها من خلال التحليل التالي.

**أوّلاً – تمجيد الحضارة الرومانية المسيحية والحط من قيمة الحضارة العربية الإسلامية:**

مما لا شك فيه أن الهدف الحقيقي الذي كانت الإدارة الفرنسية تتطلع إليه منذ الاحتلال، إنّما هو القضاء على الإسلام، والحضارة العربية الإسلامية في الجزائر. وعليه اتفق المبشرون والقادة السياسيون على أن الإسلام في إفريقيا يعتبر عدوا لفرنسا، وللكنيسة ولا مهادنة معه. وإن كان القائد الفرنسي "دوبورمون" قد وعد في تصريح له في جويلية 1830 بعد استيلائه على مدينة الجزائر، باحترام دين

الجزائريين وعاداتهم، وممتلكاتهم، فقد كشف الغطاء عن نواياه عندما استقبل المرشدين العسكريين بمناسبة الاحتفال الديني الذي انتظم بعد انتصاره فقال: « فقد فتحتم معنا من جديد باب المسيحية في إفريقيا ورجاؤنا أن تزدهر فيها عما قريب الحضارة التي انطفأت بها »[1].

وتحقيقًا لهذا الهدف اعتمدت هذه السياسة على دراسات كثيرة وخطيرة. ولعل أبرزها تلك التي تناولت تاريخ إفريقيا في العصور القديمة ومجدت الحضارة الرومانية المسيحية، ووصفت الفتوحات الإسلامية، على أنها فرضت على البربر الإسلام بالإكراه والسيف، وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية ومع الكنيسة[2].

وقد تجسدت هذه الفكرة خلال القرن التاسع عشر في الأدب الأوروبي، وعلى وجه الخصوص الأدب الفرنسي الذي برز كتيار جديد. ومن أهدافه في هذا المجال تقديم خدمات للمعمرين وذلك بتمجيدهم، والتنويه بأعمالهم، واعتبارهم مصدر رخاء لأوروبا، وناشري حضارتها[3].

وكان "لويس برتران"[4] L.BERTRAND أحد الدعاة الذين سخروا ريشتهم لخدمة هذه الأهداف. ومن أهم مؤلفاته التي تجسد هذه الفكرة هي "La cina" المنشور سنة 1900م "La concession de M. petit grand" المنشور سنة 1912 و " La ferme dans la brousse" المنشور سنة 1932.

من خلال هذه المؤلفات نتبين نظرة "لويس برتران" المنوهة بجهود المعمر وإنجازاته.

---

1 – د. أبو عمران: الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي شلف، الأصالة، العدد 83، 84، جويلية أوت 1980، ص 55.

2 – خديجة قطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر (1830 – 1871)، الجزائر، 1977، ص 105.

3 – BELAMRI Rabah, L'œuvre de louis Bertrand (miroirde l'Idéologie colonialiste), Alger, 1980, , p. 139 - 140.

4 – ولد سنة 1866م بمدينة Spincocir التابعة لدائرة Pricy بفرنسا. تربى في محيط محافظ، درس في ثانوية بارلوديك Bar-Leduc. وقد شهد ميلاده انهزام فرنسا أمام ألمانيا، وسقوط نابليون الثالث وإعلان الجمهورية، ومن آرائه أن البرجوازية ضد الكنيسة ولذا كان يميل إلى النظام الملكي، من ص 1 – 24.

وقد حاول هذا الكاتب إثبات أن الجزائر كانت متخلفة بحيث لا تدر شيئا، لأن معظم مساحاتها كانت قاحلة، والمعمر هو الذي أثبت أنه بإمكانها أن تنتج الكثير من الخيرات. ومما يدل على ذلك ما قام به من إنجازات، واستصلاحات ضخمة في كثير من الميادين، وخاصة الميدان الزراعي. ثمّ أن المعمر بذكائه ونشاطه استطاع أن يمنح حياة جديدة للجزائر.

ذلك أن الصفات التي توفر عليها المعمر كالشجاعة والجدية والعدالة والذكاء الخلاق، كفيلة بأن تؤهله وتشهد له بالجدارة والحق في خدمة الأرض واستثمار جهوده[1]. بدعوى تفوقه على الأهالي الذين وصفهم بأنهم متخلفون: وقد أكد هذه الفكرة السيد "جيرو A. GIRANT" فقال: «إنّ المعمر كان مدركًا ومقتنعًا بوضعية الجزائريين التعسة، ولذلك وضع على كاهله مهمة إحياء الأراضي، وتحسين أوضاعهم بتوفير العمل لهم، في مزارعه ومصانعه»[2]. متناسيًا العوامل والظروف التي أدت بهم إلى أن اصبح الجزائري مجرد عامل أجير، والفرنسي سيدًا ومالكًا، وصاحب المال والكلمة والنفوذ القوية. وعلى هذا الأساس ظهر ما يسمّى بالطبقة "الأرستقراطية" المسيرة والموجهة في الجزائر. وكان ذلك كله على حساب الجزائريين الذين حرموا من كل شيء ماديا كان أو معنويا[3].

إذا كانت نظرة "لويس برتران" للمعمر نظرة اعتبار وتقدير فإنّ نظرته للجزائري كانت عكس ذلك، فهي نظرة احتقار. ومما يدل على ذلك أن الجزائري في نظر المعمرين ليس هو الأهلي، إنّما الأهالي هم الوافدون من أوروبا، وهم الذين كانوا يدعون بالجزائريين، مثلما كانوا يسمون الأوروبيين الذين يعيشون في إفريقيا "بالأفارقة"، والهند صينيين "بالهند الصينية" وقد كان "لويس براتران" يسمي المعمرين "بالأفارقة الجدد Néo-Africainos وأن كلمة "-Néo" في تصوره تعني نهضة وبعث الجزائر بفضل أوروبا المتطورة تقنيًا وفكريًا. أما العربي في نظره فهو ليس أكثر من

1 – BELAMRI R., op.cit., p. 149.

2 – BELAMRI R., op.cit., p. 154.

3 – Idem, p. 149.

مستغل جاء مستعمرًا منذ 13 قرنا، يحمل صفات نظام اجتماعي غير متطور. ونفس الشيء بالنسبة للأهلي (الأمازيغي) أنه مخلوق أصلا ليطيع الأوروبي، ويخضع لوصايته، ليس له تاريخ ولا حضارة فهو ليس أكثر من فتى بريء وغير راشد[1].

هكذا كان يعمل المستعمر على تزييف تاريخ الجزائر وحضارتها. والواقع أن هذه الفكرة تعكس بصدق نظرة استعمارية في تغيير الشخصية الإفريقية، وإحلال محلها شخصية لاتينية. ويعتبر "لويس برتران" أحد الكتاب البارزين الذين ساهموا بجدية ومواظبة في مسخ شخصية الأهالي، والطعن في الإسلام. وهو في نظره "أي الإسلام" مصدر الفقر والشقاء والقذارة، والغباوة والوحشية[2].

وقد برر سبب تخلف حضارة "الأمازيغ" بكونها ذات الطابع الحضاري الشرقي الإسلامي، ولذلك لا يمكن أن تماثل حضارة الجزائر الرومانية القديمة من حيث تفوقها[3]. إنه لم يدخر جهدا في الإساءة إلى الأهالي ووصفهم بكل النقائص والدناءة في حين خص الأوروبيين بكل كمال.

وحتى يؤكد هذه الفكرة أكثر أخذ يعدد بعض عاداته وتقاليده كاللباس، بحيث كان يسخر من الزي الوطني كالبرنوس والحايك. وقد تعدى ذلك إلى ذكر بعض صفاته الخلقية مؤكدًا بأن الجمال من صفات الأوروبي، أما الجزائريون فكان يشبههم بالقردة.

وقد عبّر عن هذا المعنى عدد كبير من الكتاب الفرنسيين نذكر منهم على سبيل المثال السيد "جوان شوان J. COHEN" الذي كتب مقالا تحت عنوان "العنصرية والاستعمار في الجزائر" تعرض فيه الكاتب لموقف المعمرين من الجزائريين، وما كانوا يتعرضون له من صفات الدناءة والاحتقار. وقصة ذلك ما جرى في إحدى المحاكم الفرنسية، بحيث طلب قاضي المحكمة أحد المتهمين الأوروبيين بذكر عدد

---

1 – Idem, p. 193 - 202.

2 – BELAMRI R., op.cit., p. 201.

3 – Idem, p. 193 - 202.

الشهود الذين معه. فأجابه قائلا: «خمسة: رجلان، وثلاثة من العرب[1]. إنّ سلبية الجزائري واحتقاره وتجاهله كفرد لم تقتصر على مثل هذه المواقف، بل أصبح يعبر عنها في كل المظاهر، وحتى في الحديث من خلال المعاملات اليومية مثلا كلمة "Vous" التي تستعمل للتعظيم لا توجد إطلاقا للجزائري. في حين يعتبر إجرامًا إذا لم يستعملها الجزائري أثناء حديثه مع فرنسي أيًا كان[2].

ومن أنصار هذه النزعة العنصرية بوسيير Boussière المدير بأكاديمية الجزائر سنة 1888 "وبوسي G. Boussier" الأستاذ بالمدرسة العليا الفرنسية Collège de France سنة 1895 و"V. Waille" الأستاذ بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر. في الفترة ما بين (1890 – 1900)، و"ستيبان قسال S. Gsell" (1890 – 1920) الأستاذ بالمدرسة العليا الفرنسية أيضًا وصديق السيد "لويس برتران".

وقد كان "لويس برتران" أكبر الممثلين للاتينية بالجزائر في ميدان الأدب، بحيث لم يضاهيه أحد في الدفاع عن هذه النزعة. وقد كان يلح دائمًا على ضرورة بعث ما سماه "بإفريقيا اللاتينية الرومانية" من طرف اللاتينيين المحدثين. وذلك من خلال ما كتبه عن "قرطاج"، و"سانت أوغسطين"، و"المدن الذهبية بإفريقيا. بالإضافة إلى العديد من المحاضرات التي ألقاها في هذا الموضوع. وسخّر الكثير من الدراسات[3] لبعض رجال الأفارقة أمثال "St Ajgustin" و"يوبا الثاني ملك موريطانيا القيصرية بشرشال" الأمر الذي جعل البعض يسمونه بالويس برتران الإفريقي[4] Louis Bertrand l'Africain.

ومن التحليل السابق نستنتج أن هذا العمل كله لا لشيء إلا لربط ماضي إفريقيا بالحضارة الغربية وذلك بإظهار امتداد المدنية الغربية بالمغرب الإسلامي، والطعن في الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي التزييف والتحريف لتاريخ وحضارة الأهالي.

---

1 – BELAMRI R., op.cit., p. 205.

2 – Idem, p. 205.

3 – Idem, p. 235.

4 – Idem, p. 236.

وقد ذكر أن إفريقيا بالإضافة إلى كونها لاتينية كانت مسيحية، واستدل على ذلك بأحد أقطاب وأشهر رجال الدين المسيحيين العالميين أمثال "سانت أوغسطين". وحاول إثبات بأن الدين المسيحي كان منتشرا في كل القرى والمدن الجزائرية[1]. منوهًا في نفس الوقت بجهود الجزائريين قديمًا في سبيل الدفاع ونشر المسيحية.

وكان يقول دائمًا: « إنّ التأثير اللاتيني هو الذي أعطى لإفريقيا الشمالية شخصية ثقافية ودينية وسياسية موحدة »[2]. الشيء الذي جعله يسمي تلك الفترة بالعصر الذهبي لإفريقيا قبل دخول الإسلام إليها. وإن إفريقيا في تصوره تحضرت بفضل أوروبا اللاتينية لمدة (14) قرنًا، من القرن السابع قبل الميلاد إلى الفتح الإسلامي، وهي في نظره مدة أطول من المدة التي مكثها العرب بإفريقيا. وهذا مما يثبت أن إفريقيا لاتينية أكثر من كونها عربية مسلمة. وأن الأفارقة كانوا مسيحيين، وحضارتهم لا تختلف عن حضارة الرومان في شيء[3]. فأمثال "سانت أوغسطين" و"سان سيبريان" في نظره لاتينيين قبل أن يكونوا أفارقة، ليؤكد بأن إفريقيا الشمالية أو بالأحرى حضارة الجزائر وليدة الحضارة الرومانية[4]، وأن هذه البلاد قد طبعت منذ العصر الروماني الأخير بالطبع المسيحي.

وقد تمكن "لافيجري" من التأثير في الأميرال ديغيدون عن طريق إقناعه بأن أصل هؤلاء السكان مسيحي ولا يرون أفضل من الرجوع إلى ديانتهم الصحيحة. وأن الدم الذي يسري في عروقهم، هو نفس دم الفرنسيين لأن أصلهم روماني مسيحي[5].

ويظهر أن "الأميرال ديغيدون" الذي كان يعتقد بالاندماج قد اقتنع بهذه الأفكار ورآها ملائمة للظروف التي تمر بها الحركة الاستعمارية في الجزائر آنذاك. ويتضح

---

1 – BELAMRI R., op.cit., p. 239.

2 – Idem, p. 239.

3 – Idem, p. 237.

4 – Idem, p. 240.

5 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmanns et la France, T 1, op.cit., p.273.

ذلك في قوله: « إنّ الهدف الذي يرمي إليه المبشرون هو نفس الهدف الذي أريد الوصول إليه، أنه تنصير وفرنسة سكان منطقة القبائل، وإدماجهم في المجتمع الفرنسي[1].

هكذا حاول المبشرون إبراز العنصر الأوروبي في ثوب الأحرار بناة الحضارة والعدل والعلم حتّى يتمكنوا من تنصير وفرنسة الأهالي. وقد شرح أحد الضباط الفرنسيين سبب سياسة التنصير والفرنسة فقال: « إنّ تعصب المسلمين هو الأمر الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في إفريقيا، وهذا الدين (الإسلام) الذي احترمناه إلى يومنا هذا، نقترح الآن وبجرأة محاربته، بهذا نثبت قوتنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام»[2].

لم يدخر المبشرون والمستعمرون جهدا في ضرب الإسلام، لأنه يعتبر حاجزا منيعًا في وجه الاحتلال الفرنسي. ولذلك لا بدّ من إزالة هذا العائق الذي هو الدين الإسلامي.

فهذا القسيس بافي Pavie الذي تولى العمل التبشيري بعد ديبيش[3] الأسقف الثاني، والذي كان يرى أن من واجبه محاربة القرآن وتنصير المسلمين[4].

وقد صرّح القسيس "إميل رولان" بباريس أمام اتحادية التجمعات المسيحية بهذا الخصوص فقال: « إنّه في حالة ما إذا لم تتحمل الكنيسة الفرنسية مسؤوليتها تجاه الجزائر فإنّه في خلال عشرين سنة فإنّ الإسلام سيهيمن على المسيحية»[5]. يتضح مما سبق أن هدف الاستعمار والمبشرين لم يكن سياسيًا ولا اقتصاديًا فحسب، بل كان محاربة عقيدة السكان وحضارتهم، قصد تحويلهم إلى نصارى. لأنه بذلك تكون

---

1 – La SICOTIERE, Rapport fait au nom de la commission de la défense nationale, Versailles, 1875, p. 190.

2 – الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، مرجع سابق، ص 56.

3 – له مراسلات مع الأمير عبد القادر الجزائري حول أسرار الحرب.

4 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري، مرجع سابق، ص 56.

5 – ROLLAND Emile, La grande Kabylie à 50 ans, Alger, 1957, p. 4 - 5.

الجزائر في نظرهم تابعة لفرنسا. ولاسيما وأن هؤلاء السكان عرفوا منذ القديم بفتور إسلامهم وإيمانهم الضعيف للمبادئ، والتعاليم الإسلامية. وأدّعى "لافيجري" أن الجزائريين ما كانوا ليعرفوا القرآن أبدًا، لو لم تتول فرنسا تعليمهم إياه[1].

إنّ الإدارة الفرنسية في نظره أخطأت لأنها احترمت الإسلام ومؤسساته. فطالبها بالتخلي عن مساعدة المساجد والمدارس الإسلامية، التي كانت سببا في تعميق الروح الدينية في نفوس الأهالي. ومتناسيًا أن الحكومة الفرنسية قد استولت عام 1843 على الأوقاف الإسلامية التي كانت تصرف على المشاريع الخيرية[2].

وفضلاً عن ذلك كان "لافيجري" يبرر حق الكنيسة في تنصير السكان بزعمه أن الإسلام متخلف. لأن الإسلام في نظره هو الذي تسبب في "انحطاط الشعب العربي أخلاقيا"[3].

هكذا أشار بعضهم إلى تفوق الكثلكة عن الإسلام حضاريا وثقافيًا. ويرى لافيجري أيضًا، أنه من الضروري إبعاد هذا الشعب عن الإسلام حتّى يعود إلى ما كان عليه قبل القرن السابع الميلادي أي قبل الفتح الإسلامي. لأن القضية في نظره، هي قضية هذا الدين الذي حال دون غزو الجزائر نهائيًا[4].

ويضاف إلى أن المبشرين والمستعمرين لم يكتفوا بما فعلوه في الاعتداء على الإسلام وأوقافه ومساجده في الجزائر، بل اعتمدوا أيضًا على وسائل أخرى وخطيرة تتمثل في التفرقة بين الأهالي.

---

1 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 113.

2 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري، مرجع سابق، ص 56.

3 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري، مرجع سابق، ص 57.

4 – د. الحبيب الجنحاني، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي بتيزي وزو، مرجع سابق، ص 1067.

## ثانيًا – سياسة التفرقة بين الأهالي:

يعتقد المبشرون والمستعمرون أن الجزائر تتكون من عنصرين مختلفين من السكان، وذهبوا إلى القول بأن العنصر البربري هو الأصيل. أما العرب فهم "غزاة ودخلاء"[1] ولتحقيق هذا الهدف اعتمدوا على دراسات كثيرة منها التي تتناول وضعية السكان "أثنوغرافيا"[2] و"انثروبولوجيا"[3] وذلك لإظهار الفوارق العرقية والثقافية بين الأهالي.

وتأكيدًا لهذه الفكرة أعلن القساوسة بأن الأقيسة "الانثروبولوجية" تفيد أن الدماغ البربري والدماغ العربي يختلفان[4].

وما إن استقر المستعمرون في الجزائر حتى بدأت الإدارة الفرنسية التعرف على فئات الأهالي. وقد كان الغرض من ذلك معرفة نفسياتهم، ومجابهة ردود فعلهم، وتطبيق سياسة "فرق تسد" التي عرفت بها منذ القديم. وذلك بخلق النعرات الجهوية، وإثارة الروح الإقليمية، وتشجيع النزعة القبلية، وزرع الخلاف بينهم، وخاصة المناطق التي تتحدث باللهجة المحلية (البربرية). حتى يسهل عليها فصلها عن الوطن الجزائري.

هكذا توافد على الجزائر عدد كبير من الرحالين والمبشرين الذين تخصصوا في دراسة عادات وتقاليد السكان بمختلف مناطقهم، وخاصة منطقة القبائل الكبرى[5] والشاوية.

---

1 – ساطع الحصري: حوليات الثقافة العربية، دار الرياض للطبع والنشر، 1951، ص 476.

2 – أصبحت ظاهرة استعمارية حيث استعملها في القرن 9 لتبرير وجوده في الجزائر بقصد تهذيب وتمدين القبائل والأهالي المتخلفين عن الركب الحضاري.

3 – علم يهتم بدراسة الإنسان وطرق معيشته وعاداته وتقاليده.

4 – عثمان الكعاك، التبشير والتخطيط التبشيري، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، بتيزي وزو، مرجع سابق، ص 1145.

5 – DAUMAS Le Général, Etudes historiques, T 1, Paris, 1847, p. 77.

ومن هؤلاء الذين اهتموا بدراسة المنطقة، القسيس "دوقا" اعتقادًا منه أن الديانة المسيحية قادرة على تنصير وفرنسة منطقة القبائل[1]. وقد نقل لنا في هذا المعنى بعض الباحثين بعض ما صرح به الأب "دوفوكو" «إنّ سكان إمبراطوريتنا الإفريقية على أنواع مختلفة منهم البربر وهم أقرب الناس إلينا ومنهم العرب وهم أقل استعدادا للتقدم». وقال معلقًا على تأسيس مدرسة (فرنسية): لاشك أن هذه المدرسة لن يدخلها إلا عدد قليل من الأطفال العرب، لكن الأطفال البرابرة الذين ينحدرون من سلالة طيبة (المسيحية) وهم على كامل الاستعداد للتأثر بالفكرة اللاتينية التي عرفوها من قبل سيدخلونها كلهم»[2]. هكذا كانت تعتقد الإدارة الفرنسية أن عزل هؤلاء السكان عن غيرهم يسهل عليها فرنستهم وتنصيرهم. وبالتالي إيهامهم بأنهم من أصحاب البلاد الأصليين، وقد استعمرهم العرب وفرضوا عليهم لغتهم وإسلامهم.

قال أحد الباحثين في هذا المعنى « زعم رجال الحكم وصناديد الاستعمار أن البربر لم يكونوا مسلمين تمامًا، ولذلك لم يكن من العسير تفريقهم عن العرب، ثمّ استمالتهم إلى فرنسا»[3] وتفننا في أساليب التفرقة أحدثت الإدارة الفرنسية قناة إذاعية للبث باللغة البربرية، وبلهجة معينة وهي لهجة منطقة القبائل. هذه المنطقة التي كان يراهن الاستعمار على أنها ستتفرنس يوما وتنطلق منها الفرنسية. وقد أولاها اهتمامًا خاصًا دون المناطق الأخرى التي توجد فيها أقليات تتحدث باللهجة البربريّة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه المنطقة أكثر من غيرها تحصنًا بالإسلام والقرآن الذي وقف أمام كل المحاولات الرامية إلي التنصير والفرنسة والإدماج.

---

1 – Idem, p. 77.

2 – عز الدين العراقي: مجلة البينة، العدد 8، السنة 1، ديسمبر 1962، ص 55، 66.

3 – ساطع الحصري، حوليات الثقافة العربية، مرجع سابق، ص 476.

وقد أكد أحد الباحثين الفرنسيين هذه الفكرة فقال: « لو حصل ذلك، لكان من قبيل تجاهل الحقيقة، وتناسى هذه المدارس القرآنية الموجودة في عدد من القرى، والزوايا الكبيرة القائمة بها»[1].

والدليل على سوء نية المبشرين بخصوص نشر التفرقة بين الأهالي، هو تلك الموجات العنيفة من الدراسات التي قام بها بعضهم من أجل إحياء اللهجات العامية (البربرية) وذلك بتشجيع الإدارة الفرنسية.

وفي سنة 1885[2] تأسست كلية الآداب في الجزائر، وخصصت فرعًا لدراسة اللهجات المحلية، ومنها اللهجة البربرية. وأسندت أعماله إلى شخص عرف بولائه للإدارة الفرنسية يسمى "الهاشمي بن سي لونيس" كما أنها خصصت منحا تشجيعية للمتفوقين فيها كانت تتراوح ما بين 300 و500 فرنك في ذلك الوقت.

وبعد ذلك نشط عدد كبير من المستشرقين في نفس الاتجاه نذكر منهم الأستاذ "لنري بيريس" الذي كان يدرس بكلية الآداب "بجامعة الجزائر" في وضع الكتيبات المدرسية باللهجات العامية الجزائرية وهي عبارة عن خليط من البربرية والعربية والتركية والفرنسية[3]. وادّعوا أن لها أدبًا وشعرا ومسرحا وقصصا وفصاحة، وبلاغة، وبيانًا[4].

وقد وصف أحد الكتاب الجزائريين الذي لم يذكر اسمه. هذه اللغة الجديدة التي أوجدها المبشرون بقوله: « رطانة غريبة، وخليط من اللغة، لا هو عربي ولا هو

---

1 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France, T 1, op.cit., p. 279.

2 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 142 - 144.

3 – د. أحمد بن النعمان: كيف صمدت لغة القرآن في وجه الاستعمار في الجزائر، جريدة العصر، العدد 23، السنة 1، 7 ديسمبر 1981، ص 4.

4 – انظر: د. نفوسة سعد، تاريخ الدعوة إلى العامية، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 9.

بربري، ولا فرنسي، وإنما هو مزيج من اللغة العربية والبربرية والفرنسية والعربية من أقل الثلاثة مع ما هي عليه من التكسير والاختزال»[1].

هكذا يعمل المبشرون والمستشرقون على خلق نوع من المعارضة بين اللغة العربية الفصحى وبين اللهجة المحلية. وكان الاهتمام في كل ذلك بالبربرية، من ناحية وبتضعيف اللغة العربية من ناحية أخرى.

ولعل أصدق مثال على ذلك ما حدث لطفل قبائلي كان متجولا في إحدى قرى[2] منطقة القبائل الكبرى. فقد لقي أحد القساوسة. فسلّم عليه باللغة الفرنسية. فرد عليه القسيس بقوله: «لا تسلم علي بلغة ليست لغتك، بل سلّم علي بالقبائلية»[3] وقد كان الهدف من ذلك تشتيت السكان، وتعميق جذور الخلاف في نفوس الصغار، وخلق الهوة السحيقة بينهم، في لسانهم الموحد الذي هو اللغة العربية. ولولا أن اللغة العربية هي لغة القرآن، ولغة الدين والحضارة الإسلامية لتحقق لأعدائها ما كانوا يرمون إليه من وراء نشاطهم المحموم، في الدعوة إلى إحياء البربرية.

وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على تخوفهم من أن المسلمين إذا اتّحدوا سيكونون خطرًا على الوجود الفرنسي في الجزائر. يقول القسيس "لورانس براون" في هذا المعنى: « إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية واحدة أمكن أن يصبحوا نقمة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا. أما إذا بقوا متفرقين فإنّهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير »[4].

---

1 – جريدة العصر، مرجع سابق، ص 4.

2 – تدعى هذه القرية "بتاباروت" وتوجد على الطريق العام الرابط بين تيزي وزو وعكورة ناحية عزازقة القبائل الكبرى.

3 – الشهاب، الجزء الخامس، المجلد الخامس، جوان 1929، ص 15.

4 – د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط 1، ب.ت، ص 415.

وقد كان أشد ما يخشاه الاستعمار في الجزائر أن يتم اللقاء بين البربر والعرب، فتتم الوحدة التي تقاوم الاستعمار، ولذلك فلا بدّ من العمل على تكسير هذه الشوكة وإضعافها.

وتهدف هذه السياسة إلى إحياء البربرية في إفريقيا على غرار ما فعلت في مصر عندما عملت على إحياء الفرعونية، اعتقادًا منها أن البربر هم وحدهم أصحاب المدنية في شمال إفريقيا، والطعن في العرب والتفقير من حياة المسلمين لأنها حياة بدائية[1].

إنّ القول بوحدانية الحضارة للبربر كما يدعي المبشرون لا أساس له من الصحة ذلك أن الكتب التاريخية تبين بوضوح وبما لا يدع مجالا للشك في أن البربر ليسوا وحدهم الذين أقاموا مدنية المغرب العربي. بل شاركهم العرب بواسطة الفتوحات الإسلامية التي تعتبر بحق عهدًا جديدًا للعالم الإسلامي كله، وأن البرابر كالعرب مسلمون. بدليل أن كثيرا من أصوله الأولى التي منها ما يعود إلى الفتح الإسلامي حين ابتدأ الاختلاط بين الأمازيغ الأصليين وبين العرب الوافدين[2].

الواقع أن الحضارة البربرية اختلطت بحضارات أخرى منها الحضارة الفنيقية والرومانية، والإسلامية. ونذكر أيضًا قيادة "طارق بن زياد" الذي كان من أصل "بربر" وقاد الجيوش الإسلامية لفتح الأندلس.

---

1 – د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط 6، مزيدة ومنقحة، بيروت، 1973، ص 508.

2 – د. عبد المالك مرتاض، مقال بعنوان: "أصالة الشخصية الجزائرية"، الأصالة، العدد 8، السنة 2، ماي جوان 1976، ص 22.

ومن دعاة سياسة التفرقة في منطقة القبائل السيد "صابتين"[1] الذي أحدث خلافًا بين زعماء القرى "الأمناء" قصد تفرقتهم، وصرف عنايتهم واهتمامهم بدل الاهتمام بقضاياهم الوطنية. حتى ينشغلوا عن مقاومة الإدارة الفرنسية[2].

لأن الوجود الفرنسي في نظره هو الذي يضمن لهم العيش في أمن وسلام. ومن المشجعين أيضًا على تطبيق سياسة التفرقة بين العرب والبربر وحتى بين البربر أنفسهم، الصحفي الفرنسي سيرفيي SERVIER، بواسطة جريدته La dépeche de Constantine وقد دعا فيها إلى التفرقة إلى أقصى الحدود، وشجع الآباء البيض في عملهم[3].

هكذا نشطت الجماعات التبشيرية بالدعم من فرنسا في زرع بذور الشك، والكراهية في نفوس السكان ووسطهم على غرار ما قامت به "عبن طاب" حيث أيقظت الفتنة والكراهية بين السكان مما أدى إلى إيقاد ثورة اقتحمها ما يقرب من عشرين ألف من الأهالي[4].

بهذه الصورة راحت هذه الجماعات التبشيرية تنشر سياسة التفرقة "فرق تسد"، واستعملت الفكرة البربرية ضد العرب، وأخذت تؤلب البربر ضد العرب بهذه النزعة العنصرية لينفصل القبائل عن دينهم ويدخلوا المسيحية. ومن أبرز الشخصيات التي سعت هذا المسعى، وتبنت الفكرة البربرية في الجزائر بعد الأب دوفوكو – المدعو باليهود المتجول – "ماسينيون".

---

1 – قاضي فرنسي تولى شؤون ناحية تيزي وزو الإدارية وقد أصبح فيما بعد مستشارا سياسيا للوالي العام (لافيرار) وأكد سنة 1818 على ضرورة احترام بعض التقاليد المحلية عملا بسياسة فرق تسد التي اشتهر بها.

2 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, op.cit., p. 141 - 142.

3 – Idem, p. 150.

4 – مجلة الشهاب، الجزء الخامس، المجلد السادس، جويلية 1929، ص 1 – 13

ومما يدل على ذلك، الرسالة التي توجه بها لرجال الدين المسيحي بتاريخ 9 مارس 1951[1]، حيث تعرض فيها لكيفية ظهور السياسة البربرية وبيّن ارتباطها – منذ البداية – بالحملة التبشيرية.

وعملا بوصية "الأب دوفوكو" كرّس "ماسينيون" حياته خدمة لهذه السياسة الهادفة إلى إلغاء اللغة العربية والإسلام في شمال إفريقيا لفائدة اللغة الفرنسية والمسيحية وتحقيقًا لهذا الهدف ألح على ضرورة إحياء البدائية البربرية، اعتقادًا منه أن ذلك يسهّل له إدماج منطقة القبائل في إطار فرنسي مسيحي، وفي لغة أحسن من لغتهم، ودين احسن من دينهم[2]. وأصدق دليل على هذه النوايا السيئة لرجال التبشير المسيحي ما حدث في لبنان وجنوب السودان، بحيث كان المسلمون متغافلين عن هذه الحركات التبشيرية حتّى أصبحت مشكلة كبرى أدت إلى اضطرابات خطيرة في السودان[3].

وعلى هذه السياسة مضت فرنسا في الجزائر، تشجع سياسة التفرقة، فكان التعليم الفرنسي في الجزائر، فكان الظهير البربري في المغرب الأقصى، 16 ماي 1936، وكادت الفتنة أن تتقد لولا أن انقلبت الآية فكان البربر من أشد أنصار الإسلام في كامل أقطار المغرب الإسلامي، بالقلم والصحافة وفي الجهاد بدون فرق ولا تمييز بين مواطن عربي ومواطن بربري.

ولعل أصدق حجة على هذا التلاحم بين البربري والعربي الثورة الجزائرية 1954، ففيها التقى المجاهدون من مختلف أنحاء الوطن الجزائري. فمنهم الوهراني والقبائلي والقسنطيني. فكانوا وحدة متماسكة أمام سياسة الغزو الفرنسي للجزائر.

ومما ساعد على تعميق سياسة "فرق تسد" بين الأهالي تضافر جهود المبشرين ودعاة البعض للكيان القبائلي.

---

1 – JULIEN Ch. André, Le Maroc face aux impérialismes, Paris, 1978, p. 158 et sq.

2 – Idem, p. 158 et sq.

3 – د. عمار الطالبي، ندوة الأصالة، العدد 16، السنة 3، 1976، ص 123.

### ثالثًا – محاولة إبراز الكيان القبائلي:

حاول المبشرون أن يثبتوا أن هناك كيانًا قبائليًا منفصلا ومتميزًا ومستقلاً عن باقي السكان لهدف التنصير، وذلك حتى تخلق لنفسها مجتمعًا خاصًا يخدم المصالح الفرنسية وأغراضها السياسية في الجزائر.

ومن دعاة هذه السياسة في الجزائر الدكتور وانيه[1] الذي حاول أن يفرض سياسة نابليون الداعية إلى إقامة المملكة المغربية، وذلك بخلق الكيان القبائلي، اعتقادًا منه أن سكان القبائل بربر لهم أصل وماضي وحضارة قريبة جدا من حضارة الفرنسيين، يمكن إدماجهم في المجتمع الفرنسي[2].

بهذه السياسة حاول الاستعمار الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر سنة 1830أن يمزق شمل الوحدة الوطنية للشعب الجزائري، وذلك بإحياء العصبية الأمازيغية التي حاربها الإسلام، معتقدًا أن البربر من أحسن الناس إسلامًا وعروبةً لهم كيانهم الخاص، ولغتهم الخاصة، وأغراضهم التي تختلف عن كيان ولغة وأعراف بقية الجزائريين[3].

وللوصول إلى هذه الأهداف أخذت الإدارة الفرنسية تنشر نظريات جديدة بين السكان، تتمثل في إطلاق صفات خاصة عليهم كالتسامح الديني، وحب العمل، والتفتح الفكري. وإن سكان المنطقة اكثر الناس استعدادًا من البدو لقبول الحضارة الغربية لأنهم لا ينقصهم الشغف بالعلم، ولا الاهتمام بالثقافة الأوروبية. ثمّ إنهم يعرفون بالعمل والمبادرة والإقدام والاقتصاد وحسن التدبير[4].

---

1 – يعتبر أحد السياسيين الذين نادوا بتنصير القبائل بعد ما شك في إسلامهم، فقال: « ... وربّما هم مسلمون ولكنهم يحملون وشامًا على كل صليب فوق الجبهة، وعلى الوجنتين، وبربر جرجرة يبدون استعدادًا حسنًا للرجوع إلى المسيحية.

2 – WARNIER, L'Algérie devant l'Empereur, paris, 1865, p. 15.

3 – د. تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، ب.ت، ص 20.

4 – هاينريش فونا مالتسان: ثلاث سنوات في شمال إفريقيا، ترجمة د. أبو العيد دودو، ج 1، الجزائر، ب.ت، ص 77، 78.

وانطلاقا من هذه المناورات الفرنسية القائمة على التفرقة يمكن القول بأن لفرنسا سياسة خاصة حاولت أن تطبقها في منطقة القبائل طيلة عهد الاحتلال[1].

هكذا يعتقد المبشرون أن هذه الصفات ستقربهم من الفرنسيين، وتجعلهم يتفوقون على باقي السكان العرب الذين وصفوهم بالتأخر والكسل. وقد أكد السيد "فابار"[2] في مؤلفه "القبائل الكبرى" أسلوب معيشتهم الذي كان يعتمد على اتحاد القبائل البربرية، ديمقراطيتهم واحترام تقاليدهم السابقة "الكانون" التي لا تتعارض مع القوانين الوضعية الفرنسية. أما العرب فكانوا يصفونهم بالكسل والبطء والتزمت فهم لا يهمهم أن تصلح أمورهم أو تبقى على ما هي عليه[3].

انطلاقًا من هذا المفهوم يمكن القول بأن السياسة الفرنسية، وإن اختلفت في الوسائل فإنّها تؤكد وتلح على ضرورة دمج البربر في الإطار الفرنسي، لتدعيم سياستها في الجزائر. ويضاف إلى ذلك محاولة المبشرين والمستعمرين تدعيم آراءهم بالقول بوجود آثار تاريخية وبقايا مسيحية في المنطقة.

**رابعًا – الاعتماد على الآثار التاريخية:**

لكي يتحقق مطمع الراغبين في تنصير وفرنسة سكان منطقة القبائل، راحوا يستشهدون ببعض الآثار التاريخية التي يقول عنها القسيس "دوفا" بأنها من بقايا مسيحية[4]. منها "الوشام" ذو الشكل الصليبي الذي يوجد على جبهات النساء وأيديهن، وعلى مداخل البيوت. وقد ذهب المبشرون إلى القول بوجود قرية قرب "جامع الصهاريج" تدعى أمصلوب أي المسيح. ويعتقد "دوفان" أن سكانها لا يزالون يحتفظون بالديانة المسيحية.

---

1 – انظر: مقال أجرون، بعنوان: "هل لفرنسا سياسة قبائلية؟"، المجلة التاريخية، أفريل جوان 1960، ص 311، 552.

2 – قائد فرنسي وصاحب المؤلف الكبير بعنوان: "القبائل الكبرى".

3 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, op.cit., p. 138 - 140.

4 – DAUGAS Le Père, La Kabylie et le peuple Kabyle, Paris, p. 89.

وقد صرّح الجنرال "دوماس" بهذا الشأن فقال: « كلما حفرنا هذا الجذع القديم وجدنا تحت قشلته الأصول المسيحية وبهذا نصل إلى أن سكان القبائل جرمانيو الأصل عرفوا المسيحية قديمًا وقد قبلوا القرآن ولكن لم يعملوا به[1].

ونفس الفكرة نجدها عند لويس برتران فيما سمّاه "بنظرية الرومنة" ذلك أن العرق البربري في تصوره روماني حضارة وثقافة[2]. وإنّ القبيلة البربرية تنحدر من المدينة الرومانية، وهي مستعدة لتقبل المسيحية والتآلف مع فرنسا[3].

وعلى هذا الأساس بدأ الاستعمار يبحث عن الآثار القديمة، ويشيد المتاحف التي تزخر بكل ما هو ضد الإسلام والحضارة الإسلامية. وكذا بناء الكنائس، وتشجيع المبشرين بكل الإمكانيات، معتقدًا أن في ذلك بعثًا لإفريقيا اللاتينية.

إن المستعمر حتّى يبرر وجوده يعتمد على التاريخ ليجعله في صالحه، مما اضطر معه إلى تزييفه بحيث هزم مصالحه وأهدافه. وفضلا عن كون القبيلة البربرية رومانية حاول المستعمر استنادًا إلى التاريخ إثبات حتّى أن العلاقات بين إفريقيا وأوروبا كانت حسنة ووطيدة.

ومن أقطاب هذه النزعة السيد "لويس برتران" الذي أعطى أهمية خاصة للآثار التي سخّرها لخدمة أفكاره في إفريقيا[4]. وقد تبنت هذه الفكرة خلال[5] الثلاثينات جمعيات كثيرة نذكر منها، "جمعية معلمي أهالي الجزائر" و"رابطة الفرنسيين" و"الجمعية الكاثوليكية". ولهذه الجمعيات مجلات باللغة الفرنسية، كمجلة "صوت البسطاء" La voix des humbles للسيد "فاسي" و"صوت الأهالي" La voix indigène للسيد "ربيع

---

1 – DAUMAS Le Général, op.cit., p. 77.

2 – MERRAD A., op.cit, p. 357.

3 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 138.

4 – BELAMRI R., op.cit, p. 239.

5 – MERRAD A., op.cit, p. 357.

زناتي" "R. ZENATI" و"صوت المتجنس" للسيد "جوزيف زنتار". وكانت تـدافع بـدون هوادة من سنة 1929 إلى 1942 عن سياسة الإدماج وقيم المدرسة الفرنسية[1].

هكذا تحاول بعض الكتابات التاريخية الفرنسية التـي ظهـرت خـلال الاسـتعمار الفرنسي تضخيم انتشار الآثار التاريخية التي كانت محل اهتمام المبشرين بهـدف تقريـر السياسة الرومانية في المنطقة.

الواقع أن هذه الآراء القائلة بأن السكان من بقايا مسيحية كما يزعم المبشـرون ودعاة التنصير، فيها غلو ومبالغة، إن لم نقل إجحاف للحقيقة، ذلـك أن البرابـر لـم يكونوا يومًا من الأيام مسيحيين كلهم، إنّما اعتنق منهم المسيحية عدد قليل، ولأغراض سياسية واقتصادية، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإنّ المؤرخين أنفسهم لـم يتفقـوا على تحديد أصل هؤلاء السكان، وتقول بعض الروايات أن أصلهم شرقي، قدموا مـن اليمن إلى شمال إفريقيا في أحقاب متعاقبة من التاريخ القديم.

ومما يزيد الفكرة وضوحًا تأكيد المبشرين والمستشرقين أنفسهم، ومـن هـؤلاء "هانوتو" و"لوتورونو" اللذين ينكران مسيحية القبائل، ويستندان في ذلك على عدم وجود آثار لأسقفية تثبت اعتناق السكان للمسيحية قديمًا. ويريان أنه إذا كان ذلـك صـحيحا، فلماذا فلم يعد السكان إلى ديانتهم القديمة؟[2]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخـرى فـإنّ الاستشهادات الأثرية التي قال بها المبشرون لا أساس لها من الصـحة، لأن الوشـام المدعو من اصل مسيحي تستعمله نساء كثيرات من القطر الجزائري للزينـة، وفـي مناسبات خاصة كالزواج والاختتان. وما إلى ذلك من المناسبات الدينية المعروفة عنـد السكان، دون ما قصد أو غرض ديني. يقول "هانوتو" و"لوتورنـو" أيضـا ردًا علـى استعمال الوشم حجة للتدليل على مدى انتشار المسيحية في المنطقة ما يلي: « إنّ حجة الوشم على هيئة الصليب تبدو لنا حجة واهية، ونحـن نكـون أقـرب مـن الحقيقـة

---

1 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 318 - 319.

2 – HANNOTEAU et Le TOURNEAUX, La grande Kabylie et les coutumes Kabyles, T 1, Paris, 1871, p. 312.

والصواب عندما نرجع ذلك إلى حذلقة الفنانين »[1] ثمّ أن هذه الأشكال، من الأشكال الهندسية التي تزين بها زرابى وسجادات أغلب مناطق القطر الجزائري. وبالتالي فإنّ هذا الوشام لم يكن خاصًا بالجزائريين وحدهم، فهو موجود حتّى في المشرق العربي.

ثمّ أنه إذا كان رمزًا دينيًا عند القسيس "دوقا" فلماذا لم يستعمله المسيحيون الأوروبيون أنفسهم؟.

ولذلك يمكن القول بأن هذه الدعاوى ما هي إلا وسيلة لخدمة أهداف استعمارية خاصة بوحدة المنطقة بعد الاحتلال.

ثمّ إنّ الشيء الذي يجذب الاهتمام ويلفت النظر أكثر، ونحن بصدد الحديث عن الحركة التبشيرية وأهدافها، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية، هذه السياسة التي كانت ثقافتنا هدنا لها. لم تتغير قيد أنملة ولم تقتصر على المواقف النظرية – كما أشرت – بل امتدت لتشمل الناحية العملية.

وقد تجسدت في الواقع الحي حين اقبل المبشرون إلى إنشاء شبكة من المدارس للأطفال العرب والمسيحيين، والملاجئ، والمستوصفات، وتقديم المساعدات لليتامى والعجزة لكسب الرفق وترقية القلوب. ذلك ما سأتعرض له فيما يلي مبرزًا هذه الخطة ووسائلها.

**الناحية العملية**

بعد أن استعرضت الناحية النظرية لحركة التبشير المسيحي، وبينت أهم الآراء والأفكار التي حاول المبشرون والقادة السياسيون التسلل من خلالها أو بالأحرى تهيئة الجو المناسب الذي ينطلق منه العمل التبشيري من أجل التنصير والفرنسة. أحاول الآن أن ابرز الناحية العملية لهذه الحركة مبينًا الوسائل التي اعتمدوها لتحقيق الغرض الذي خططوا له منذ الاحتلال.

---

1 – نقلاً عن محمد إبراهيمي الميلي: الجزائر في ضوء التاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، 1980، ص 194.

يلاحظ من خلال التحليل السابق أن اهتمامات المبشرين والعسكريين بمنطقة القبائل كانت قوية ومتضاربة، ويمكن تلخيص هذه الاهتمامات في فترتين هامتين وهما:

1 – فترة ما قبل 1857 وهي السنة التي تمّ فيها احتلال المنطقة رسميًا بقيادة الجنرال "راندون" وتستمر حتّى 1860.

2 – الفترة الثانية: تبدأ من 1860 إلى 1870. ومن جملة القادة العسكريين الذين اهتموا بدراسة عادات وتقاليد سكان منطقة القبائل قبل الاحتلال الجنرال "دوماس"(1).

وفي هذا الإطار بدأ النشاط التبشيري للمسيحيين في منطقة القبائل بتعيين الأسقف "بافي" "PAVIE" على رأس الكنيسة بالجزائر وبتشجيع منه ثمّ إرسال القسيس "كروزات" إلى منطقة القبائل سنة 1863 كقسيس بكنيسة صغيرة بحصن نابليون "فورناسيونال حاليًا" وذلك لهدف تنصير سكانها[2]. وقد شرع القسيس كروزات في نشاطه التبشيري بحذق اللهجة المحلية (القبائلية)، والتعرف على عادات وتقاليد سكانها لغرض الاتصال بهم، والتغلغل في أوساطهم، كما أنه كان يجيد اللغة العربية الفصحى، عملا بقوانين "جمعية الآباء البيض" التي أسسها "لافيجري"[3] سنة 1872. وكان من جملة ما يمتاز بها أفرادها الثقافة الواسعة فضلا عن العلوم الإسلامية والفلسفة، واللغة الأجنبية والرحلات. وأخيرًا التزيي بالزي العربي الإسلامي[4]. وللنفاذ إلى قلوب السكان أظهروا نشاطًا فائقًا في ميادين كثيرة ومختلفة كالأعمال الخيرية والتعليم والتطبيب.

---

1 – DAUMAS Le Général, op.cit., p. 491.

2 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 109.

3 – لافيجري (1825 – 1894) أب التبشير في إفريقيا كلها، أسس جمعية الآباء البيض في 1872 وجعل مركزها بالحراش قرب الجزائر العاصمة، كما أسس جمعية الأجزاب في 1869 وبعث البعوث التبشيرية إلى إفريقيا السوداء. وفي سنة 1867 عين رئيسًا للأساقفة في الجزائر، وعين رئيسا أعلى لكنيسة إفريقيا سنة 1873 وارتقى كاردينال في 1882.

4 – المهد البوعبدلي: آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال وبعده، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي بتيزي وزو، مرجع سابق، ص 1342.

· التبشير ووسائله:

1 – الأعمال الخيرية: وقد استغل القسيس كروزات الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة للسكان بسبب الفقر واحتلال المنطقة من طرف الاستعمار الفرنسي. فوزّع عليهم الملابس، وبعض المواد الغذائية كالسكر والقهوة، وقدّم لهم الإرشادات الدينية[1].

وقد وجد رجال الدين المسيحي في ذلك فرصة مواتية لمحاولة تنصير بعض السكان بتقديم فتات الخبز لهم، وهذا يدل على أن هذا العمل الخيري لا يخلو من أغراض إيديولوجية، ولذلك فالقول بأن هذه الخدمات الاجتماعية والثقافية لا صلة لها بالدين وبالاتجاه الإيديولوجي غير صحيح، وذلك نظرا لما لها من التأثير في النفوس وفي الاتجاه.

وتعتمد هذه الطريقة على فقر بعض السكان لتقدم لهم بعض المساعدات. ويدخل نشاط القسيس "كروزات" في هذا النطاق بدءًا "ببني يني" وبني جناد[2].

وبعد أن مهد هذا القسيس لرسالته التبشيرية أخذ يحدث السكان عن الديانة المسيحية، وقد ركز جهوده على قرية "بني فرّاج" التي نزل بها أول الأمر لاعتقاده أن ما قدّمه من أعمال خيرية قد مهدت للعمل التبشيري. وتصور أنه نجح في جلب سكانها واستمالتهم إلى الديانة المسيحية[3].

وقد جاء يومًا إلى القرية ليلقي دروسه الدينية كعادته فوضع له حد بسبب مواجهة ومقاومة غير متوقعة من طرف السكان، مما أدى إلى فشل الحركة، وذلك باعتراف الحاكم الفرنسي "هانوتو" "HANNOTEAU" الذي ذكر في تقريره أن عمل هذا القسيس تسبب في اضطراب الوضع في المنطقة التي كان يعمل بها.

---

1 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 109.

2 – المرجع السابق، ص 109.

3 – ELIE George, La Kabylie du Djurdjura et les pères blancs, Paris, 1921, p. 28.

وقد كان رد فعل السكان تجاه هذا العمل عنيفًا، الأمر الذي أدى إلى قلق السلطة العسكرية التي قررت إبعاد القسيس "كروزات" عن المنطقة[1] خوفًا من الانتفاضات الشعبية.لكن رغم المقاومة، وردود الفعل فإن "كروزات" لم يفشل، بل كان مصرًا على مواصلة عمله التبشيري في مكان آخر معتقدًا بأن المعارضة لم تكن شاملة، وإنّما كانت من طرف أقلية قليلة من الناس الأميين.

لكن هذا الكلام غير صحيح، ومما يدل على ذلك أن أحد مشايخ قرية "بني فرّاح" وهو "الحاج لونيس نايت علي عمر" بيّن أن الرفض كان عامًا وشاملا.

فقد جمع السكان وسألهم قائلا: « هل ترغبون في اعتناق الديانة المسيحية؟ وهل تسمحون لهذا القسيس بالبقاء بينكم؟. ولم يلبث الحاضرون حتّى أجابوا بكلمة واحدة: أننا لن نترك ديننا أبدًا ولو أجبرتنا السلطة على مغادرة البلاد. وإذا لم نجد لذلك سبيلا فضلنا الموت بدل اعتناق المسيحية»[2] وأمام هذا الموقف المتصلب للسكان انتقل القسيس كروزات إلى ناحية "بني يني" البعيدة ليواصل العمل بها. وهناك قرر إنشاء مركز ديني للقيام بالأعمال الطبية[3].

هكذا غيّر القسيس خطته بعد فشله في التبشير المباشر إلى التبشير غير المباشر بواسطة التطبيب. غير أن سكان قرية "بني يني" هم الآخرون أعلنوا رفضهم لأعمال هذا القسيس. فحذّر أحد مشايخ القرية القسيس "كروزات" قائلا: « إنّ البلاد لن تعرف هدوءًا في حالة ما إذا حل بها رجال الدين المسيحي»[4].

---

1 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 111.

2 – المرجع السابق، ص 111.

3 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها. انظر: أيضًا محفوظ قداش، مقال بعنوان انتفاضة 1871 قوة شعب بحركة الإيمان، الأصالة، العدد 1، السنة 1، مارس 1971، ص 20.

4 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها، نقلا عن أ.ر.ب.ف 80. 1746، عن منشور سري رقم 22 من الجنرال ماكمهون إلى القادة العسكريين بالجزائر.

وأخيرًا فإنّ النتيجة التي آلت إليها جهود هذا القسيس، على الرغم من المدة الطويلة التي قضاها في النشاط التبشيري المسيحي، هي الفشل، والخيبة، والنفور من السكان، مما جعل بعضهم يستخفون بهذا القسيس وبأعماله.

ويبدو أنه لم يفهم الأمر، وقد أساء إلى نفسه وإلى رسالته، وذلك عندما صرّح بغرضه التبشيري متحديًا شعور السكان، فامتنع عدد منهم عن زيارة مركزه الطبي وخاصة النساء اللائي أخبرن بقية المواطنين أن هذا القسيس حاول تنصيرهن.

وبعد ذلك تنبه القسيس وغيره من المسيحيين أن هذه الطريقة الصريحة المكشوفة لا ترضي السكان، وقد تنجر عنها نتائج خطيرة. وقد اعترف بفشل هذه السياسة "ليون روشي"[1] بقوله: «لم أعرف خلال إقامتي الطويلة بمختلف البلدان الإفريقية مسلمًا واحدًا اعتنق بإخلاص المذهب الكاثوليكي»[2]. ولعل فشل القسيس في العمل التبشيري في منطقة القبائل – كما سأبين ذلك فيما بعد – بكيفية اكثر توضيحًا كان أحد العوامل الهامة التي جعلت "لافيجري"[3] يبحث عن وسائل أخرى للتبشير بها، وذلك لاهتمامه الشديد بتنصير هذه المنطقة.

وقد كانت منطقة القبائل من أهم المناطق التي ركز عليها "لافيجري" جهوده وذلك لعدة أسباب نذكر منها: فقر المنطقة اقتصاديًا وعزلتها، وبعدها عن المدن الأوروبية[4]، وتشجيع "الأميرال ديغيدون" للتبشير بها. ورغم تخوف الحكام العسكريين المحليين الذي قوبل به، فإنّه أصر على مواصلة المهمة التي بدأها "القسيس كروزات" فغيّر "لافيجري" الطريقة في التبشير.

---

1 – كان قنصلا عند الأمير عبد القادر الجزائري، وأظهر الإسلام ثمّ ارتد، له كتاب (33) سنة في أرض الإسلام.

2 – الأستاذ عبد الجليل التميمي: دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس، مجلة الصالة، عدد 30، محرم، صفر 1396 هـ/جانفي فيفري 1976م، ص 50.

3 – يرى أن معرفة لغة السكان شرط ضروري للتعرف على السكان والتغلغل في أوساطهم.

4 – TIQUET J., Une expérience des petites colonisations, Les colons chrétiens du Cardinal Lavigerie, Alger, 1936, p. 165 - 167.

وقد اتصل بالإمبراطور "نابليون" الثالث ليساعده على فتح مراكز تبشيرية جديدة بالمنطقة للقيام بأعمال خيرية مقررًا أن يتحمل تكاليفها من حسابه الخاص[1]. ولـذلك وضع مشروعًا يتلخص في نقاط نذكر منها:

1 – التنصير الجماعي لا الفردي، ويعني ذلك العمل على تنصير القرية بأكملها. وتمهيدًا لذلك حاول القضاء على ما سماه بالتعصب الديني الذي تتميز به هذه المنطقة حتّى يتمكن من مواصلة مساعيه التبشيرية التي تحمل عبأها في الجزائر.

2 – معرفة الأديان وتاريخ الشعوب حتى يتمكن المبشرون من بث الدعاية بين السكان.

3 – الاهتمام بالدراسات النفسية لغرض التعرف على نفسية السكان حتّى يستطيعوا التسلل، وينجحوا في ترضية الأهالي باللين واللطافة.

4 – الاعتماد على مختلف الوسائل للاتصال بالسكان لينبثوا من خلالها في وسطهم[2].

هكذا توصل المبشرون إلى أسلوب جديد، وهو في اعتقادهم يضمن لهم الوصول إلى أهدافهم، وأغراضهم وهي التنصير والفرنسة. ولكسب ثقة السكان أوصى لا فيجري المبشرين بأن يتظاهروا بمظهر التدين حتّى يكسبوا الاحترام.

وقد كان المسيحي في نظر السكان إنسانًا كافرًا يحمل عقيدة غير عقيدتهم، ولذلك يجب الحذر منه. كما أوصاهم بإظهار المحبة للسكان ليتمكنوا من نفوسهم. وكان يرى أن أحسن وسيلة لجلبهم هي فتح المدارس لأطفالهم[3].

هكذا توالت الإرساليات التبشيرية الأخرى فيما بعد إلى بعض القرى من المنطقة نذكر منها قرية "تاوريرت عبد الله" (في واضية) لتتمم ما بدأه لافيجري فعارضها السكان

---

1 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 114.

2 – لو شاتلييه: الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب بمساعدة اليافي، ط 1، القاهرة، 1387هـ، ص 63.

3 – TIQUET J., op.cit., p. 167 - 168.

كما فعل غيرهم. لكن رغم ذلك حاول هؤلاء المبشرون أن يتظاهروا بالسلم والتعايش، ومساعدة الفقراء ومعالجة المرضى، وتعليم الأطفال، وليس هدفهم فيما يزعمون هو محاربة الدين الإسلامي أو تقاليد السكان[1].

وبعدما ظنوا أنهم نالوا ثقة السكان أخذوا يحدثونهم عن الديانة المسيحية من خلال مشاريعهم الخيرية. وحاولوا كعادتهم أن يستعينوا ببعض السكان في نشاطهم التبشيري عملا بوصية الجنرال "بوتورزون" الذي قال: « لا بدّ لمن يشاء أن يبسط سلطانه على قبائل لا يعرف طبائع أهلها أن يستعين بوسائط يتم اختيارهم من السكان[2].

ولهذا تظاهروا باحترام عادات وتقاليد السكان، وقلدوهم في لباسهم فأطلق عليهم اسم الآباء البيض، فصاروا بذلك يشبهون مشايخ الزوايا والمرابطين إلى حد بعيد.

ومع ذلك كله، وإن اختلفت الوسائل وتباينت فإنّ الهدف واحد، وهو تنصير وفرنسة السكان. وقد أكد هذه الفكرة "الأميرال ديغيدون" فقال: « ينبغي الاعتماد على الأعمال الخيرية، وليس على الخطب. وقد حان الوقت في نهاية الأمر أن نحمل هذا الشعب الذي تغلبنا عليه على قبول الحضارة المسيحية »[3].

وقد ألح الكاردينال لافيجري بان الإحسان واللطف والإخلاص والعدالة المنصفة، وهي الخصال التي فرضتها علينا العقيدة المسيحية، هي القادرة وحدها على إنجاز الأعمال التي فرضت بادئ الأمر عن طريق السيف[4].

---

1 – ELIE C., op.cit., p. 38 - 39.

2 – شارول روبير أجرون، مقال بعنوان: "تطهير الجزائر من الشوائب الاستعمارية"، الأصالة، عدد 15/14، السنة 2، ماي جوان جويلية أوت 1973، ص 84.

3 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France, T 1, op.cit., p. 302.

4 – للأسقف غروسل مايير 25 سنة من الأسقفية في فرنسا وإفريقيا، وثائق بيوغرافية لمعالي الكاردينال لافيجري، الجزائر 1881، ج 1، ص 116، تعريب الأستاذ عبد الجليل التميمي، دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس، ص 51 – 52.

وكان يقول دائمًا: « ساعدوا الفقراء جميعًا وعالجوا جرحاهم، وداووا مرضاهم، إنّكم بذلك تشرّفون عقيدتكم وتخدمون فرنسا المسيحية. ذلك أن طريقتنا لخدمتها والدفاع عنها ليس لجعلها مخيمة ومروعة، بل لجعل الآخرين يحبونها »[1].

وتحقيقًا لهذا الهدف زار "لافيجري" منطقة القبائل التي ارتآها صالحة لتنصير الأطفال من خلال مشاريعه الخيرية، فجمع بين الأيتام ما يزيد عن 1750 طفلا[2] تتراوح أعمارهم ما بين 8 و14 سنة فرباهم في ظل الكنيسة وعلى دين المسيحية.

ويوجد بعضهم في قريتي "سان سيبريان" التي شيدها لافيجري سنة 1872 تخليدًا لأسقف قرطاجة السابق، و"سانتومونيك" تخليدًا لذكرى أم "القديس أوغسطين" بالعطاف[3]. وآخرون بجبال جرجرة[4]، والبعض الآخر وجههم إلى بعض المراكز في فرنسا والحراش بالجزائر العاصمة.

وحتّى ينجح في مهمته هذه طلب من السلطات الفرنسية آنذاك تخصيص ميزانية مالية. وفي الفترة ما بين (1869 – 1874)[5] حصل على منحة قدرها 545.000 فرنك، بالإضافة إلى منح أخرى خاصة بالمبشرين الذين تمّ جمعهم.

في حين يرى الدكتور "وارنية" أنه لا داعي من جمع هؤلاء اليتامى في مراكز خاصة لأن الحل في نظره هو إدماجهم في أوساط المعمرين الفرنسيين[6].

غير أن "لافيجري" عارض هذه الفكرة مدعيًا أن ذلك سيعطل الحركة التبشيرية في الجزائر. وقد كتب عن القرية التي جمع فيها عددا من اليتامى الذين نصرهم قائلا: « إنّ ما نريده هو خاصة ضرب مثل، وفعلا نريد أن نبين ما يمكن أن يرجى يوما ما

---

1 – الأستاذ عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص 60.

2 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France, T 1, op.cit., p. 302.

3 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، مرجع سابق، ص 58.

4 – أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ط 2، الجزائر، 1963، ص 61.

5 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France, T 1, op.cit., p. 302.

6 – Idem, p. 303.

من هذا الجنس الإفريقي الذي هو إلى الحضيض بإنشاء قرى عربية مسيحية في ظل الصليب ولو كان ذلك في ظروف غير ملائمة »[1].

وحتى يتحقق هذا الهدف اشترى "لافيجري" سنة 1877 بعض الأراضي في "تاوريرت عبد الله" (واضية) لتدعيم نشاط المبشرين بها. وفي سنة 1878 شرع في بناء مراكز تبشيرية في الأراضي التي اشتراها[2]. وأقام فيها الأخوات البيض اللائي كان مركزهن الأساسي بسيدتنا إفريقيا Notre dame d'Afrique[3] بالجزائر العاصمة.

ومن نشاطهن في هذا المركز تعليم البنات الخياطة والتطريز، وبعض الأعمال المنزلية الأخرى. وفي 8 ديسمبر سنة 1887 قام لافيجري بتزويج اليتامى الذين بلغوا سن الرشد، وذلك على غرار ما قام به في وادي الشلف[4].

ومما يدل على ذلك ما وقع لبعض الشباب الذين نصّرهم في فرنسا وروما، وأولهم سماه أوبطاط "OPTAT" محمد بن علي، والآخر سماه فرانسوا بن عيسى.

وفي الفترة ما بين 1914 – 1916[5] تمّ عقد ما يقرب من 102 حالة زواج في كنيسة واضية وعلى الطريقة المسيحية. وبهذه الصورة تكونت أول قرية مسيحية في منطقة القبائل.

ويذكر السيد "تيكي – TIQUET" أن عدد المتنصرين في الفترة ما بين (1905 – 1921) قد بلغ 1000 شخص. وهم موزعون على النحو التالي: 60 في

---

1 – د. الحبيب الجنحاني، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19، مرجع سابق، ص 1067.

2 – ELIE C., op.cit., p. 57 - 58.

3 – Idem, p. 57.

4 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، مرجع سابق، ص 58.

5 – ELIE C., op.cit., p. 65 - 66.

تاقمونت عزوز، و123 في واضية، و235 في بني منقلات قرب عين الحمام، و117 في بونوح قرب ذراع الميزان، و42 في إيغيل علي القبائل الصغرى[1].

ولعل هذه النتائج هي التي شجعت المبشرين و القادة السياسيين على العمل في هـــذه المنطقة والاهتمام بها. ومن هؤلاء "الأميرال ديغيدون" الذي تمنّى لو أن تجربـــة العطـــاف كانت في منطقة القبائل اعتقادًا منه أن سكانها أكثر من غيرهم استعدادا لتقبل المســيحية[2]. هكذا يؤدي المبشرون إلى جانب خدماتهم السياسية نشاطات اقتصادية تمثلت فـــي شـــراء الأراضي لبناء قرى عربية مسيحية كما لاحظنا.

يقول أحد الداعين إلى التبشير: « يعمل اليوم مبشرونا في المستعمرات الفرنسية على غرار ما كان يقوم به رجال الدين، حيث كانوا يحيون الأرض، ويشيدون المباني في العصور الوسطى، وقد تمكنوا من تأسيس مدن وقرى»[3].

وقد نوه "بول لوسور" بأعمال المبشرين فقال أيضًا: «لقد حقــق مبشـــرونا أعمـــالا اقتصادية تستحق الاعتراف بها. وذلك بتقديم البلد الذي ينصـــرونه عـــن طريـــق إدخـــال حسنات الغرب المسيحي»[4].

ونستخلص مما سبق أن وسائل التبشير لا تتمثـــل فـــي الخـــدمات الاجتماعيـــة والتعليم والتطبيب فحسب، وإنّما كذلك في الميدان الفلاحي والعمراني، وعـــن طريـــق حرث الأراضي وزراعتها. وبناء على هذا ندرك أن المبشرين يؤدون دورين هـــامين في المستعمرة: الأول خدمة الأرض واستغلالها من أجل الاستعمال. و الثاني أداء نفس المهمة من أجل المصلحة السياسية والاقتصادية للمستعمر.

---

1 – TIAUET J., op.cit., p. 173.

2 – AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France, T 1, op.cit., p. 304.

3 – خديجة بقطاش: "الاستعمار الديني الفلاحي في الجزائر"، الثقافة، العدد 68، السنة 12، ماي أفريل 1982، ص 49.

4 – خديجة بقطاش، "الاستعمار الديني الفلاحي في الجزائر"، مرجع سابق، ص 49.

ومن الوسائل الأخرى التي اعتمدها المبشـــرون فضــــلا عـــن الخـــدمات الخيريـــة والاقتصادية والسياسية – كما أسلفت – تقديم المساعدات الطبية للسكان. هكذا ارتفع "شــــعار الطب في خدمة التبشير"[1].

**الطب وسيلة للتبشير:**

حاول المبشرون استغلال حالة السكان التعيسة نتيجة للفقر الذي عرفته المنطقة ففتحوا لهم مراكز طبية. من ذلك المستشفى "سانتوجين" الذي أسسه لافيجري في بنـــي منقلات ناحية عين الحمام بالتعاون مع الحاكم العام سنة 1894[2] على غرار مستشفى العطاف، فكان يحتوي على 100 سرير[3]. ونشاطهم من خلال هذا المستشفى تركـــز على تقديم مساعدات للسكان، وخاصة اليتامى منهم. وقد وجهوا اهتمامهم لهذا الجانب الهام، وجعلوا يبشرون في مستوصفات ومستشفيات أقيمت خصيصًا لهذا الغرض.

وقد قدّر عدد الفحوص الطبية التي قدمت للسكان بـــ 25000 فحصــــا طبيــــا هـــذا بالإضافة إلى وجود مصالح أخرى كانت تقدم للسكان والتي سميت بسكرتارية الأهالي[4].

يهدف المبشرون من خلال هذه الخدمات الطبيعة والاجتماعيـــة إلـــى تنصـــير السكان، وبالتالي خلق جيل حائر ومبلبل الفكر، يعيش بين واقعين متناقضـــين. يحمـــل الولد المتنصر هذا التناقض في اسمه، فكان هناك روبير عبد القادر، وجوزيف بن عبد الله[5]، وكلود أرزقي.

---

1 – د. الحبيب الجنحني: "حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن 19"، الأصالة، عدد 16، السنة 3، 1973، ص 27.

2 – TIQUET J., op.cit., p. 168 - 170.

3 – TIQUET J., op.cit., p. 168 - 170.

4 – ELIE C., op.cit., p. 48.

5 – المهدي البوعبدلي: "الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي"، الأصالة، عدد 8، ماي جوان 1972، ص 31.

والواقع أن المسألة أبعد من أن تكون تفضيل دين على دين آخر، إنّها اختيار المواطن بين الارتباط بواقع قد تأصل فيه الدين، واعتناق دين جديد به يخسر الكثير من هويته ومن تآلفه مع عشيرته ومحيطه.

وقد تعرض لهذا الواقع عدد كبير من الكتاب الجزائريين وغير الجزائريين نذكر على سبيل المثال قصة قصيرة للأستاذ محمد الشريف الحسيني عنوانها[1] "سوزان عائشة كانت"عالج فيها الكاتب مشكلة تغيير الاسم والهوية لإحدى فتيات المنطقة كانت تعالج في مستشفى "بني منقلات" وبعدما نصّرها المبشرون أطلقوا عليها اسم "سوزان".

يقول "الأمين العمودي" في هذا المعنى عن طبيب تزوج فرنسية فحمل ابنه اسمين واحدًا عربيًا وآخر فرنسيًا:

حي الطبيب ولا تنس قرينته
هو سليمان والمدام بلقيسُ
له غلام أطال الله مدته
تنازع العربُ فيه والفرنسيسُ
لا تعذلوه إذا ما خان أمته
فنصفه صالح والنصف موريس

هكذا يعمل المبشرون بدعم من القادة السياسيين على تغيير عقيدة الجزائريين، وخلق جيل يكون تابعًا لفرنسا ثقافيًا وحضاريا، ومتنكرًا لثقافته وحضارته العربية الإسلامية. وأضاف المبشرون وسائل أخرى مثل التعليم وإنشاء المدارس.

**التبشير عن طريق التعليم:**

أدرك المبشرون الدور الخطير الذي يلعبه التعليم في ميدان التبشير، ونشر النصرانية، فأوصوا بتركيز نشاطهم عليه حتّى يستطيعوا الاتصال بالسكان.

---

1 - البصائر، العدد الصادر بتاريخ 12 فبراير 1954. انظر أيضًا: د. عبد الله ركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، ط 1، 1981، ص 19.

وعملا بهذه الوصية أضاف القسيس "كروزات" إلى الأعمال الخيرية التي قدّمها للسكان فتح مدرسة كانت بمثابة مأوى لليتامى، جمع فيه حوالي 20 طفلا[1] وقرر تربيتهم تربية مسيحية، ونشر في أوساطهم الوطنية الفرنسية.

وقد نوه القسيس "هنري جوست" بأهمية التعليم في ميدان التبشير ونشر المسيحية فقال: « إنّ التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنّما هو واسطة إلى غاية. هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين، وشعوبًا مسيحية »[2].

ولعل اهتمام المبشرين بالتعليم وخاصة تعليم الصغار يعود أساسًا إلى كونهم أكثر من غيرهم استعدادا لتقبل العلم. يقول أحد الباحثين الجزائريين في هذا المعنى: « اتخذت الحملة التبشيرية وسائل مختلفة وأقوى صورة في نظري هي صورة التعليم وتكوين مؤسسات ثقافية وسط البلاد الإسلامية، وإنّها تتجه إلى الأطفال الصغار والشباب وهم الذين يسهل التطرق إلى قلوبهم، والنفوذ إلى عقولهم. أما الكبار فإنّ لهم حصانة أقوى »[3].

وقد كان اهتمام المبشرين الصغار قويًا، وهو في نظرهم شرط أساسي لنجاح التبشير في ناحية القبائل، وبالتالي فهو قوة تجعل الناشئة تحت تأثير التعليم المسيحي، أكثر من كل قوة أخرى. ثمّ أن هذا التأثير سيستمر أكثر حتى يشمل أولئك الذي سيصبحون يومًا ما إطارات ومسؤولين.

ومن أهداف هذه المؤسسات التعليمية الهدف السياسي، حيث تتكون منها "نخبة" من أبناء المسلمين ومن أبناء الطبقة المثقفة، ومن أبناء رجال السياسة. حتّى تتولى هذه "النخبة" المناصب السياسية، والاقتصادية، وتحمي التبشير، وتدافع عنه، وتسهل له السبل[4]. وهكذا

---

1 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 109.

2 – د. مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الخامسة، بيروت، 1975، ص 66.

3 – د. عمار الطالبي، ندوة الأصالة، مرجع سابق، ص 123.

4 – د. عمار الطالبي، ندوة الأصالة، مرجع سابق، ص 123.

شرعت الإدارة الاستعمارية في القضاء على مراكز الثقافة الإسلامية، ومحاربة الأسر المرابطية[1]، وغلق المدارس القرآنية التي كانت قائمة في مختلف أنحاء الوطن، فالبعض منها حولته معاهد للثقافة الفرنسية، وبعضها الآخر سلمته إلى الهيئات التبشيرية المسيحية التي اتخذتها مراكز لنشاطها لهدم عقيدة الجزائريين.

في حين نشطت الجانب الثاني، وهو التعليم الفرنسي لفتح المجال لتأسيس مدارس فرنسية "علمانية"[2]. ولكي يتحقق مطمعها في تنصير وفرنسة سكان جبال جرجرة المسلمين، قررت سياسة تعليمية خاصة بسكانها، وجعلت التعليم الفرنسي فيها إجباريًا في كل قرية من قراها[3].

وفي هذا الإطار نشط السيد "صاباتي" سنة 1924 في فتح بعض المدارس في المنطقة كمدرسة "الفنون والمهن" بناحية الأربعاء بني راتن، ومشاريع أخرى للقرض الفلاحي لتمويل المنطقة ماديًا ومعنويًا وثقافيًا[4]. وطالب بالسماح للبربر (الأمازيغ) من اتخاذ أسماء أوروبية، وتشجيع السكان على أخذ الجنسية الفرنسية[5].

هكذا كانت تعمل الإدارة الفرنسية في الجزائر على توسيع رقعة المدارس الفرنسية وسط السكان من أجل فرنستهم، وإدخالهم في المجتمع الفرنسي، والتضييق على التعليم العربي الإسلامي. هذا التعليم الذي كانت تضطلع به شخصيات إصلاحية في المساجد والزوايا[6]. التي شيدت على قمم جبال جرجرة.

---

1 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 142.

2 – Idem.

3 – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 101.

4 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 139.

5 – Idem, p. 142.

6 – انظر الفصل الثاني بخصوص دور هذه الزوايا.

ولعل أهم شخصية تعرضت لدسائس الاستعمار والمبشرين، السيخ "محمد بن أبي القاسم البوجليلي" المصلح الديني وصاحب الزاوية المعروفة في ناحية بوجليل، (القبائل الصغرى) وذلك باعتباره منارة للإشعاع الروحي والثقافي في المنطقة.

وإدراكًا من الاستعمار بخطورة الشيخ ودعوته القوية في الميدان الديني أسس المبشرون مركزين كبيرين حوالي سنة 1920 قرب زاويته، ومدرسة أخرى فرنسية في القرية نفسها سنة 1883. وذلك لمنافسة المدرسة القرآنية. وجندوا مجموعة من الرهبان والراهبات يزورون القرى يتحدثون عن المسيح – عليه الصلاة والسلام – ويحاولون استرضاء المستضعفين بما يوزعون من هبات ودواء لجلب الأطفال.

ولكن رغم الجهود المبذولة فإن أعمالهم كانت فاشلة، بحيث لم تجد آذنا صاغية ولا قلوبا راضية، مما جعل أحد المبشرين الإنجليز[1] يقول لأصدقائه في مرارة وتحسر: رباه كم كنا نعاني من هذه الصخرة الصلبة التي تسمونها عجوز بوجليل[2].

هكذا كان اهتمام المبشرين بالمراكز التبشيرية المنتشرة عبر القرى كبيرًا وذلك لتحول بين الناشئة، وبين اللغة العربية التي هي مفتاح القرآن والإسلام. والواقع أن الخدمات التي كان يقدمها المبشرون، كان من المفروض أن يستفيد منها السكان، وكان من الممكن أن تحقق بها بعض الأهداف الإنسانية. غير أن المبشرين لم يتصفوا بالنزاهة، وإنّما كانت لهم أغراض واضحة لم ترض السكان، إنهم استعملوا العلم والتعليم لنشر عقيدتهم، وذلك لم يخف على أحد ولم يكن هذا الإحسان محل تقدير واحترام.

وفي سنة 1914[3] تقرر تطبيق القانون الفرنسي اللائكي القاضي بفصل الدين عن الدولة. غير أن هذا القرار أثار ردود فعل المبشرين الذين كانوا يعتبرون ذلك

---

1 – يدعى هذا المبشر: قريفيس.

2 – الأستاذ محمد الشريف الحسيني، مقال بعنوان: "جوانب من شخصية الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي، جريدة العصر، عدد 32، السنة 1، 19 نوفمبر 1981، ص 3.

3 – ELIE C., op.cit., p. 74 - 80.

انتهاكًا لمقدساتهم، مما أدى إلى إحداث صراع بين المبشرين والمسؤولين الفرنسيين المتخوفين من نتائج التبشير لدى الأهالي.

وبناء على هذا الصراع بين التعليمين المسيحي واللائكي. قال القسيس "بيكي": « بالمسيحية نتوصل إلى تحرير هذا الشعب الذي عرف حضارة إسلامية عريقة وليس بالقوانين والمناشير، كما تدّعي ذلك الحكومة اللائكية »[1] وفي رأي هذا القسيس أن المبشرين لهم تأثير أكثر من غيرهم في الناس، وأن التعليم في نظره لن يزدهر ما لم يكن مسيحيًا، وبالتالي فإنّ فصل الدين عن الدولة في منطقة عرفت بعادات وتقاليد عربية عريقة لا يفيد كثيرًا.

وقد قال أحدهم في 10 جويلية سنة 1914 أمام مجلس الشيوخ: « إنّه لا يمكن أن نحقق الهدف ما لم نعمل على توسيع رقعة التعليم، التعليم المسيحي بالخصوص»[2]. وحتّى يتحقق مطمع المبشرين – كما لاحظنا – أسسوا في نفس السنة في تاوريرت عبد الله (واضية) معهدًا لتكوين المعلمات اللائي يتولين مهمة التعليم فيما بعد، وعلى الطريقة المسيحية.

وقد بلغ عدد التلميذات بهذا المعهد 230 تلميذة. وكن يتعلمن اللغة الفرنسية والحساب وبعض مبادئ تعاليم الدين المسيحي[3]. ولعل التركيز على البناء في نظرهم يعود أساسًا إلى كونهن أكثر استعدادًا لتقبل الديانة المسيحية من غيرهن.

وقد أكد هذه الفكرة أحد القساوسة في مجلة العالمين الفرنسية المنشورة سنة 1901 فقال: « إنّ تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد، ووصولنا إلى نفس الغاية التي وراءها نسعى »[4].

---

1 – Idem.

2 – Idem, p. 74.

3 – Idem, p. 38 - 39.

4 – انظر أنور الجندي: الفكر العربي المعاصر معركة التغريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة، مصر، ب.ت، ص 292.

إنّ التربية المسيحية لبنات المسلمين في نظره تعد للإسلام عدوه الذي لا يمكن التغلب عليه. وابتداء من 1918 تطورت الحركة التبشيرية في الجزائر وعرفت المنطقة على إثرها جمعيات تبشيرية أخرى من "كاثوليك" و"بروتستانت" لتتمم ما بدأه "لافيجري" وأخذت تنشر مراكزها هنا وهناك من المنطقة مراعية في ذلك نفسية السكان وحالتهم الاقتصادية بسبب الفقر والمجاعة[1] التي اجتاحت الجزائر في 3 أوت 1921[2] وما خلفته من آثار في النفوس. وقد قدر عدد اليتامى بسببها حتّى سنة 1927 بـ 76 يتيمًا[3].

وكانت هذه الإرساليات تتلقى مساعدات وتأييدا من كل جهة يمدها الأغنياء من المسيحيين بالملايين من المال، ويمدها رجال الكهنوت ونساؤه بالأعمال وتمدها الحكومة اللاتينية بالمعونة والتأييد[4]. كما كانت تتلقى مساعدات من بعض الحكام الفرنسيين[5] الحاقدين على الإسلام والمسلمين. مع أن فرنسا دولة لائكية كما ينص دستورها الصادر بتاريخ 1905[6] القاضي بفصل الدين عن الدولة، إلا أنها في الجزائر احتضنت سياسة تبشيرية واسعة النطاق لتنصير الجزائريين، وتعاونت تعاونا كبيرًا مع الهيئات التبشيرية المسيحية المتعددة الجنسيات من مختلفة أنحاء العالم. ومن أجل القضاء على الإسلام الذي وقف حجر عثرة في طريق محاولاتها في تجطيم مقومات الشخصية الجزائرية.

---

1 – قضت مجاعة عام (1867 – 1868) وما تلاها من النكبات على عشرات الآلاف من الأسر والعائلات الجزائرية. وخلف وراءها عشرات الآلاف من الأطفال الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم وبقوا بدون مأوى وغذاء، وأخذ الكثير منهم يهيمون في القرى والمدن. بينما عجز الجزائريون الآخرون عن إعانتهم لتأثر مواردهم الاقتصادية بالأزمة.

2 – TIQUET J., op.cit., p. 162.

3 – Idem.

4 – سجل جمعية العلماء المسلمين سنة 1935، ص 65.

5 – ELIE C., op.cit., p. 71 - 72.

6 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 108.

وبهذا التأييد والدعم من الحكومة الفرنسية – كما أسلفت – تأسست في منطقة القبائل في الفترة ما بين (1921 – 1945) مراكز[1] تبشيرية أخرى هامة. وقد كانت بلدية "الأربعاء بني راتن" أكثر من غيرها احتضانا لهذه الحركة. ذلك أن جهود الآباء البيض مؤيدة ومدعمة بمنظمة "جمعية المواطنين الفرنسيين". وكانت تكتنف ما يقرب من 35 مدرسة فرنسية مؤلفة من 64 قسمًا تربويًا، تستقبل حوالي 3000 تلميذ. وتعتبر ناحية "بني يني" النموذج الأول في هذا المجال.

وقد بلغ عدد المعلمين بها 60 معلمًا. وكلهم تجنسوا بالجنسية الفرنسية[2]. لكن رغم الجهود المبذولة بخصوص التنصير فإنّ نتائج "الإرساليات البروتستانت" التي

---

1 – وهذه المراكز هي:

– مركز بني يني "آيت الأربعاء" فيه مستوصف.

– مركز بونوح فيه مستوصف وملجأ لليتامى ومخزن لتموين الفقراء. ويشرف عليه آباء وأخوات بيض فيه 140 كاثوليكيا.

– مركز واغزان "بني منقلات" فيه مستشفى سانتوجيني وأخوات بيض. وقد كانت هناك مدارس قبل عام 1921.

– مركز الأربعاء نايت إيراتن فيه مستشفى عسكري وآباء بيض.

– مركز تاقمونت عزوز فيه مدرسة ومستوصف ويشرف عليه آباء وأخوات بيض.

– مركز تاوريرت عبد الله "واضية" فيه مستوصف ومدرسة ومخزن لتموين الفقراء ويشرف عليه آباء وأخوات بيض.

– مركز إيغيل علي في بني عباس "بجاية" سنة 1879 وبه 5 مبشرون.

– مركز تيزي وزو فيه مخزن لتموين الفقراء، ومستوصف يشرف عليه آباء وأخوات بيض.

– مركز إيفرحونان "عين الحمام" فيه مبشرة فرنسية واحدة تعمل طبيبة وأخرى ألمانية تعمل ممرضة.

– مركز جامع الصهاريج فيه مستوصف ومدرسة وملجأ لليتامى ويشرف عليه آباء بيض.

– مركز عزازقة فيه آباء بيض. وهناك مراكز أخرى انظر في ذلك المراجع التالية:

A – TIQUET J., op.cit., p 165 – 170.

B – ANTUNY Philippe, Missions des pères blancs en Tunisire, Algérie, Kabylie, Paris, 1931, p 49.

C – Centre des bères blancs – Annuaire deu clergé (Années : 1920 – 1931,1941 – 1949,1950 – 1954).

2 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 340.

أشرت إليها سابقا – كادت أن تكون منعدمة أمام موقف السكان المتصلب، ورفضهم الكامل لكل ما هو أجنبي دخيل على ثقافتهم الأصيلة لولا قرار "مالفي MALVY"[1] الصادر بتاريخ 8 جوان 1914 الذي بعث فيها روحًا جديدة لمواصلة العمل التبشيري، ونص على طرد الإرساليات الكاثوليك من المنطقة، ومنع المؤسسات الدينية التابعة للآباء البيض من ممارسة نشاطها بتاورويرت عبد الله (واضية) [2] تخوفًا من غضب الأهالي ومقاومتهم العنيفة. هكذا وقعت المنافسة بين الإرساليات الكاثوليك والبروتستانت، فحل المذهب البروتستانتي محل المذهب الكاثوليكي وفتح المجال للإرساليات البروتستانت للعمل التبشيري في منطقة القبائل.

وفي شهر مارس 1920 تعززت الحركة التبشيرية البروتستانت في المنطقة بإرسال مبشر آخر كان يدعى "وليام أندرصون"[3] وقد تميز نشاط هذا المبشر الأميركي بمعارضة التبشير المسيحي. وعزز موقفه بمبشر ثاني يدعى "جونصون" الذي جاء بزوجته إلى ناحية "الأربعاء بني راتن". وهذه ظاهرة تميز المبشرين البروتستانت عن زملائهم الكاثوليكيين.

ولأول مرة نجد مبشرا من اصل محلي يسمى لوكلود أرزقي، وهذه السياسة ترمي إلى انتهاج طريقة جديدة تعتمد على الأهالي في التبشير، إلا أنها لم يكتب لها النجاح بفضل المقاومة.

لكن رغم نفور السكان، فإنّ الإرساليات البروتستانت واصلت نشاطها في المنطقة التي مكثت بها أكثر من 30 سنة[4]. وقد أسست هذه الإرساليات مركزًا تبشيريا في قرية

---

1 – وزير فرنسي طبق قانون 1905/7/7 الذي نص على منع المؤسسات الدينية من ممارسة نشاطها الديني بتاوريرت عبد الله "واضية" عملا بقانون فصل الدين عن الدولة وهي فكرة عثمانية ظهرت في أوروبا في العصر الحديث.

2 – الشهاب، ج 4، م 5، ماي 1929، ص 14. انظر أيضًا: جورج إيلين، مرجع سابق، ص 72.

3 – ELIE C., op.cit., p. 71 - 72.

4 – الشهاب، ج 5، م 5، مرجع سابق، ص 9.

"تاباروورت" ومن نشاطها أنه كانت تقيم الحفلات، وألعاب التنس، وسماع الأغاني، وتقديم الأشرطة السينمائية لسكان القرية.

وفي سنة 1929 توسع نشاط هذه الإرساليات البروتستانت في المنطقة فأسست قرية مسيحية ثانية في واضية[1]. وأهم ما تتميز به هذه الجماعات عن الإرساليات الكاثوليك القدح في الإسلام. ونلاحظ هنا أن هذا الموقف ليس موقف جميع الآباء البيض بل فيهم من يحترم الدين الإسلامي.

ونضيف إلى نشاط "وليام أندرصون" عملا آخر تمثل في تأسيس دارين في كل من قريتي "أغريب، وفريحة"[2]، وكان يأتي إليهما أسبوعًا لإقامة عروض وأشرطة سينمائية للأطفال.

ومن نشاطه فضلا عن المجال السينمائي، أنه كان يجمع حوله الأطفال ويوزع عليهم نسخًا من الإنجيل. ونلاحظ أن السلطات العسكرية المتواجدة في المنطقة لم ترض بأعمال هذا القسيس الخطير خوفًا من غضب الأهالي.

غير أنه حاول أن يبرر وجوده مشيرًا بأن السلطة ستواجه بالسخط إذا ما منعته من ممارسة نشاطه. ومن هنا يتضح لنا أن الجماعة التبشيرية – الميتوديست – كانت تقصد إلى زرع البلبلة والتشكك في نفوس السكان حتّى تغرس العداوة بينهم[3]. ولهذا اعتمدت على أسلوب مشاركة الأهالي في نشاطهم والترفيه عليهم في أوقات الفراغ، وأحيانًا يلجأ المبشرون إلى طريقة غريبة تتمثل في المدح والتنويه، عملا بوصية القسيس "بورغارد" الذي قال: « امدحوا كبراءهم، وارفعوا معنوياتهم، تلك هي الوسيلة الوحيدة لجعلهم أكثر استعدادا وقبولا لآراء الآخرين »[4].

---

1 – المرجع نفسه، 12، 13.

2 – المرجع نفسه، ص 9.

3 – الشهاب، ج 5، م 5، مرجع سابق، ص 13.

4 – الأستاذ عبد الجليل التميمي، دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس، مرجع سابق، ص 51.

وبهذه الوصية وسعت هذه الجماعة من نشاطها، فأسست مركزًا تبشيريا آخر في تيزي وزو، ومن أبرز منشطيه القسيس "إيميل رولان" الفرنسي البروتستانتي. ونظرا لأهمية المنطقة التجارية والثقافية حاول أن يوسع نشاطه اعتقادًا منه أن عقلية السكان أكثر تقبلا للتبشير من غيرهم.

وقد ركز جهوده في جمع الأطفال الصغار وخاصة الفقراء منهم[1]. وبمساعدة أحد المتنصرين أخذ في إجراء اتصالات بجلب الناس إلى الديانة المسيحية.

وقد كان يقدم لهم بعض المساعدات المادية. وتحقيقًا لهدف التنصير يرى أن عدد المبشرين كان قليلاً، ولنفس الغرض قام برحلة إلى باريس للإتيان بعناصر جديدة تمّ اختيارهم، واستمر نشاطه حتّى سنة 1924 حيث خلفه مبشر آخر كان يدعى "ألفريد رولان" وفي عهده اشتدت رغبة السكان في التعليم وأرسلوا أولادهم إلى بيت أحد المتنصرين الذي أعد خصيصًا لهذا الغرض.

ويتكون هذا البيت من تسع غرف للدراسة ومجهزة تجهيزًا عصريًا، لكن رغم الجهود المبذولة فإنّ نشاط هذا المركز بدأ يقل تدريجيا وذلك ابتدأ من 1942[2] ولأسباب كثيرة نذكر منها ما يلي:

1 – مشاركة رولان في الحرب العالمية الثانية.

2 – انتشار الوعي في وسط السكان نتيجة للظروف الصعبة التي مرت بها الجزائر من جراء الحرب الكونية الثانية.

3 – انتشار المدارس القرآنية في القرى. ولذلك عزز هذا الأخير موقفه بمبشرتين أخريتين إحداهما تدعى "صار مارغريت" والأخرى "ليان تينيبان" وفي عهدهما تأسست مراكز تبشيرية أخرى في المنطقة. نذكر مركز قرية "أخربان" ومركز "أكفادو" ناحية عزازقة.

---

1 – ROLLAND Emile, La grande kabylie à 50 ans, Alger, 1957, p. 3 - 4.

2 – ROLLAND E., op.cit., p. 1 - 2.

ومن نشاطهما زيارة القرى النائية قصد الاحتكاك بالسكان، وخاصة النساء والشباب. كما كانت تشتغلان بالتمريض والولادة، وعلاج الأطفال الصغار وتعليمهم.

وقد بلغ عددهم في مركز أكفادو 15 طفلا[1]. ثمّ جمعهم بدعوى تربيتهم. ولعل اهتمام الأخوات البيض بالمرأة القبائلية أو بالأحرى المرأة الجزائرية بشكل عام يعود إلى مقامها في الأسرة الجزائرية. ولذلك وجهن إليها اهتمامهن، لما لها من تأثير على زوجها وأولادها، حتّى يتم إبعادهم عن الإسلام. تحقيقًا لأمنية "لافيجري" الذي كان يرى أن مهمته تعتبر عقيمة ما لم تتوغل إلى العائلة القبائلية حتّى تشمل المرأة نفسها[2].

وفي هذا الإطار واصلت الأخوات البيض نشاطهن في المنطقة ببناء عيادة وبيت خيري لاستقبال النساء، والنساء القبائليات بالخصوص[3]. تقول إحدى الأخوات البيض التي لم تذكر اسمها، بهذا الخصوص: « إنّ الأثر الذي تتركه الأم في أطفالها، ذكورًا وإناثًا حتّى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية».

هكذا كان اهتمام الأخوات البيض بالمرأة متضاعفًا، لكونها العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة. ولذلك لا بدّ من التأكيد على الجانب العملي وسط النساء القبائليات. وهذا في نظرهن وسيلة هامة لتنصيرهن، وبالتالي خلعهن من المجتمع العربي، ودفعهن إلى المجتمع الفرنسي. وقد كان اعتقاد هؤلاء الأخوات البيض أنه عن طريق التبشير والتنصير يتوصلن إلى تمسيح الأسرة الجزائرية.

هكذا يلجأ المبشرون إلى أسلوب غريب وخطير في نفس الوقت تمثل في إشراك الأخوات البيض في عملية التبشير، ونشر النصرانية وسط النساء المسلمات، والملاحظ من خلال التحليل السابق لسياسة التبشير الفرنسية في الجزائر أنه رغم تفنن المبشرين والسياسيين الفرنسيين في ابتكار الأساليب الجديدة لتنصير وفرنسة السكان، فإنّ كلّ

---

1 – Idem, p. 10 - 11.

2 – ELIE G., op.cit., p. 58.

3 – Idem, p. 59.

المحاولات باءت بالفشل والخيبة. الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن نتائج هذه الحملة المسعورة في منطقة القبائل. ذلك ما سأتعرض له فيما يلي:

## نتائج التبشير المسيحي

إنّ الجهود التي بذلها رجال الدين المسيحي في منطقة القبائل خلال فترة الدراسة وقبلها، تجعلنا نتساءل عن النتائج التي حققوها.

ويمكن القول أنّه إذا ما تمكن هؤلاء المبشرون من استغلال سذاجة بعض الناس، وذلك لم يكن إلا في بعض القرى التي تعد على الأصابع، مستغلين الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة لهم. وذلك بإقبالهم على التعليم وعلى المراكز الصحية للمعالجة، والهدايا التي كانت تمنح لهم من طرف المبشرين. فإنّهم لم يستطيعوا أن يكسبوهم دينيًا وبالصورة التي كانوا يتوقعونها من قبل.

وعلى الرغم من الصبر والتفاني في العمل والنفقات الباهظة التي خصصوها لهذا الغرض، فإنّ كل المحاولات التبشيرية باءت بالفشل الذريع.

ويمكن تلخيص ذلك في النقاط التالية:

1 – الصراع الذي حدث بين لافيجري والجنرال ماكمهون، وقد كان له انعكاس على نشاط المبشرين في منطقة القبائل تخوفًا من غضب الأهالي ومقاومتهم العنيفة له، فقد حذر الأسقف الوالي العام قائلا: « إذا علم الأهالي بواسطة الصحافة أنكم تريدون تنصيرهم بالقوة أو إبعادهم عن بلادهم أفلا يقول بأنكم تريدون اغتنام هذه الفرصة التعيسة التي يعانون منها ليضحوا بدينهم مقابل الخبز الذي قدمتوه لهم »[1].

---

1 – د. أبو عمران، لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، مرجع سابق، ص 67.

وقد صرّح[1] الكولونيل هانوتو، أكثر من مرة في أن التبشير سيجد حاجزًا لا يمكن اجتيازه. وهو ما حدث بالفعل، ومن ذلك أن نشاط القسيس "كروزات" كان مصدر قلق نائب الوالي العام "الباروني دورويو DURRIEU" أثناء وجود ماكمهون بباريس، مما جعله يكاتب الجنرال "هانوتو" ضابط المكتب الغربي بذراع الميزان ليطلب منه تذكير "أمناء" القرى بأن الحكومة الفرنسية بعيدة عن كل المساعي التبشيرية التي يقوم بها القسيس كروزات، الأمر الذي جعل "ماكمهون" يحذر المبشرين عن كل تصادم يمكن أن يحدث بين المبشرين والسكان، فيقول: « إنّ تلك الطوائف الشديدة البغضاء لنا التي يخشى اجتماع كلمتها علينا، فمن الحمق والغباوة أن نظهر لها العداوة والكراهية، وعدم الرضى، لأنها بذلك نحملها على التألب علينا، والاجتماع لمصادادتنا[2].

وقد أدى تعصب أحد المبشرين بمنطقة القبائل إلى معارضة الأهالي، مما جعل حاكم القطاع العسكري يطلب من هذا المبشر مغادرة المنطقة، وذلك خوفًا من غضب الأهالي. وقد عبر أحد الكتاب عن خوفه من هذه القرى أنها قد تصبح يومًا ما مراكز عداوة ضد فرنسا[3]. ويتفطن البربر (الأمازيغ) إلى ذلك فيتكون لديهم ضمير وطني تاريخي[4].

ولقد عودنا مؤرخو الاستعمار بهذا الاستعمال الذي يوحي بأننا ليس لنا تاريخ ولا وطن ولا ضمير ولا شعور وطني.

2 – معارضة المعمرين (الكولون) لكل نشاط تبشيري هادف إلى إنشاء قرى عربية مسيحية كاللاتي بسهل العطاف، لأن ذلك في نظرهم يعتبر تضييقًا عليهم، وخطرًا يهدد ممتلكاتهم.

---

1 – خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 111. نقلا عن رسالة الجنرال ومغن إلى الوالي العام، الجنرال ماكماهون عن أ.و.ر.ف، 174680.

2 – رشيد رضا، "المنار" مجلة إسلامية، تبحث في جميع شؤون الإصلاح الديني والمدني والسياسي، المجلد 34، ط 1، مصر 1350هـ، ص 427، 428.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 323.

4– AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 144 -145.

ويلاحظ أن المعمرين الأوروبيين في الجزائر لم يتحمسوا لسياسة التبشير المسيحي لأنهم كانوا يخافون أن يؤدي ذلك إلى نزع الأراضي منهم لإقامة قرى جديدة لهؤلاء اليتامى المسيحيين الجدد[1] وخاصة عندما قرر "لافيجري" وحلفاؤه منح هؤلاء أراضي جديدة. ورغم إلحاح لافيجري على تطبيق مشروع القرى المسيحية فإنّ المعمرين اعترضوا على هذا المشروع، وبالتالي لم يعترفوا بهم كمسيحيين[2].

ورغم المعارضة فإنّ الهدف واحد. وهو الاستيلاء على الخيرات الجزائرية وتجريد الفلاح الجزائري من أرضه.

3 – رد فعل الجزائريين، المتمثل في الرفض المطلق لكل عمل تبشيري لتمسكهم بالدين الإسلامي. ورغم تفنن المبشرين في أساليب التنصير والفرنسة فإنّهم لم يحققوا أي نجاح في مجال تغيير الشخصية الوطنية، لأن رسوخ العقيدة الإسلامية في قلوب الجزائريين، وتمسكهم بالقرآن كان أكبر محصن ضد سياسة المسخ والتشويه والفرنسة.

وقد اعترف رجال الكنيسة أنفسهم بهذه المقاومة المعنوية، والحصانة الدينية التي كان يتمتع بها سكان الريف.

وإنّ الإيمان الديني بحب الوطن هو الذي أمد الشعب الجزائري قوة الإيمان. وأن العاطفة الدينية هي التي كانت على الدوام عامل المقاومة ضد سياسة التبشير والتنصير.

وقد عبر لافيجري عن مرارة خيبته لعمله التبشيري، وللنتيجة المؤلمة التي آل إليها بعد جهاد طويل دام (40) سنة[3] قضاها في منصب الأساقفة في الجزائر.

أقول هذا على لسان الأستاذ الشيخ البوعبدلي، ونحن نعلم أن الكاردينال لافيجري لم يعمل طيلة هذه المدة. وخاصة إذا علمنا أن لافيجري ولد سنة 1825

---

1 – د. يحي بو عزيز، ثورة 1871،.دور عائلتي (المقراني والحداد)، مرجع سابق، ص 97.

2 – المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب الجزائري في الميدان الروحي، مرجع سابق، ص 313.

3 – البوعبدلي، آثار التبشير في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، ملتقى تيزي وزو، للتعرف على الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 1354.

ومات سنة 1894. وحتّى أولئك الذين نصرهم تحت ويلات المجاعة لم يصطبغوا بالصبغة المسيحية.

ومما يدل على هذا الفشل، ما ذكره الدكتور غوستاف لوبون في كتابه "روح السياسة" حيث ذكر واقعة تدل دلالة واضحة على قوة الإسلام في إفشال خطة المبشرين. وهي أن الكاردينال لافيجري قد جمع أربعة آلاف طفل يتيم جزائري وقام بتربيتهم تربية مسيحية ولكن معظمهم رجع إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد[1].

ولم يغادر الحياة حتّى شاهد بنفسه أعماله تتلاشى. ذلك أن أكثر المتنصرين في إفريقيا نبذوا دينه وعادوا إلى الإسلام. وقد صرح هو بنفسه عندما اتضح له فشل هذه السياسة بقوله: « إننا خسرنا في منطقة القبائل ما حققناه في لبنان »[2]. ولم يسع لافيجري إذ ذاك إلا أن يعطي أوامر لأعوانه بأن يخلو عدة مراكز وينسحبوا منها.

وقد كتب "البابا" رسالة قال فيها: « إنّ المسلمين بأوروبا وآسيا لا زالوا في سباتهم العميق، أما في قارتنا الإفريقية فإنّهم استيقظوا وأن الطبقة الصاعدة التي فيها الطبقات المكتوفة في المدارس المهدوية (حركة عبد الوهاب) والسنوسية هي أقوى نشاطًا وحرارة من الطبقات السابقة. وأن ممالك أوروبا لا تفهم ولا تعرف من هم العرب – الداء الخطير – إنّ هؤلاء المتعطشين أمكنهم أن يحدثوا خلايا سرية بجميع ممتلكاتنا، وإنّني أرى من واجبي أن ألفت النظر إلى هذا الخطر الذي غفلت عنه أوروبا، فثقوا بخبرة أرباب حنكتهم التجارب ولهم دراية بصخور وزوابع بحار البربرية»[3].

هذا على حد تعبير الأستاذ، ولا أدري إذا كانت هذه الرسالة منشورة أم لا. إنّ إدراك السكان لأبعاد السياسة التبشيرية أدى إلى معرفة الخطر الذي يهدد ديانتهم،

---

1 – غوستاف لوبون: "روح السياسة"، ترجمة محمد عادل زعيتر، المطبعة المصرية، مصر، ب.ت، ص 169.

2 – AIT El MANSOUR Amrouche, Histoire de ma vie, Paris, 1969.

3 – المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، مرجع سابق، ص 1352.

وعليه يمكن القول بأن هذا كان أحد العوامل الهامة التي ساعدت على قيام ثورة المقراني بجبال جرجرة. ودفع بالأهالي إلى الالتفاف حول الطريقة الرحمانية[1]. ليعبروا عن رفضهم التام لسياسة التنصير الفرنسية بالمنطقة وقد صرّح ابن علي الشريف باشاغا شلاطة للمارشال ماكمهون بأنه: «لن يكون مسيحيًا أبدًا، ولا يعرف إذا كان أبناؤه وأبناء أبنائه سيكونون في يوم من الأيام مسيحيين»[2].

هكذا اصطدم الشيخ بالقسيس والمتنصر بالخوني، واعترف المبشرون بحقيقة الأمر الواقع ذلك أن سكان منطقة القبائل إذا أبدوا إقبالا على كل الحضارات فإنّهم من ناحية أخرى لم يكونوا ليغيروا من عقيدتهم[3].

وقد احتج السيد ابن علي الشريف على رسالة لافيجري المؤرخة بالسادس من أفريل 1868 برسالة أخرى وجهها إلى نائب الوالي العام فقال: « لقد أثرت رسالة الأسقف لافيجري والتي يقول فيها إنّه يريد استبدال القرآن بالإنجيل من أجل إحياء الشعب العربي، لقد أثرت هذه الرسالة كثيرًا في المسلمين، أننا نفضل موت جميع أولادنا على تنصيرهم»[4].

نلاحظ أن الشعب الجزائري لا ينقاد إلا للدين الإسلامي ولدعاته. ومما يدل على هذه الحصانة موقف امرأة جزائرية حاول المبشرون تنصيرها، غير أنهم لم يفلحوا. وقد ذكر أحد الكتاب الجزائريين أن أحد القساوسة عندما كان يجوب شوارع إحدى القرى الوطنية بحثًا عن ضحية يبشرها بالدين الجديد. صادف عجوزًا تبكي فبادرها بالسؤال عما بها باللهجة المحلية، (علمًا بأن هؤلاء القساوسة كانوا يجيدون اللهجات المحلية نتيجة احتكاكهم واختلاطهم بالأهالي) فأخبرته بأنها حائرة، قلقة على ابنها الذي لم تصلها منه الحوالة المعتاد إرسالها كل شهر لتنفق على أولادها الصغار.

---

1 – عن الرحمانية، انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

2 – د. يحي بوعزيز، دور عائلتي المقراني والحداد، مرجع سابق، ص 98.

3 – CHATELAIN Le père, En Algérie, la Kabylie et les Oasis Vovier, 1896, p. 53.

4 – د. أبو عمران، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، مرجع سابق، ص 59.

فسقطت فقط دمعة من عينيه وتظاهر بالرثاء لحالتها وطلب منها أن تذهب معه ليقدم لها بعض المساعدات لأبنائها وقد فعلت العجوز تحت وطأة الحاجة غير أن القس طلب منها أن تواصل الإتيان كل يوم أحد لتحضر الصلاة، ثمّ تأخذ المواد الغذائية لمنزلها. فاضطرت العجوز أن تفعل ذلك لبعض الأسابيع، ثمّ انقطعت فجأة. وبعد أيام قابلها القسيس في الشارع فسألها عن انقطاعها؟ فأجابته بكل صراحة وعفوية، لقد بعث ابني الحوالة. والحمد لله. فثارت ثائرة القسيس وقال لها: «إذا لم تستمري في الحضور إلى الصلاة فسوف أجبرك على إرجاع كل ما أخذته من مساعدات حتّى الآن». فردت العجوز قائلة: «أنا أخذت المساعدة مقابل حضوري صلاتكم فتعال أنت إلى مسجدنا يوم الجمعة وسأرجع لك كل ما أخذته».

هكذا ولم يجد القسيس ما يقوله غير التململ والإحساس بخيبة أمله التي لازمت كل رفاقه طيلة عهد الاحتلال[1].

هذا بالنسبة للخدمات الاجتماعية التي كان يقدمها المبشرون للأهالي. أما بالنسبة للتعليم، فهو لم يكن إلا كذلك. ويتضح ذلك من موقف مشايخ الزوايا، ومعارضتهم الشديدة لكل من يحاول التقرب من القساوسة الذين اتسع نشاطهم في المنطقة، وخاصة الأربعاء بني راتن، وبني يني، وواضية كما سبق أن بينت ذلك سابقًا فقد كان حرص الأهالي قويا في طرد كل من يسمح لأبنائه بالتوجه إلى مدارس المبشرين من مجلس القرية "تجميعث" وحرمانه من كل الحقوق التي يتمتع بها[2].

إنّ حضور المجتمع الفرنسي بينهم يشكل خطرًا على أبنائهم، وعلى ديانتهم، واصبح شعارهم، هو المحافظة على التراث العربي الإسلامي كما هو، وبالتالي فإنّ كل تغيير لن يصلح ثقافتهم مزدري مرفوض. وباعتراف المبشرين توقف نشاطهم التعليمي في المنطقة، ذلك أن التعليم الفرنسي لم يكن أمرًا مرغوبًا فيه من قبل العائلة

---

1 – د. أحمد بن النعمان، "سياسة التبشير الفرنسية"، مقال جريدة العصر، عدد 4، السنة 1، 7ماي 1981، ص 4.

2 – ELIE C.. op.cit., p. 59 - 60.

الجزائرية. حفاظًا على شرف الأسرة، وخوفًا من الذوبان في الثقافة الغربية، عملا بالعرف الاجتماعي الذي يقوم عليه نظام الأسرة الجزائرية.

وتعبيرًا عن هذا الرفض تقول المؤرخة الفرنسية "إيفون تورين" في مؤلفها: الجبهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، « بدأ الصراع يقوم عندما بدأ المحتل يفرض لسانه، وتفكيره وأسلوبه في الحياة مستعملا المدرسة والمستشفى والمعلم والطبيب ليحطم آخر قلعة التجأ المسلمون إليها وهو الدين ». إلى أن تقول: « والاستعمار الذي قضى 20 سنة (1830 – 1850) يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ وينشئ المستوصفات فلا يتردد إليها المرضى، ويريد أن يدرس الحالة الاجتماعية فلا يجد من يطلعه وتعددت في وجه المحتل الصعوبات وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي الحنيف كالإسمنت المسلح يحمي من التفكك والذوبان والاندماج »[1].

والواقع أن الشعب الجزائري لم يرض بفلسفة الاستبداد ورفضها رفضا باتا وقاومها بكل ما لديه من قوة. وقد اكتسبت المقاومة الوطنية أشكالا متنوعة لم يذكر الكتاب منها سوى المجابهات الثقافية. وأشاروا فقط إلى الثورات المسلحة، وخاصة إلى ثورة 1864 وثورة 1871، ولم يدرسوا كافة أسباب الفشل الاستعماري.

وقد بدأت المقاومة بمحاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية ولعب رجال التعليم، والعلم والثقافة دورًا كبيرًا في ذلك. فحرضوا الشعب على رفض سياسة الإدماج، وبينوا للمواطنين أهدافها وخطورتها. وقد كان الأهالي يعتقدون أن التعليم الفرنسي وبالأحرى المسيحي المشرّع لأولادهم شيئا خالصًا لا نفع فيه، لأن الغرض منه هو هدم الدين، وصبغ الأبناء بصبغتهم، وتمكين نفوذهم، واستعمارهم في الجزائر. بنشر لغتهم، حتى يكونوا جندهم، وخدما لهم، يسخرونهم في أغراضهم ومن ذلك هاجموه هجومهم على الوباء القتال، ونظرا إلى المدارس الفرنسية بعين العداوة والخوف. فبدت لهم رهيبة مظلمة.

---

1 – د. أبو عمران الشيخ، "وضعية الثقافة العربية في الجزائر في بداية الاحتلال"، الأصالة، عدد سابق، ص 120.

وقد كان الأهالي يقيمون المآتم في أول السنة الدراسية، إذا هاجم الشرطة على ديارهم فجروا أولادهم إلى المدارس الفرنسية[1].

وقد شاء الله بعد قرن من هذا التاريخ أي في الثلاثينيات من هذا القرن أن تأتي مدرسة فرنسية إلى منطقة القبائل لتثبت حقيقة الخسران الذريع الذي مني به المبشرون في عمليات التنصير للقضاء على الشخصية العربية الإسلامية وهذا بناء على رأي المدرسة التي لخصتها بنفسها في مذكراتها. تقول: إنّها عينت للتدريس في قرية نائية من قرى منطقة القبائل وذات صباح كان عليها أن تقدم درسًا عن الصليب والمسيحية، فأخذت تردد عبارات (الأب والابن وروح القدس) فلاحظت أنها كلّما ذكرت كلمة ابن الله انفجر الصبيان بالضحك، وظل ذلك يتكرر عدة مرات فاستغربت، ودنت من طفلة صغيرة وسألتها عما يضحكك ويضحك الجميع؟ فأجابتها بالسليقة قلت يا سيدتي: الله وابن الله. فهل يعقل أن يكون لله أبناء؟ تقول هذه المدرسة أيقنت من ذلك اليوم أنه من المستحيل أن يتحول أبناء هذا الشعب عن دينهم الذي ورثوه بالفطرة، كما يرثون الصفات البيولوجية والنفسية التي تحدد شخصياتهم وطلبت المدرسة نقلها إلى مكان آخر، وإعفاءها من مهمة التنصير»[2]. ويبدو حسب القصة أنها كانت تعمل بالمدرسة التبشيرية.

وعندما تيقن الفرنسيون أن أعمالهم لا طائل من ورائها. أخذوا يخططون لتعليم اللغة الفرنسية في إطار القضاء على القومية المعنوية، فظهرت مراسيم 1850م التي أنشأت في المدن والقرى، التعليم المزدوج والمدارس العربية الفرنسية فلم يتغير موقف المواطنين وبقيت المؤسسات خالية[3].

وقد جاء في هذا المعنى قول الأستاذ ساطع الحصري مؤكدًا هذه الحقيقة: « ومع كل ذلك لم ينجحوا فيما كانوا يرمون إليه ويمكن التأكيد أن الجهود التي بذلها هؤلاء في هذا السبيل لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير

---

1 – علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، مرجع سابق، ص 5.

2 – د. أحمد بن النعمان، سياسة التبشير الفرنسية، مرجع سابق، ص 4.

3 – TURIN Yvonne, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, (1830 – 1880), Paris, 1971, p. 36.

الناس منهم، وابتعادهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام لأن الناس صاروا ينظـرون إلـى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتنصير »[1].

ثمّ حارب السكان الطب الاستعماري كما حارب التعليم الأجنبي فوقـع صـراع كبير بين الأطباء والحكام الفرنسيين من ناحية وبين الأهالي وقادة المقاومة الوطنية من ناحية أخرى. واتخذ هذا الصراع شكل الحرب النفسية التي اشـتهرت فـي عصـرنا وخاصة حرب التحرير[2]. ومما يدل أيضًا على هذا الرفض لسياسة الاسـتعمار تلـك العريضة التي تقدم بها سكان جبال جرجرة سنة 1948 إلى سلطات الاحـتلال ضـد محاولات فصل مناطقهم عن أحكام الشريعة الإسلامية.

ومما جاء فيها ما يلي:

« إنّ الزواوة الكبرى أمة إسلامية عربية لا ترضى لدينها بديلا. وأنهـا دائمـا تعتقد أنها جزء لا يمكن فصله عن الجسم العربي الجزائري، وأنها لا ترضى لنفسـها أن تكون نوعًا جديدًا على هامش العرب »[3].

وقد جاءت هذه العريضة قوية شديدة اللهجة، بينت على أن الزواوة معقل من معاقل الإسلام والعروبة. كانت وما تزال على ذلك، وقد أدركوا أيضًا أن الغاية التي يرمي إليهـا الاستعمار هي إبعاد المسلمين عن الإسلام بالتدريج، يضعف فيهم النعرة الدينية، وعاطفـة التآخي الإسلامي. وتصير الأمة الواحدة أمتين أو أممًا. ولذلك افسدوا على فرنسا سياسـتها التي ترمي إلى فرنستهم، وإخراجهم من الإسلام، وتمزيق الوحدة بينهم.

وقد ألحوا على ضرورة تطبيق القوانين الشرعية الواردة في القرآن الكريم. بدل القوانين الوضعية الفرنسية[1].

---

1 – يونس درمونة: المغرب العربي في خطر، القاهرة، 1956، ص 31.

2 – TURIN Y., op.cit., p. 351.

3 – وثيقة نشرت بجريدة البصائر، العدد 59، السنة 2، السلسلة 2، 16 ديسمبر 1948، ص 7، تحت عنوان: زواوة للقبائل الكبرى تستمسك بعروة الإسلام الوثقى، وتطلب الرجوع إلى الأصل، التوقيع جماعة من الزواويين.

**موقف السكان من المتجنس:**

يعتبر المتجنس في نظر السكان إنسانًا مارقًا في الدين، وينفرون منه نفورا كبيرًا. وقد وقعت حوادث كثيرة وخطيرة في منطقة القبائل (البربرية) حول هذه المسألة، حيث امتنع (الطلبة) هناك من قراءة القرآن والقيام بصلاة الجنازة على الأموات من المتجنسين[2].

هكذا عاش الكثير من هؤلاء المتنصرين تعساء ومحتقرين ومنبوذين يحملون أسماء روبير بن عبد القادر، وجوزيف بن عبد الله، وقد قاطعهم السكان، وصاروا يسمونهم بالمطرنيين، ولا يكلمونهم ولا يصاهرونهم ولا يحترمهم أحد. ومما يدل على هذا الرفض المعنوي، ما وقع لأحد المتنصرين الذي لقي معارضة شديدة من قبل الأهالي حيث قاطعته الجماعة لكونه متنصرًا، كما عارضته الحكومة الاستعمارية لأنه ليس فرنسيًا حقيقيًا[3].

وحتّى إذا تابوا وعادوا إلى رشدهم كان عليهم أن يختاروا أحد الاثنين، إما أن يكفّروا عن ماضيهم، أو يغادروا القرية تماما. وقد ذهب السكان إلى ابعد من ذلك، فاعتبروا كل من يقترب من القرية المتنصرة غريبًا عن عاداتهم وتقاليدهم.

وقد كان الآباء كثيرًا ما يرفضون من أبنائهم التقليد لكل ما هو أجنبي وحتّى اللباس، إذ كانوا يعتبرون ذلك ردة. غير أنه كان أسلوب مقاومة ضد الأجنبي، وفي ظروف معينة، ثمّ إنّ هذا الرفض المعنوي والاجتماعي هو الذي جعلهم ينتقلون إلى أوروبا، بحيث لم يبق منهم إلا عدد قليل يعدون على الأصابع، ذهبوا مع المعمرين إثر استقلال الجزائر سنة 1962[4].

---

1 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 147.

2 – أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 204.

3 – ROLLAND E., op.cit., p. 5 - 6.

4 – المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، مرجع سابق، ص 56.

ومهما يكن من أمر فإن المتنصرين أنفسهم كان عددهم قليلاً – كما لاحظنا – لم يبقوا في الدين المسيحي. انطلاقًا من هذه الرؤية يمكن القول بأن السبب في ظهور الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل خلال العشرينات يعود أساسًا إلى هذه الحصانة الدينية، والقوة المعنوية، والوطنية الصادقة التي كان يتحصن بها السكان أمام موجات الغزو والتنصير. وسأتعرض لهذه الحركة في الفصل الآتي.

# الفصل الرابع

## بداية الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل

### تمهيد

قبل أن أتعرض للحركة الإصلاحية في منطقة القبائل أرى أن طبيعة الموضوع تستوجب مني إلقاء بعض الضوء على الحركة الإصلاحية في الجزائر وعلاقتها بالحركة الإصلاحية في المشرق الإسلامي لأنه لا يمكن فهم حركة الإصلاح في هذه المنطقة بمعزل عن هذه الحركة الشاملة وذلك باعتبارها امتدادا لها.

### مفهوم الإصلاح في الجزائر

إنّ الحديث عن حركة الإصلاح التي قادها الأستاذ عبد الحميد بن باديس في الجزائر خلال العشرينيات يتطلب العودة إلى التاريخ وذلك لمعرفة أصولها الحقيقية لأنه « لا يمكن أن ندرك أبعاد النهضة الحديثة في الجزائر قبل معرفة الأصول النفسية والاجتماعية للنهضة الحديثة في المغرب الإسلامي بعامة وفي المغرب الأوسط (الجزائر) بخاصة»[1].

وقد كانت أبرز الحركات الإصلاحية والثورية، وأكثرها حيوية وأعمقها جذورا، واشدها اتصالا بالفكر الإسلامي وبمبادئ الإسلام والسلفية.

ومما يدل على هذه الأصالة للحركة الإصلاحية في الجزائر نضج آثار وأفكار العلماء العاملين الأولين فيها الشاعرين بقساوة الاستعمار وأعدائها، فثاروا على الظلم والجهل والفقر والفساد الخلقي.

---

1 - ابن باديس، حياته وآثاره، إعداد وتصنيف د. عمار الطالبي، م 1، ط 1، دار اليقظة العربية للنشر والتوزيع، دمشق 1968، ص 15.

وانطلاقًا من هذه الرؤية البعيدة برزت في الجزائر حركة إصلاحية شاملة كرد فعل عنيف لإصلاح الأوضاع الفاسدة التي سادت العالم الإسلامي، ووصلت به إلى حد الجمود والتحنيط للفكر الإسلامي أمام نهضة الغرب[1].

وقد تمثل رد الفعل بادئ ذي بدء في دعوات مختلفة كانت تدعو إلى إيقاظ الإنسان المسلم حتى يعي ذاته، ويشعر بنفسه ويرجع إلى أصول الشريعة الإسلامية الصحيحة والنهل منها ومن مصادرها الأولى، وذلك حتّى يدرك أن الواجب يحتم عليه ان ينطلق من نفسه، ويجعل شعاره في أي عمل إصلاحي يقوم به قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّه لا يُغيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ... ﴾[2].

هكذا أدرك رجال الإصلاح الديني والاجتماعي في الجزائر تمام الإدراك أن التحرر من الاستعمار ولاسيما الاستعمار الفرنسي إنّما يجب أن يبدأ بتحرير النفوس من ذلك التبعية والتقاليد الفاسدة والتقليد الأعمى.

وقد كانت هذه الدعوات على اختلاف مظاهرها، ومشاربها، وطرقها تلتقي حول هدف واحد، وهو مقاومة الاحتلال الفرنسي بكل أشكاله، وتصفية العقيدة الإسلامية من الشوائب العالقة بها، ونشر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر.

وقد قاد هذه الحركة في الجزائر الأستاذ عبد الحميد بن باديس إيمانا منه بأن أي إصلاح ديني أو جهدً سياسي للواقع الفاسد لا يكتب له النجاح ما لم يكن متجهًا أساسا إلى تربية الإنسان روحًا وعقلاً وجسدًا، وبالتالي بناء ذاته عقيدة وأخلاقًا. وتتسم هذه الحركة بصفة الاستمرارية والامتداد للحركة الإصلاحية التي ظهرت « على يد المسلمين الأولين، ولعل أبرزها تلك التي نادى بها الإمام الغزالي من خلال كتابه القيم

---

1 – د. نور الدين ساطوم: يقظة القومية العربية، محاضرات ألقاها على طلبة المعهد، دار النشر جامعة الدول العربية، 1968، ص 74.

2 – سورة الرعد، الآية 11.

"إحياء علوم الدين" وابن تومرت، وابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، وأخيرا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في المشرق الإسلامي»[1].

وهذا دليل على الوحدة الفكرية والثقافية واللغوية التي تأصلت جذورها وبقيت حية مدى الدهر، بالرغم من عوادي الزمن وفجائع التاريخ، ومحاولات الفصل والمحو، وافتعال الظروف. ومما يدل على هذا الامتداد والاستمرارية، الاتصال الجزائري المشرقي.

**الاتصال بين الجزائر والمشرق**

يمكن القول بأن بداية القرن العشرين تعتبر خيرًا وبركة وفاتحة عهد جديد بالنسبة للحركة الإصلاحية في الجزائر. ففيه بدأت الأذهان تتفتح، والآذان تصغي إلى ما يدور حولها من أحداث وتطورات تبحث عن غذاء جديد في الفكر الإسلامي الحديث، الوافد على الجزائر من المشرق العربي كمصر والشام اللتين قامت فيهما نهضة فكرية إسلامية، ودعوات إصلاحية عظيمة قام بها الشيخان الكبيران جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

ومن الشخصيات البارزة التي أثرت على الفكر الإصلاحي في الجزائر أيضًا. الأستاذ عبد الرحمن الكواكبي بكتابيه "أم القرى"، و"طبائع الاستبداد" والشيخ طنطاوي جوهري بمؤلفاته القيمة ولاسيما كتابه "نهضة الأمة وحياتها"، ثم الأمير شكيب أرسلان. بمقالاته الإصلاحية في الصحف، ومؤلفاته، "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم"، وتعليقاته على "حاضر العالم الإسلامي"، وغيرهم من المصلحين الآخرين[2].

---

1 – د. حنفي بن عيسى: "تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري المعاصر"، الثقافة، العدد 32، السنة 7، أفريل ماي 1977، ص 108. انظر أيضًا:

MERRAD A., op.cit., p. 30

2 – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 2، مرجع سابق، ص 31.

ولعلي لا أكون مبالغا إن قلت بأن حركة التجديد التي قادها جمال الدين الأفغاني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لم تظهر آثارها في الجزائر إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وإن كانت إرهاصاتها الأولى، قد بدأن منذ أواخر القرن التاسع عشر.

ولهذا فإنّ تلاميذ الأفغاني ومحمد عبده هم الذين أثروا تأثيرا مباشرا على الحركة الإصلاحية في الجزائر. وهناك عوامل أخرى ساعدت على تعميق روح الاتصال بين الجزائر والمشرق والمغرب في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي منها.

1 – قيام جمعية العروة الوثقى التي أنشأها جمال الدين الأفغاني في الهند سنة 1882م بعد احتلال تونس ومصر، حيث اشترك فيها الأمير عبد القادر من الجزائر ومحمد بيرم[1] من تونس وهو تلميذ خير الدين ومحمد السنوسي محرر جريدة الرائد التونسي[2].

**2 – زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر:**

من العوامل التي ساعدت على تعميق التلاقي[3] الجزائري المشرقي زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر في صيف 1903 حيث اتصل برجال الفكر والإصلاح الديني في الجزائر، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الحليم بن سماية ومحمد بن مصطفى بن الخوجة[4]. ويعتبر هذا الأخير أكثر الأساتذة حرصًا على مطالعة كل ما يرد من المشرق من الكتب والجرائد والمجلات وخاصة كتب محمد عبده ورسائله[5].

---

1 – يعتبر من أعضاء الجمعية السرية الإسلامية العالمية التي أسسها جمال الدين الأفغاني وهي جمعية العروة الوثقى، انظر: الفاضل بن عاشور، أركان النهضة الأدبية بتونس، مطبعة الزجاج، تونس، ب.ت، ص 24.

2 – أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، دار الطباعة، القاهرة، 1965، ص 39.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 173.

4 – ولد بعاصمة الجزائر سنة 1281هـ/1865م، وتوفى في شوال 1393هـ سبتمبر 1917م، كتب في جريدة "المبشر"من سنة 1886م – 1901م، درّس في مسجد سفير ابتداء من سنة 1919م.
انظر: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، قسنطينة، 1965، ص 174.

5 – ابن باديس، حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 34.

قال عمر راسم عن الشيخ محمد بن مصطفى بن خوجة: «الشـيخ محمـد بـن مصطفى شاعر الجزائر في وقته... كثير الاطلاع وولوع بالكتب العصـرية شـغوف بمحبة الشيخ عبده وهو الذي أدخل مذهبه إلى الجزائر وعرّف الناس به وبجمال الدين الأفغاني وأصحابهما...»[1].

وقد كان الهدف من هذه الزيارة تقوية العلاقة والروابط بين المشرق والمغـرب العربيين، وبالتالي تكوين فروع لجمعية العروة الوثقى التي امتدت إلى مصر والمغرب العربي.

ولقد لقيت هذه الزيارة للجزائر نجاحًا كبيرًا في أوساط المثقفين. وهناك عوامل كثيرة ساعدت على نجاح هذه الزيارة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – موقف فرنسا نفسها من حركة الشيخ عبده ومن ذلك سماح السلطة الفرنسـية بدخول "مجلة المنار"[2] إلى الجزائر. وهي المجلـة المعروفـة بميولهـا العبدويـة[3]. وغرضها نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والثقافية وإقامة الحجة على أن الإسـلام باعتباره نظامًا دينيا لا يتنافى مع العصر الحالي، ويعتبر المنار خلفًا للعروة الـوثقى[4]. ولم تنتبه فرنسا حينئذ إلى خطورة هذه الصحيفة على مستقبلها في الجزائر.

---

1 – المرجع نفسه، ص 35.

2 – صدر العدد الأول من المنار كصحيفة أسبوعية ذات ثماني صفحات في 22 شوال سنة 1315هـ/17 مارس 1889م، وآخر ما طبع منها ج 2 من مجلد 35 في 29 ربيع الثاني 1354هـ/1935.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين، مجلة الثقافة، العدد 3، السنة 6، فبراير مارس 1976، ص 26.

4 – انظر كتاب عدد 33 من سلسلة أعلام العرب، ص 135 وهو كتاب للدكتور إبراهيم أحمد العروى طبع سنة 1964 بالقاهرة.

2 – وجود شخصية "شارل جونار"[1] الوالي العام على رأس الإدارة الفرنسية وهو الذي وجه الدعوة للشيخ عبده لزيارة الجزائر[2].

ويعتبر "جونار" الشخصية الفرنسية الوحيدة التي استطاعت حتى ذلك العهد أن تعطي لنفسها وجها من السياسة المرنة المعروفة بتعاطفها مع الاتجاه العربي الإسلامي في الجزائر، بعد أن برهنت سياسة البطش والقمع طيلة سبعين سنة (1830 – 1900) على فشلها وعقمها وعجزها أن تفتح قلوب الجزائريين وإن فتحت أراضيهم[3].

الواقع أن "جونار" لم يكن لهذا الإخلاص لا للإسلام ولا للجزائر ولا هو رسول هذه الديمقراطية التي يحاول أتباعه من بعض المشايخ[4] الموظفين أن يصفو بها. أنه

---

1 – "شارل جونار" 1857 – 1927م. شخصية سياسية فرنسية ولى حاكما على الجزائر مرتين الأولى في سنة 1900 – 1911. الثانية من سنة 1918 – 1921، واضع حجر الأساس لجامعة الجزائر سنة 1909، وفي الفترة الثانية لحكمه أصدر قانون 1919 الخاص بتوسيع دائرة النواب المسلمين في المجالس المحلية، يقول د. سعد الله: « وخلال عقد واحد عينت فرنسا على الأقل أربعة حكام على الجزائر كان أحدهم وهو "جونار" معروفا بعطفه القوي على الجزائريين وهو الذي أعلن وبارك الإصلاحات 1919 ». انظر الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 340.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 26.

3 – د. صالح خرفي: "مدخل إلى دراسة الأدب الجزائري الحديث"، الثقافة، عدد 21، السنة 4، جوان جويلية 1974، ص 6.

4 – من هؤلاء المشايخ "شعيب بن علي" قاضي تلمسان أنشد "جونار" بأبيات شعرية نشرتها الدوائر الفكرية الفرنسية في طبعة خاصة في باريس سنة 1908. والأبيات من قصيدة طويلة في مدح الوالي العام وفضائل العلم ومؤتمر المستشرقين الذي انعقد في الجزائر في عهد ولاية "جونار" وقد طبعت مع أعمال المؤتمر ثمّ جردت وطبعت طبعة خاصة ومنها:

| | |
|---|---|
| ولي على القطر الجزائري جهبذا | ذا حكمة في أمره مختار |
| لا ينثني عن رأيه أو عزمه | في حكمه ليث الشرى "جونار" |
| جونار ذاك الشهر من ربه ارتقت | جزائر وسما لها المقدار |
| ذاك المرفع في المحافل قدره | ذاك السمبذع والفتى العمار |
| ذاك الذي يرى الكمال فيما يرى | أهل الشورى من حزبه الأحرار = |

لا يختلف عن بقية الفرنسيين غاية، وإن اختلف عنهم وسيلة فربّما ساقه اجتهاده واستقراؤه للأحداث إلى أنه سينال من الجزائريين باللين واللطافة ما لا ينال بالشدة. وهذا إدراكًا منه لحساسية المنصب الذي يشغله وخطره في آن واحد، ولذلك كان يضرب على الحبلين فرنسي وعربي. فرنسي يحقق مشاريع فرنسا في الجزائر. وعربي يهدئ الوضع العام الجزائري الذي كان ينذر بالانفجار آنذاك.

3 – وأخيرًا دخول أول فرقة عربية تمثيلية للجزائر وقد ظهرت إحدى الصحف في الجزائر سنة 1913 تحمل عنوان رواية "صلاح الدين في الجزائر" وهي تعني بذلك "صلاح الدين الأيوبي" التي ألفها نجيب الحداد[1]. والتي مثلها "جوق الآداب التونسي".

وقد لاحظتْ هذه الصحيفة بأنه لأول مرة – منذ الاحتلال – يصعد فيها الأدب العربي على خشبة المسرح ليتحدث إلى الشعب. ومما لفت نظر الحاضرين هو "عروبة" الموضوع من جميع وجوهه[2]. ولذلك أقبل عليها الجمهور الجزائري إقبالا عظيمًا وحماسيًا، وتساوى فيه الشعب، المثقفون منهم وغير المثقفين[3].

وفي عهد "جونار" انتعشت الصحافة الجزائرية ومنها صحافة ذات ميول عبدوية واضحة. ولعل أول صحيفة عربية وطنية صدرت لا عن مصدر حكومي[4] بل

---

= هذه الأبيات وغيرها من نفس القصيدة في "التقويم الجزائري" لسنة 1329هـ 1911م. لمحمود كحول، مطبعة فونطانة الأخوين، الجزائر. انظر: مجلة الثقافة، مرجع سابق، مقال تحت عنوان: "مدخل إلى دراسة الأدب الجزائري الحديث"، للدكتور صالح خرفي، ص 99.

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 25.

2 – المرجع السابق، ص 26. نقلا عن جريدة الأخبار التونسية، مارس 1913، والرواية تقع في خمسة فصول.

3 – المرجع السابق، ص 26.

4 – أول جريدة عربية صدرت عن الولاية العامة هي "المبشر" وكانت تنشر باللسانين الأوامر الإدارية والتشريعات وتحاول أن تثبت الدعاية ضد الوطنيين الذين هم في نظرها شياطين مشوشون، صدر في سبتمبر 1847 (5 شوال 1262هـ) ثم ملحق جريدة الأخبار الفرنسية 1903 (1320هـ) وكانت قبل ذلك تصدر بالفرنسية فقط ابتداء من 1893م 1255هـ. ثمّ جريدة المغرب أصدرها =

بمجهود صحافي جزائري حر هي جريدة "الجزائر" التي أصدرها الأستاذ الفنان عمـــر راسم سنة 1908م[1] وصدرت أيضًا جريدة "الحـــق"[2] ســـنة 1911م فـــي وهـــران، وصدرت في سنة 1913 جريدة "الفاروق"[3] للشيخ عمر بن قدور، وهو مؤذن ومقرئ القرآن الكريم. ويعتبر هذا الرجل من المدرسة الإصـــلاحية المتـــأثرة بمحمـــد عبـــده وبالمنار، فعزم على مقاومة الخرافات والبدع واستعمل هذه الصحيفة للقيـــام بمهمتـــه، وشعار صحيفته:

« قلمي لساني ثلاثة بفؤادي

ديني ووجداني وحب بلادي »[4]

وقد كان يستعين بما تنشره "مجلة المنار" فينقل بعض مقالاتها في هذه الجريـــدة ويهتم بأخبار العالم الإسلامي. ولم تعش هذه الصحيفة طويلا بحيث لم تزد على عـــام وبضعة أشهر وأبعد صاحبها إلى الأغواط سنة 1915م. كتب فيها أحمد توفيق المدني مقالا تحت عنوان[5] "القرآن الكريم وكيف يجب أن نتعلمه" سنة 1904.

---

=مدير مطبعة فونطانتا وهي راجعة إلى مصدر حكومي صدرت 1321هـ (1903) وجريدة كوكب إفريقيا أصدرها كول محمول ومصدرها حكومي صدرت 1903 واصدر بعد ذلك التقويم الجزائري. واستمرت مدة ثلاث سنوات، من 1329هـ (1911) إلى 1331هـ (1913) فيها آثار أدبية جزائرية لتلك الفترة. انظر: ابن باديس: حياته وآثاره، إعداد وتصنيف د. عمار الطالبي، م 1، ج 1، دار اليقظة العربية للنشر والتوزيع، دمشق، 1968، ص 55.

1 – ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 55.

2 – يجب عدم الخلط بينها وبين الحق التي صدرت في 1893 والحق التي صدرت ببسكرة في سنة 1926. انظر: د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، (1847 – 1939م) الجزائر، 1980، ص 33.

3 – د. محمد ناصر، مقال بعنوان: "رائد الدعوة إلى التضامن الإسلامي عمر بن قدور"، الأصالة، العدد 59/58، السنة 7، جوان جويلية 1978، ص 58.

4 – نقلا عن د. عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 55.

5 – المرجع السابق، ص 56.

ويعتبر الشيخ عمر بن قدور – بهذا العمل – الجزائـري الأول الـذي تخطـى الصفوف في جرأة صادقة، وصرح بمعتقده دون خوف أو وجل، وأخلص للدعوة إلـى القومية الإسلامية الإخلاص كلّه، وتحمل عبأها وحده وكرّس لها نفسه طـوال عمـر "الفاروق"، 1913 – 1915 وقال ذلك بمقالاته التي كان يبعـث بهـا إلـى "جريـدة الحضارة" في الأستانة، واللواء، والمؤيد بالقاهرة[1].

وكان في ذلك يدعو إلى التضامن الإسلامي، والجامعة الإسلامية، التي كان ينظر إليها بعض الأوروبيين على أنها نذير "بحرب صليبية" يدفعـه إيمـان قـوي بوجـوب التضامن والتعاون بين المسلمين فقدم للأمة الإسلامية مشـروعًا عظيمًـا يكـون نـواة للتعارف بين أبنائها عندما راح يسائلهم: « ... هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكري مسلمي الجزائر، وتونس، والمغرب الأقصى، تدعى: "جماعة التعاون الإسلامي"[2]».

ثمّ عاد الأستاذ الفنان عمر راسم وأصدر جريدة أخرى "ذو الفقار"[3] سنة 1913 باسم مستعار هو "ابن منصور الصنهاجي" وكانت جريدة (عربية اشـتراكية انتقاديـة) وهي أول جريدة عربية اكتشفت الخطر الصهيوني. وحذرت منه فـي سـنة 1914. «ولم يزل صاحب (ذو الفقار) يواصل نشاطه في اتجاهه التحرري حتّى القـي عليـه القبض مع بداية الحرب العالمية الأولى، وحوكم عسكريا وأصدر عليه الحكم بالأعمال الشاقة، ثمّ افرج عنه بعد الحرب»[4].

---

1 – د. محمد ناصر، رائد لدعوة إلى التضامن الإسلامي عمر بن قدور الجزائري، مرجع سابق، ص 463.

2 – المرجع السابق، ص 59.

3 – وهو اسم لسيف الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

4 – د. صالح خرفي، مدخل إلى دراسة الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 40.

إنها جريدة عبدوية إصلاحية لا تخرج عن الطريقة التي خطها لها رجال الإصلاح المخلصون، ومما اتخذته مبدأ لها بعدها عن السياسة لأنها كلما دخلت في شيء إلا وأفسدته [1].

وهي الجريدة الجزائرية العربية السابقة إلى الاهتمام بالإخراج بما كانت تنشره من رسوم يدوية على صفحاتها الأولى، ترمز بها إلى أهدافها الإصلاحية وهي من رسم صاحب الجريدة نفسه. فقد كان يجمع إلى براعته في الرسم إبداعًا في الخط العربي والفرنسي أيضًا. كان ينم عنه ويعرف بصاحب الجريدة الحقيقي. فنرى في الصفحة الأولى من العدد الأول رسم رجل مصري الهيئة والزي (لعله يشير إلى عبده) يحمل سيفا وتحت رجليه رأس إنسان ذميم الخلقة أشعث الشعر، وكتب تحت هذا الرسم (ذو الفقار)... « بعثت لأقتل النفاق والحسد والكبر والشرك من قلوبهم... وأبعث فيهم الصدق والتسامح والتواضع والإيمان الخالص، وحب الخير لبعضهم والتعاون فيما بينهم »[2].

وقد نشر صاحب جريدة "ذو الفقار" في العدد الثالث قصيدة حماسية لعنتر بن شداد ومقالات بعنوان "الإسلام والمسلمون" مفاده أن سبب تأخر المسلمين يعود إلى انفصالهم عن الشريعة الإسلامية. ومقالا آخر نقله عن المنار يعالج مشكلة المقلدين للإفرنج وفسادهم الأخلاقي[3]. ورسم صورة ترمز إلى رجل مقلد للغرب يطلب من زوجه أن تخلع لباسها العربي لتتعلم الرقص ولتتمدن فأجابته بأن لباسها القومي لا يكون عائقًا عن التمدن[4].

وفي سنة 1919 صدرت جريدة "الإقدام" باللسانين كما اصدر الحزب المعارض له "النصيح" وفي السنة نفسها أصدر الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي جريدة "النجاح" التي

---

1 – نقلا عن الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 38، 39، 40.

2 – نقلا عن الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص 40، 41، 42.

3 – ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 56.

4 – سعد الدين بن أبي شنب: "النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن العاشر الهجري"، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، 1964، ص 62، 63.

كانت حرة واشترك الشيخ عبد الحميد بن باديس في تأسيسها ثمّ انفصل عنها، بعد أن انحرفت هذه الجريدة وارتبطت بالحكومة الفرنسية وأصبحت سنة 1930 جريدة يومية يطبع منها 5000 نسخة في اليوم[1].

وفي سنة 1924 أصدر عمر بن قدور الجزائري جريدة "الفاروق" من جديد. وكانت أسبوعية ثمّ اشترك مع محمد بن بكر في إصدار جريدة "الصديق". وصدرت "لسان الدين" جريدة أسبوعية دينية سياسية سنة 1923 أصدرها مصطفى حافظ وابن عبد العزيز حسن. وفي سنة 1925 صدر "المنتقد"[2]. فتوقف بعد صدور ثمانية عشر عددًا[3] منه ثمّ خلفه "الشهاب" في نفس السنة فكان أسبوعيًا ثمّ انتقل سنة 1929 إلى مجلة شهرية ومؤسسها هو الأستاذ عبد الحميد بن باديس. واستمرت الشهاب في أداء رسالتها إلى الحرب العالمية الثانية فتوقفت في سبتمبر 1939[4].

هذه هي أهم الصحف الوطنية الإصلاحية التي صدرت في عهد "جونار" وهي – كما أسلفت – ذات ميول وأفكار عبدوية واضحة. وكلها تدل على النشاط الفكري وعلى ظاهرة القلق التي هي علامة على اليقظة والوعي والمسؤولية، وخطوة في سبيل تغيير المظاهر الاجتماعية، ومحاولة لإعادة المجتمع إلى أداء وظيفته التاريخية.

هكذا أدرك المصلحون في الجزائر أهمية الصحافة في إيقاظ الشعور الوطني، وحماية النهضة، وفي رد المعتدين وفضح المستعمرين. ودعوا من خلالها إلى نبذ الخرافات والبدع والمناكر التي تفسد الدين، وإلى التربية والتعليم، ونفخوا روحهم في الأمة

---

1 – عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 58.

2 – جريدة تمثل (لسان نخبة الشباب) صدرت في يوم الخميس 11 ذي الحجة 1343هـ، 2 جويلية 1925م. ويذكر د. عمار الطالبي استنادًا إلى العدد الأول من "المنتقد" أن الجريدة لم تصدر في سنة 1924 ولا في سنة 1926 كما يذهب إلى ذلك البعض. انظر: كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، ص 370. فإنّه جعلها صادرة في سنة 1926 وتاريخ الجزائر لآخرين، ص 88، حيث جعل صدور الشهاب سنة 1924م.

3 – ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 58.

4 – المرجع السابق، ص 59.

فزادت يقظة وجرأة على مخطط الاستعمار الذي يهدف إلى تغليب ظـاهرة الخمـود فـي أوساط المنظمات الإصلاحية التي كانت تبذل جهودها للقضاء على هذه الظـاهرة وإيجـاد نوع من الحرية الاجتماعية التي تهدم الفاسد وتنمي الصالح.

هكذا يقوم في داخل المجتمع نوع من الجدل بين السكون والحركة. وهو ما كان له تأثير كبير على بلورة أفكار الشيخ محمد عبده في الجزائر. وقـد علـق الـدكتور "عثمان أمين" على زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر في كتابه "رائد الفكـر الإسـلامي محمد عبده" المنشور سنة 1945 فقال: «كان على الأستاذ الإمام إبـان عودتـه مـن أوروبا أن يقف بنفسه على أحوال المسلمين في شمال إفريقيا فقام بجولة إلى الجزائـر وتونس. وقد اكتشف هناك كما قال الكاتب في جريدة "لوتان" وجود (حزب)إصـلاحي كبير ينتمي اليه»[1].ومن أنصار دعوة الإمام عبده في الجزائر الشـيخان محمـد بـن مصطفى بن الخوجة، وعبد الحليم بن سماية وقد خص هذا الأخيـر الإمـام بالمـدح والثناء في قصيدة بليغة نشرتها "مجلة المنار" لرشيد رضا[2].

ويبدو أن زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر لم تكن مجهولة في أوساطها العلمية والثقافية. ومما يدل على هذا التأثر بالحركة العبدوية، والاهتمام بها التهمة التي وجهها أحد الفرنسيين المدعو "فيليب ميللي" للشيخ عبد الحليم بن سماية حين قال: «إنّه كـان على علاقة مع القاهرة وأسطنبول[3] (حركة القومية الإسـلامية) لزيارتـه المتكـرر

---

1 – المهدي البوعبدلي: "جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر، الأصالة، العدد 82/81/80/79، السنة 9، مارس أفريل ماي جوان سنة 1978، ص 77.

2 – المرجع السابق، ص 77.

3 – هناك حركة قومية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني ظهرت هذه القومية كرد فعل على سياسة التتريك، وبدافع من الغرب لضرب الإسلام وتفريق المسلمين، ما بين الغرب وغير العرب. ولما أدركت الدولة الاستعمارية أهمية هذه الجامعة بالنسبة لمصالحها وأهدافها الاستعمارية حاربت هذه الفكرة. وجاءت بفكرة بديلة هي إنشاء جامعة للدول العربية وهي فكرة من تدبير الإنجليز في السنوات 1901، 1942، 1943. حتّى تمّ إنشاء الجامعة العربية سنة 1945، انظر المصادر التالية: =

هناك»[1]. وهناك أخرى تشهد بصيرورة الأفكار الإصلاحية لمحمد عبده، ومدرسة المنار في الجزائر في بداية القرن العشرين. ويعتبر الشيخ محمد عبده من الدعاة الأولين إلى تكوين الجامعة الإسلامية، هدفها عقد العاطفة الدينية والثقافية بين الشعوب الإسلامية وفي بناء جسور بينها وبين المصلحين بغض النظر عن أي اعتبار سواء كان عرقيًا أو جغرافيًا[2].

ولذلك فإنّ أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والاجتماعي في الجيل السابق لجيلنا هي صحيفة الإمام عبده. وقد كان لدعوته – إلى تخليص الإسلام من البدع والخرافات – الأثر الطيب والوقع الحسن في نفوس الجزائريين، بعدما اكتشفوا مؤازرة بعض مشايخ الطرق الصوفية للمستعمرين، وتثبيط حركة المقاومة في الجزائر.

ويذكر الأستاذ علي مراد: «إنّ الإمام عبده لم يغادر الحياة حتّى بدأت أفكاره تبرز بشكل واضح في عقول الجزائريين. وقد كان لأنصاره في الجزائر تأثير كبير على المجتمع رغم قلتهم. ومن هؤلاء الأستاذ عبد الحليم بن سماية الذي كان أستاذًا بالمدرسة الرسمية في الجزائر العاصمة. وأحد الدعاة البارزين المتحمسين للنهضة الإسلامية. وكانت له سلطة أخلاقية كافية ليساهم في تعميق الإصلاح في الجزائر»[3].

---

= – د. عبد الوهاب العشحاوي: شرح في جدار الجامعة العربية، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1980، ص 15، 36، 40، 53، 61.

– عمر صدوق: قضية الصحراء الغربية في إطار القانون الدولي العلاقات الدولية وأطروحة ماجستير غير منشورة المركز الجامعي بتيزي وزو، 1982، ص 126.

– يحي الجمل: الجامعة العربية نظرة شاملة، مقال في مجلة شؤون عربية، عدد 10، ديسمبر 1981.

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 173.

2 – MERRAD A, op.cit, p. 372.

3 – Idem, p. 34.

وقد نوه الشيخ البشير الإبراهيمي وهو يؤرخ[1] للحركة الإصلاحية في الجزائر خلال العشرينيات بهذا الدور الرائد للحركة المشرقية في الجزائر وخص بالمدح "مجلة المنار" التي اعتبرها المصلحون[2] في الجزائر مدد الحياة لنا فإذا انقطع انقطعت الحياة عنّا [3].

والجدير بالملاحظة أنه رغم الحصار الذي فرضه الاستعمار على الجزائر بحيث كادت أن تكون معزولة عن العالم العربي الإسلامي فإنّها ما لبثت أن أصبحت مرتعًا خصبًا لدعاية النهضة الإسلامية، ومما يدل على ذلك « أن الكثير من الحوادث في الشرق كانت لهذا أصداء في الجزائر. ومن ذلك إعلان (ثورة بوعمامة) في الجزائر عقب احتلال فرنسا لتونس، وكذلك نشوء الجمعيات السرية لنشر النهضة الإسلامية. وبتشجيع من السلطان عبد الحميد الثاني. ومن ذلك أيضا قيام حركة نشيطة في التسعينيات من القرن الماضي لتشجيع الجزائريين على الهجرة إلى المشرق العربي طلبًا للعلم »[4].

وبهذه الصورة عاشت الجزائر ما يمكن أن يسمى بعصر اليقظة العربية، وحركة الجامعة الإسلامية. فقد كان الشيخ "عبد القادر المجاوي"[5] وهو من علماء قسنطينة قد نشر في القاهرة كتيبًا[6] صغير الحجم سنة 1877 دعا فيه الشباب العربي

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، ص 463.

2 – من هؤلاء الشيخ عبد الحليم بن سماية، والشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة.

3 – انظر: رشيد رضا، تاريخ الإمام عبده، مطبعة المنار، 1350هـ/1937ن، ج 1، ص 871.

4 – د. حنفي بن عيسى، تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص 114.

5 – ولد سنة 1266هـ أو 1267هـ (1848م) بتلمسان من أب يدعى محمد بن عبد الكريم وهو من الفقهاء والقضاة. قرأ المجاوي في كتاب تلمسان، محفظ القرآن الكريم وأتمه بعد ما ارتحل أبوه إلى طنجة وتطوان ثمّ فاس. وأكمل دراسته بالقرويين. انظر: الحفناوي تعريف الخلق برجال السلف، ج 2، ص 22 طبعة الجزائرية.

6 – اسم هذه الكتب إرشاد المعلمين.

المسلم إلى الأخذ بالحضارة الحديثة، وتعلّم جميع المعارف الغربية[1]. وقد ألف الشيخ المجاوي كثيرًا من الكتب المدرسية والتربوية وهذا مما يدل على أنه ذو اهتمام بالغ بالتربية وعلى أن الإصلاح في نظره إنّما يتم عن طريقها.

وألف أيضًا "المرصاد في مسائل الاقتصاد" طبع بمطبعة فونتانا الشرقية بالجزائر. وشرح "منظومة[2] في إنكار الفساد الاجتماعي" وقدم لشرحه بمقدمة ذات أهمية في بيان ضرر البدع، وضرورة النهضة العلمية وقرر أن السبب الرئيسي في النهضة إنّما هو العلم[3].

ويلاحظ أن من مظاهر تأثير المشرق الإسلامي في الجزائر بعد انتشار الحركة الإصلاحية بها شيوع اسم "جمال الدين" في الأسرة الجزائرية بحيث كان الآباء والأمهات يسمون أبناءهم باسم "جمال الدين" تيمنا بجمال الدين الأفغاني. بالإضافة إلى ظاهرة انتشار الكتب المشرقية كتفسير المنار والعروة الوثقى، ورسالة التوحيد. وقد كانت ذائعة الصيت بشكل لا يكاد يجهله كل مثقف بالجزائر.

وقد اعترف الإبراهيمي بهذا التأثير على الحركة الإصلاحية الجزائرية وخص بالمدح زعيمين وهما "الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا" فقال: « إنّ جمعية العلماء

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين، مرجع سابق، ص 25.

2 – منظومة في إنكار البدع ألفها الشيخ المولود بن الموهوب وشرحها المجاوي بشرح أسماه "اللمع على نظم البدع" مطلعها:

صعود الأسفلين به دهينا     لانا للمعارف ما هدينا

طبع في الجزائر سنة 1330هـ/1912م به 198 صفحة قرضها محمود كحول. انظر: ابن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف الدكتور عمار الطالبي، المجلد الأول، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 20.

3 – ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 20.

مدينة بالكثير لرضا ومجلة المنار»[1]. وقد أكد بأن جهود الجمعية لها جذور عميقة في مبادئ وأعمال رضا[2].

ويبدو أن الأستاذ عبد الحميد بن باديس كان أكثر تأثرًا بهذه الحركة. وذلك أنه عمل على غرارها من أجل التجديد في الفكر الديني، وفي الفكر السياسي. ولعل ذلك واضح من قصيدته الشهيرة التي يعرفها العام والخاص من أبناء الجزائر والتي مطلعها:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ومما ساعد على تعميق حركة الإصلاح في الجزائر خلال العشرينيات، عودة بعض المثقفين إلى الجزائر من المشرق والمغرب العربيين ممتلئين علمًا وأخلاقا.

**4 – عودة بعض المثقفين إلى الجزائر من المشرق العربي:**

وقد كان لهؤلاء المثقفين دور كبير في بعض حركة الإصلاح في الجزائر، ومن بينهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تخرج من جامعة الزيتونة بتونس سنة 1912، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تخرج من الحجاز وعاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، ثمّ الشيخ الطيب العقبي المتخرج من الحجاز، والشيخ بن بلقاسم التبسي المتخرج من جامع الأزهر بالقاهرة في أواخر العشرينيات[3].

وأخيرًا فإنّ الفضل في بعث الحركة الإصلاحية في الجزائر عامة وفي منطقة القبائل خاصة خلال فترة الدراسة (1920 – 1945) وقبلها يعود إلى هؤلاء جميعًا. وابتداء من عام 1925 ظهر ما يمكن أن يسمى بالحركة الإصلاحية في الجزائر. ولاسيما بعد ظهور جريدة "المنتقد" سنة 1925 المعروفة بآرائها الإصلاحية وانتشر دعاتها في شتى المناطق من القطر الجزائري. منها منطقة القبائل، والسؤال المطروح ونحن بصدد

---

1 – نقلا عن د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 441.

2 – المرجع نفسه، ص 442.

3 – د. تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، مرجع سابق، ص 104.

الحديث عن حركة الإصلاح في هذه المنطقة هو كيف دخل الإصلاح أو بالأحرى كيف نشأت الحركة الإصلاحية في هذه المنطقة، وما هي أهم العوامل التي ساعدت على نشأتها، وما أثرها؟ هذه هي أهم العناصر التي سأحاول الإجابة عنها فيما يلي:

## نشأة الحركة الإصلاحية في المنطقة وعواملها

أشير إلى نقطة هامة وهي أن حركة الإصلاح في منطقة القبائل لم تبدأ بجمعية العلماء ولم تكن منظمة في البداية، إذ هي عبارة عن محاولات لأفراد قليلين تعود أسبابها إلى عوامل كثيرة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – جهود أبناء المنطقة التعليمية. ومن هؤلاء العالم الجليل الشيخ أحمد زروق[1] الذي انتصب للتدريس في بجاية خلال القرن التاسع الهجري (15م). وبظهوره تكونت في المنطقة نواة اشتهرت بالإصلاح الديني والتربوي.

ويعتبر الشيخ أحمد زروق من أبرز العلماء الذين حاولوا التوفيق[2] بين السلفية والتصوف. ومن مؤلفاته "قواعد التصوف"، وقد بسط هذا الكتاب العلامة الشيخ عبد الرحمن الأخضري خلال القرن العاشر الهجري (16م) وهو المعروف "بالمنظومة القدسية". وقد شرحه الورتلاني صاحب الرحلة تعرض فيه للصراع الفكري الذي ساد منطقة القبائل خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م) [3].

---

1 – يسمى أحمد زروق البرنوصي البجائي الطرابلسي لأنه توفى في طرابلس، عاش في بجاية وقسنطينة وتلمسان وألف معظم كتبه أثناء ذلك. ونظرا لمكانته العلمية والأدبية، رثاه الورتلاني صاحب الرحلة في قصيدة طويلة مطلعها:

ألا أيها القطب الهمام تعلقت    مجامع قلبي بالعيد المنور

انظر: د. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 350.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 350.

3 – معلومات مسلة لي من الشيخ البوعبدلي من وهران، بتاريخ 1981/3/7. وقد أكد لي هذه المعلومات د. سعد الله، في مقابلة بتاريخ 1983/6/10.

ويذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الشيخ محمد بن علي الخروبي هو الذي نقل الطريقة الزروقية إلى الشيخ عبد الرحمن الأخضري[1]، هذا بالإضافة إلى ما قامت به بعض المؤسسات القرآنية الصالحة المنتشرة عبر القرى. ولذلك لا ينبغي أن ننسى دور هذه المؤسسات التعليمية في تمتين حركة الإصلاح في المنطقة إلى درجة أنها أعانت هذه الحركة على الظهور وتقوية صلتها بالثقافة الإسلامية بشكل واسع.

هكذا كانت منطقة القبائل تساير الحركات العلمية القائمة في النواحي الأخرى من القطر الجزائري، وفي الأقطار العربية من حيث التأثير والتأثر بها. ولقد كانت هذه الزوايا[2] شبيهة إلى نحو ما بمراكز علمية يجتمع فيها فقهاء ومحدثون وخطباء، وكانت المنطقة بذلك عاصمة العلم والثقافة قديمًا وحديثًا[3].

وفي بداية هذا القرن ظهر في المنطقة مثقف قبائلي يدعى: الشيخ السعيد بن الزكري "الزواوي" صاحب كتاب "أوضح دلائل في وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل" الذي ألفه سنة 1903 ونادى خلاله إلى إصلاح المؤسسات المرابطية[4] في ربوع خيم فيها الجهل، ورؤوس عشش فيها الوهم والضلال[5]، والكتاب من حيث المحتوى يعطي صورة واضحة تعكس بصدق روح المثقفين الجزائريين في حالة اليقظة. ولذلك فإنّ الشيخ ابن الزكري بكتابه هذا يكون أول من ابرز فكرة أساسية للإصلاح الديني والاجتماعي في المنطقة في بداية هذا القرن. من ذلك رده على من يحاول التفريق بين السكان قوله: «إنّ القبائل وإن كثر أفرادهم، واختلفت عوائدهم، وتباينت في الأغراض مشاربهم، فقد أجمعوا من حيث الدين»[6] كما تحدث أيضا عن

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، 2، مرجع سابق، ص 507، 508.

2 – عن دور هذه الزوايا الديني والتعليمي وحتّى السياسي، انظر الفصل السابق من هذا البحث.

3 – الشيخ باعزيز بن عمر: الإصلاح وأثره في منطقة القبائل، مجلة الشهاب، ج 12، م 10، 9 نوفمبر 1934، ص 526.

4 – MERRAD A., op.cit., p. 35.

5 – باعزيز عمر، الإصلاح وأثره في منطقة القبائل، مرجع سابق، ص 526.

6 – الشيخ ابن الزكري، أوضح دلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مرجع سابق، ص 11.

سلطة المرابطين المتعصبين على العامة حتى أصبحوا أرقاء لهم منقادين لكل مدع يدعي ولو بهتاناً.

وهم في نظره متطفلون على الدين بما أحدثوه فيه من بدع وخرافات كزيارة القبور والذبح عليها والتوسل بها، وما إلى ذلك من اختلاط الرجال بالنساء وهي أعمال خارقة للعادة وخارجة عن الشريعة الإسلامية[1]، كما تحدث عن العلم منوها بفضل الزوايا وبعض المشايخ الذين خدموا الثقافة الإسلامية في هذه المنطقة وفي أوقات حالكة جدًا، أمثال الشيخ عبد الرحمن اليلولي، والشيخ محمد السعدي البهلولي ورفيقه محمد العربي الحرزوني البتروني والشيخ الطاهر بن الشريف الجنادي[2]. دون أن ينسى التعريض بأعمال بعض المرابطين المحتكرين للعلم والذين يدعون لأنفسهم الشرف. ومما يدل على هذا الاحتكار قول ابن الزكري «لو سألت أحدًا هل تعلمت شيئًا من القرآن كان جوابه أنا لست من المرابطين»[3] وهذا يفسر لنا سبب انتشار الأمية بين الناس لتمسكهم بمثل هذه العادات الفاسدة. وأخيرًا أدى إلى إعادة النظر في أمر الزوايا التي كان يعتبرها قبلة العلم والعلماء، ومنتقدًا طرق التدريس العقيمة القائمة بها، ونصح باستعمال الطرق الحية والاستفادة من العلوم العصرية[4]. ذلك ما سأتعرض له في تحليل لاحق مبينًا موقف المصلحين من طرق التعليم بهذه الزوايا بشكل أكثر تفصيلا.

هكذا بدأت فكرة الإصلاح في المنطقة وهي في الواقع لم تكن منظمة في البداية كما أسلفت. وما يدل على ذلك قول الدكتور أبو القاسم سعد الله «الواقع أن حركة الإصلاح لم تبدأ بجمعية العلماء، فالحركة كما عرفنا تعود إلى العقد الأول من هذا القرن ثمّ تبلورت واتضحت على يد ابن باديس وتلاميذه، وأنصاره خلال العشرينيات وخلال هذا العقد نشأت الصحافة الإصلاحية، وتأسست النوادي، وبنيت المدارس

---

1 – المرجع نفسه، ص 14، 15.

2 – المرجع نفسه، ص 43.

3 – المرجع نفسه، ص 47.

4 – المرجع نفسه، ص 16.

الحرة، والمساجد للوعظ والإرشاد في كثير من والقرى الجزائرية، وكان ابن باديس العصب المحرك لهذه الحركة بشخصيته وقلمه، ولسانه وتلاميذه وسمعته»[1] وهو ما كان له تأثير بالغ على هذه الحركة وخاصة عن طريق دروسه.

**2 – تأثير دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس:**

من المعروف أن للدروس التي كان يقدمها الشيخ عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر وسيدي قموش في قسنطينة عام 1913 الأثر الطيب في النفوس حيث كان إقبال الناس عليها كبيرا، لينهلوا من معينها بكل جد وإخلاص. وقد كان المريدون من بني عباس من المواظبين على حضور دروسه رغم أنهم يسكنون بعيدين عن قسنطينة فإنّ عددهم قد بلغ (40)[2] تلميذا ومن هؤلاء الشيخ صادق عيسات من بوجلين. والشيخ حسن حموتن من تيزي وزو، والشيخ العربي عيسى المدعو بالشيخ القمقوم. والهادي حجرس قائد الناحية العسكرية في قسنطينة ومحمد الشريف ابركان من القبائل الصغرى[3]. وإلى جهود هؤلاء يعود الفضل في إعادة النظر في أمر التعليم في هذه المؤسسات الثقافية.

**3 – إصلاح التعليم بالزوايا:**

ولعل الباعث الأساسي والأول إلى إعادة النظر في أمر الزوايا في المنطقة "جبال جرجرة" يعود إلى تشبع بعض المصلحين بفكرة الإصلاح التي عرفتها المعاهد والمدارس بالأزهر الشريف أمثال الشرفاوي[4] والمولود الحافظي وأبي يعلى الزواوي. ومن قول الأستاذ باعزيز بن عمر بخصوص فضل هؤلاء على الحركة

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 89.

2 – الأستاذ باعزيز بن عمر، الإصلاح وأثره في منطقة القبائل، مرجع سابق، ص 526.

3 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ مولود الطياب الموظف بوزارة التربية بتاريخ 1982/03/21.

4 – (3، 4، 5) انظر تراجمهم في ملاحق هذا البحث.

الإصلاحية، بهذه الناحية: « من حسن حظنا أن سرت هذه الفكرة، فكرة إصلاح التعليم العربي إلى الجزائر، وصوبت سهامًا إلى هذه الزوايا بصفتها معاهد علمية ومدارس نظامية قديمة قد طرأ عليها من الاختلال والتغيير في نظامها ما جعل التعليم فيها عقيما، فكانت في أشد الحاجة إلى إدخال الإصلاح فيها »[1].

ومن مظاهر الإصلاح في هذه الزوايا إرسال البعثات العلمية وعلى نفقات الزوايا إلى الخارج وإلى قسنطينة، حيث المنهل العذب وإلى الزيتونة، حيث يسمع الطالب على الأقل بفكرة الإصلاح، ويجد نظاما أرقى من نظام الزاوية، وهذه هي الخطوة الأولى لإصلاح التعليم بزوايا المنطقة، في نظر رجال الإصلاح.

ومن المتحمسين لهذه الفكرة الشيخ باعزيز بن عمر، الذي كان يرى بأن الوقت قد حان لبعث بصيص من النور في قلوب الطلبة بتشجيعهم وتنشيطهم قولا وفعلا على النزوح والخروج بأنفسهم إلى حيث يعودون بالنفع الكبير[2].

هكذا نجد المصلحين مهتمين كثيرا بإصلاح وضعية التعليم بالزوايا وما ينجم عنها من آثار سيئة على الناشئة، ولذلك انتقدوا أساليبها التعليمية العقيمة، وكشفوا الوسائل الإرهابية التي يستعملها مشايخ الزوايا في قهر أولئك الصبية البائسين كتسخيرهم لأعمالهم الخاصة من سقي وزرع وبناء، ونددوا بما كانوا يتعرضون له من إهانة في المعاملة، وقسوة بالغة بدعوى الترويض النفسي، وبينوا كيف يعيشون بين أنياب البؤس تنتابهم الأمراض وتشوههم الأوساخ. يقول الأستاذ باعزيز بن عمر في هذا المعنى: «ولقد شاهدنا كثيرًا من طلبتها قضوا أشطارًا من أعمارهم في رحابها ولم يخرجوا منها حتّى أنشد كل واحد على نفسه متحسرًا نادمًا على ما فات قوال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما

فأخبره بما فعل المشيب

---

1 – باعزيز بن عمر: الكلام عن إصلاح التعليم بهذه الزوايا...، الشهاب، ج 2، م 9، فيفري 1933، ص 77، 88.

2 – المرجع نفسه، ص 75.

وهذا كله راجع إلى عدم النظام الذي يحدد مدة التعليم للطالب في كل ما يزاوله من العلوم... يضمن له النجاح»[1]. أما الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي فإنّه يدعو إلى وجوب المبادرة[2] إلى تغيير المناهج المتبعة في الكتاتيب القرآنية، واستبدال مناهج الدراسة بها حتى تتماشى مع روح العصر وتستجيب لمتطلباته. وقد دعاه إلى ذلك ما رآه من نتيجة التعليم السيئة التي يروح ضحيتها عدد وفير من أبناء القطر الجزائري، لأن أكثر الآباء يزجون بأبنائهم في هذه الكتاتيب تدفعهم إلى ذلك عاطفتهم الدينية، وحرصهم على تحفيظ أبنائهم كتاب الله بدون أن يتعلموا إلى جانبه مبادئ اللغة العربية.

ويرى الكاتب أن المسؤولين الأولين في ذلك هم المربون الذين يجهلون أساليب التعليم السليمة بحيث إذا سألت المتعاطي للقرآن الكريم عن حالته في التعليم أجابك بأنه وصل إلى سورة كذا وكذا، وإذا ناقشته في فهم آياته أجابك بأحد أمرين، إما بقلب المعنى، أو بدعوى الجهل بالكلية، وإذا سألته عن مدة تعاطيه للقرآن أجابك بأنه ابتدأ القرآن منذ طفولته.

هكذا يهدف المصلحون في الجزائر عامة، وفي المنطقة خاصة إلى إصلاح أمر التعليم وتنظيمه، ولاسيما التعليم التابع للمؤسسات المرابطية باعتباره تعليمًا "قروسطيا"[3] وذلك بإدخال أساليب بيداغوجية جديدة إليها تتماشى والقدرات العقلية للأطفال.

هكذا عرفت زوايا جبال جرجرة تطورا كبيرا خلال فترة الدراسة (1920 – 1945) على يد المصلحين الذين آلمتهم الحالة السيئة التي وصل إليها التعليم بها. فوجهوا إليها سهامًا محرقة، ومما يدل على ذلك وصفهم لما يجري في خبايا هذه الزوايا من وسائل التعذيب والقهر وما يتعرض له الطلبة بها من فنون الإهانة وألوان الإذلال. كما نددوا بتلك المعتقدات الاتكالية التي تدعو الطلبة إلى الرضى والاستسلام

---

1 – عبد الحفيظ الهاشمي: "تهذيب التعليم بالمكاتب القرآنية"، النجاح، ع 186، 12 نوفمبر 1924.

2 – انظر: مبارك الميلي، "التعليم الديني في الجزائر وحظ الزوايا منه"، الشهاب، ع 13، 1926/2/3.

3 – MERRAD A., op.cit, p. 352 -.

والقعود عن الحركة والعمل. « حتى عدوا الطالب الناجح هو من جعل نفسه آلة بين أيدي مشايخه لا يبت في أمر ولو من أموره الشخصية»[1].

وقد وصف ابن باديس في مقال له ما ينتج عن تلك الأساليب العقيمة المتبعة في بعض الزوايا الطرقية. وبين الضرار التي تلحق الطلبة من جرائها أثناء حياتهم الدراسية أو في مستقبل حياتهم العلمية فقال: « الذي يعد متخرجًا منها بعد مقاساة لآلام الغربة لا يقوى على تركيب جملة بسيطة بل على وضع إمضائه. وإنّما قصارى معلوماته أنه يكون مستعدا لترشيح الناس له إماما في مسجد ولو كان جاهلا لشروط الإمامة، ومتعهدًا من جهة أخرى ببسط راحته وإرخاء أذياله للتقبيل وبتعليم الصبيان»[2].

ذلك أن التعليم بأغلب المعاهد والزوايا إذ ذاك كان عقيمًا لا يهيئ من يمارسه للحياة وإنما يقتل شبابه، ويجمد مواهبه، ثمّ يلفظ إلى المجتمع كهلا أو شيخا ليتعثر بقية حياته ويتذبذب فلا هو حي ولا هو ميت[3].

هكذا وبفضل جهاد المصلحين أصبح الشعب الجزائري بصيرًا بهذه الطرق التعليمية العقيمة المتبعة في بعض الزوايا، وبأخطارها على الناشئة، وبالسياسة الفرنسية التي أعانت أرباب الزوايا على ما هم فيه من ضحالة. فما من أحد يستأذن منها لفتح زاوية قصد نشر الخرافات وقتل المواهب إلا واستجابت له بكل سرعة، وأذنت له وربما أعانته بالمال ومنحته وسامًا جزاء ما قتل من العقول وأمات من الفكر والشعور وهي كما يقول الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون: « لم تنشط العلم العربي ولم تأخذ بأيدي المسلمين، بل ربّما ناهضت بعض العلماء الناهضين لإصلاح الأمة

---

1 – د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها أعلامها، المجلد الأول، مرجع سابق، ص 29.

2 – الشيخ عبد الحميد بن باديس: "أساليب التعليم في منطقة القبائل"، الشهاب، ج 6، رقم 5، جويلية 1929.

3 – محمد الصالح الصديق: "باعزيز بن عمر"، مقال نشر بمجلة أول نوفمبر، اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين، العدد 38، 1979، ص 34.

إصلاحا دينيا، وإذا طلب أحدهم من الحكومة أن تأذن له في فتح مدرسة ابتدائية لم تجبه إلى ذلك »[1].

## 4 – مقاومة نشاط التبشير المسيحي

لا نجافي الحقيقة إذا قلنا بأن الدافع الأساسي الذي عجّل بحركة الإصلاح في الجزائر عامة وفي المنطقة خاصة يعود إلى أعمال هؤلاء المبشرين. ولذلك فإنّ المصلحين الذين آلمتهم الوضعية البائسة من جراء السياسة التبشيرية[2] لم يقفوا أمام هذا الوضع الخطير مكتوفي الأيدي بل راحوا يعارضون هذه الأعمال، وخاصة بعدما ازداد عود الحركة الإصلاحية صلابة في الجزائر سنة 1925.

وابتداء من هذا التاريخ تبين للمصلحين أنه من الحكمة العمل على مقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي أراد الاستعمار تحقيقها في الجزائر عامة وفي المنطقة خاصة. وذلك حتّى يصفو الجر للحركة الإصلاحية ويتسنى للمصلحين الأخذ بزمام الأمة الجزائرية المسلمة، وقيادتها نحو السلفية الصالحة، وإلى منابعها الأولى.

وقد كان رد فعل المصلحين تجاه هذه الحركة التبشيرية قويًا، ويتجلى ذلك في النهضة العلمية والدينية التي بثها الشيخ عبد الحميد بن باديس في دعوته العامة للشعب الجزائري، وفي النوادي الثقافية والجمعيات الخيرية العديدة التي كونها بنفسه في مختلف المناطق من القطر الجزائري، قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبعدها، وفي المقالات الإصلاحية الدينية والأخلاقية التي كان ينشرها في "المنتقد" ومجلة "الشهاب" وجرائد جمعية العلماء، كالسنة والشريعة، والصراط، والبصائر[3].

وقد تفطن الشيخ ابن باديس في الجزائر لهذا الوباء فأعلن منذ بداية حياته الإصلاحية بأن التبشير خطر على الأمة الإسلامية، وآلة استعمارية ووسيلة له.

---

1 – نقلا عن مجلة الثقافة، العدد 34، السنة 6، ديسمبر 1976، ص 54.

2 – عن سياسة التبشير الفرنسية في المنطقة، راجع الفصل السابق من هذا البحث.

3 – د. تركي رابح: "ابن باديس والشخصية الجزائرية"، الأصالة، عدد 2، السنة 1، مارس 1971، ص 70.

وبدافع من الغير الإسلامية والوطنية الحارة، راح يلاحق بصحفه ومقالاته تحركات المبشرين، ويفضح أعمالهم الهدامة. موضحًا في نفس الوقت رفضه الكامل لأساليب الاستعمار التي كانت ترمي إلى تنصير وفرنسة الشعب الجزائري. متمسكا بمبدأ الجزائر العربية المسلمة.

وقد عبر عن هذا المعنى بقوله: « إنّ الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا. ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وأخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها. لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»[1].

وقد تضافر هذا النشاط العربي الإسلامي على إحباط مساعي رجال التبشير المسيحي وأعوانه في تنصير أبناء وبنات الجزائريين، ولاسيما الساكنين منهم في الأرياف والقرى المعزولة... هكذا يحذر المصلحون الآباء الذين يؤمون مراكز التبشير وغيرهم بدعوى المعاملة الحسنة، ومجانية التعليم، وكشفوا بالدلائل والأمثلة الواقعية، ما يتستر خلف هذه الأعمال، من ويلات تستهدف القضاء على عقيدة النشء الصغير لينمو كافرًا بدينه مستبدلا الإسلام بدين المسيحية.

وقد بينوا في مقالاتهم بعض الوسائل التي ينفذ منها المبشرون إلى قلوب الصغار. حتّى تشك في صحة القرآن ونبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)[2]. والملاحظ من خلال هذا التحليل أن المصلحين لم ينخدعوا بالسياسة التبشيرية. فهذا الشيخ باعزيز بن عمر وهو أحد أبناء المنطقة وعضو بارز في جمعية العلماء ينظر نظرة المتبصر إلى جهود المبشرين في الأرياف والقرى الجزائرية، وفي محاولاتهم المسمومة من أجل تنصير سكان المنطقة، فتهوله تلك المناورات الدائبة التي تكن العداوة الشديدة، والمكايد الخسيسة، ينظر فيرى تلك الجهود قد فشلت، وأن المسلمين ما زادتهم تلك الجهود والحملات إلا تمسكا بدينهم وتعلقًا بعقيدتهم، والاستماتة في الدفاع عنها لأنهم على الرغم

---

1 – الشهاب، المجلد 13، الجزء 1، نوفمبر 1937، ص 403.

2 – حركة التبشير في العالم الإسلامي، وادي ميزاب، ع 80، 1928/4/27م.

من جهلهم المطبق، وفقرهم المدقع فإنّهم يتمتعون بعاطفة دينية عميقة، وعن هذه العاطفة الدينية، والرفض المطلق لأعمال المبشرين، يقول: « هذه العاطفة الدينية لا تزال تكشف عن نفسها في بوادينا فتبدو لك في حياة الطفل والشاب، والكهل والشيخ بنسب مختلفة. وهي محور الأخلاق والمعاملة الحسنة، ولعل هذا النوع من الشعور الديني وقف وحده سدًا منيعًا في وجوه المبشرين، وجعل أعمالهم هباءً منثورا، فغادروها وهم يشعرون بالخيبة المريرة بعد أن بذلوا جهودا جبارة في التنصير والفرنسة»[1].

هكذا قاوم المصلحون في الجزائر سياسة التبشير الفرنسية، التي كانت ترمي إلى تمزيق وحدة السكان بإحياء اللهجة المحلية، وسط الأهالي، وذلك للحد من تطور الحركة القرآنية والثقافة الإسلامية في المنطقة، لكن رغم كل المحاولات فإنّ هذه السياسة لم تلق النجاح المطلوب. وبالتالي لم تكن مقبولة إلا من طرف الأقلية القليلة، وهم الجماعة المثقفة بالثقافة الفرنسية المتشبعة بمبادئها، والتي كانت تطمح إلى الاندماج في الكيان الفرنسي[2].

وعن سياسة التفرقة وإحياء اللهجات المحلية في هذه المنطقة التي اتخذها الاستعمار هدفًا له، يقول الشيخ البشير الإبراهيمي كاشفًا عن هذه النوايا ما يلي: « ما هذه النغمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر بإذاعة الأغاني القبائلية، وإذاعة الأخبار باللسان القبائلي... أكل هذا إنصاف للقبائلية وإكرام لأهلها، واعتراف بحقها في الحياة، وبأصالتها في الوطن؟ كلا. إنّه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكر استعماري بطائفة أخرى، ومفرقة شنيعة بينهما، وسخرية عميقة بها»[3].

وقد لاحظ المصلحون أن هذه النشاطات إنّما هي من وحي الأوساط الاستعمارية التي كانت ترنو إلى بث التفرقة بين سكان منطقة القبائل حتى يتم عزلهم عن باقي

---

1 – البصائر، عدد 7، 21 مارس 1947، ص 3.

2 – MERRAD A., op.cit, p. 359.

3 – محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية، الجزائر، ب.ت، ص 222، 223، مقال بعنوان: "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس ضرة.

سكان القطر الجزائري. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يسعى إلى البحث عن وحدته الثقافية والسياسية.

وقد رد الإمام عبد الحميد بن باديس على سياسة التفرقة التي كانت مطمع المبشرين المسيحيين في هذه المنطقة بمقالة شديدة اللهجة تحت عنوان "ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" فقال: « إنّ أبناء يعرب، وأبناء مازيغ، قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثمّ دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء تؤلف بينهم في الشدة والعسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء حتّى كونت منهم خلال أحقاب سعيدة عنصرا مسلمًا جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام»[1].

هكذا انتشرت اللغة العربية بسرعة مدهشة وسط البرابرة، ومما يدل على ذلك ما جاء في تحقيق صدر سنة 1913 أنه منذ 25 سنة أي (1892 – 1914) أصبحت العربية أكثر انتشارًا عند البرابرة، وكانت لغة التعامل والعلاقات الاقتصادية، والنشاطات الاجتماعية بينما أصبحت اللغة البربرية لا تتجاوز عتبة الدار، وخاصة في المناطق المفتوحة الفتح الإسلامي[2].

هكذا حافظ السكان على الشخصية الجزائرية التي أصبحت مهددة بالخطر من طرف الاستعمار والمبشرين وانحراف معظم الطرق[3] الصوفية في الجزائر عن جادة الصواب. حيث أكثروا من البدع في الدين وتعاون معظمهم مع الاستعمار ضد مصالح بلادهم – وسأتعرض فيما بعد لأعمال الطرقية مبينًا موقف الإصلاح منها – وهو ما كان له تأثير كبير في انتشار الوعي الديني والسياسي وسط السكان. وخاصة اليقظة العامة التي دبت في الشعب.

---

1 – مجلة الشهاب، الجزء 11، المجلد 11، عدد فبراير 1939م.

2 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, op.cit., p. 148 - 150.

3 – انظر كمثال على ذلك "مجلة الفتح" للسيد محي الدين الخطيب، عدد 257، السنة 6، القاهرة 1352هـ، حيث عدد فيه مناقب الطرق الصوفية للإسلام ومنها الطريقة التيجانية، ولليقظة الوطنية الجزائرية، بتعاونها مع دولة الاحتلال، ثمّ الثقافة، عدد 68، السنة 12، مارس أفريل 1982، ص 36، 37.

**5 – اليقظة العامة:**

التي دبت في الشعب الجزائري خلال الحربين العالميتين، وتطلع الجزائريون الى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينيا واجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا من الوضعية السيئة التي كانوا عليها بين الحربين.

ومن آثار هذه الحرب، الهجرة إلى أوروبا في الفترة ما بين الحربين (1914 – 1939). وقد كتب فرحات عباس مبينا أثر هذه الحرب في النفوس فقال: « إنّ للأحداث الكبرى نتائج غير متوقعة على الرجال فقد كانت من نتائج الحرب الكبرى أن تعرف الجزائريون أيضا على فرنسا أثناء كفاحهم عندها حتّى بدت لهم كأنها أرض الميعاد»[1].

وفعلا فإنّ المهاجرين من منطقة[2] القبائل إلى فرنسا في الفترة ما بين (1914 – 1918) قد اكتشفوا كسابقيهم حياة جديدة تختلف عن حياتهم التعسة في بلادهم. ذلك أن الحياة في فرنسا قد أتاحت لهم فرص التعرف والاحتكاك بالمجتمع الفرنسي، كما مكنتهم من التعرف على عقلية الطبقة العاملة من فرنسيين وأوروبيين، والاطلاع على الاتجاهات السياسية هناك، في جو من الحرية المفقودة في بلادهم[3].

---

1 – نقلا عن زوزو عبد الحميد: دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطني ما بين الحربية (1919 – 1939)، الجزائر، ب.ت، ص 26، 64، 65، 66.

2 – إذا حاولنا أن نرتب المناطق حسب أقدمية الهجرة فيها، نجد في المقدمة مراكز تيقزيرت وأزفون (بورقيدون) وبجاية. وهي مراكز عرفت الهجرة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

أما حسب أماكنها فأشدها فقرا وأكثر في نسبة المهاجرين هي منطقة القبائل الكبرى. وتبين الإحصائيات التي استيقت من مصادر رسمية أن معظم المهاجرين كانوا من دائرة تيزي وزو وهذه بعض أسماء هؤلاء المهاجرين:

1 – أماش عمار، كان من دوار بني عيسى (بني راثن).

2 – راجف بلقاسم، المولود بأقني بوراغ (فورناسيونال) هاجر إلى فرنسا سنة 1924.

3 – كحال أرزقي، من قنزات (بني يعلى) القبائل الصغرى.

4 – موساوي رابح، من بني راثن.

3 – زوزو عبد الحميد، مرجع سابق، ص 24، 64، 65، 66.

ومن نتائج الهجرة تلك التساؤلات التي كان يثيرها البعض «عن مفهوم الحرية والديمقراطية، وعن معنى حق الشعوب في تقرير مصيرها، وما إلى ذلك من المفاهيم والشعارات التي طالما كانت تتردد على أسماعهم حينئذ.

ويذكر الشيخ السعيد صالحي[1] وهو أحد أعضاء الحركة الإصلاحية في المنطقة، أن الفضل في ظهور حركة الإصلاح بمنطقة القبائل خلال هذه الفترة يعود إلى هؤلاء المهاجرين بعد عودتهم إلى الوطن وقد بهرتهم مظاهر الحضارة الغربية الحديثة، فقاموا بثورة على الأوضاع الفاسدة المتمثلة في الأقاويل والشبهات التي كانت تسند للدين ظلمًا وجورًا، وتلك الوثنيات التي أبدعها الاستعمار والمبشرون في المنطقة، فثار عليها هؤلاء المهاجرون المتشبعون بالروح الوطنية.

هذه الروح التي أرسى عليها الأمير خالد، جهاده الاجتماعي والسياسي، وأنشأ جريدته "الإقدام" سنة 1920[2]. وكانت مزدوجة (عربية فرنسية)، وهي أول جريدة عبرت عن آلام الجزائر وآمالها بعد "الفارق" وقد استمر العمل بها إلى أن نفي الأمير خالد إلى فرنسا عام 1923. ومن أهداف هذه الجريدة أنها كانت تدعو الجزائريين للدفاع عن حقوقهم السياسية، وأن يكونوا يقظين. كما كانت تدافع على العربية باعتبارها اللغة الوطنية، وعن الإسلام باعتباره نظام حضارة الجزائر ومقومًا أساسيًا لها[3]. وهو ما كان له تأثير على الحركة الإصلاحية في المنطقة. ومما يدل على ذلك ظهور أول عمل إصلاحي للشيخ المولود الحافظي الأزهري، الذي نشر مقالا إصلاحيا بجريدة الشهاب العدد 9 سنة 1925. ضمّنه خلاصة أفكاره في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي.

وقد كان متحمسًا وكانت له آراء في الإصلاح، حيث كوّن حركة تجمع الشباب المسلمين، وتقدّم بمشروع إصلاحي يرمي إلى تكوين حزب إصلاحي ديني. نشر

---

1 – معلومات شفوية، أفادني بها الشيخ السعيد صالحي (لقاء في منزله)، بتاريخ 1981/7/26.

2 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، مرجع سابق، نقلا عن الصحافة الوطنية المجاهدة وأثرها في الإصلاح، ص 9.

3 – المرجع السابق، ص 338.

بجريدة الشهاب سنة 1925، ويعد المشروع بمثابة قانون أساسي يهدف إلى توحيد الأمة، وجمع شتات الشباب، ورفض سياسة الاستعمار الهادفة إلى حل جمعية العلماء، وتعطيلها عن أهدافها. لو لم تخدعه فرنسا في آخر أيامه، حيث أغرته بوظيفة حكومية على غرار ما فعلته مع جماعة الطرقيين، حيث أصبحوا يثنون على فرنسا أكثر مما كانوا يثنون على الجزائر(1).

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على دخول الإصلاح أو بالأحرى نشأة الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل، الصراع الذي دار بين السلفية والطرقية المنحرفة. التي حاول الاستعمار مخادعتها وإغراءها بالمال والجاه.

**6 – الصراع الذي ظهر بين السلفية والطرق الصوفية المنحرفة:**

ولعل الذي يتقصى تاريخ الحركة الإصلاحية في بلادنا، وفي كل الأقطار الإسلامية يجد أن أخطر ما كان يعانيه المصلحون هي هذه الفئة الضالة المضللة، المبتدعة في الدين، والمتعاونة مع الاستعمار ضد مصالح بلادهم.

وفي سنة 1925(2) وقعت معركة بل مشادات عنيفة وحرب قلمية حامية الوطيس بين رجال الإصلاح وأتباع "الطريقة العلوية" المناهضة للعمل الإصلاحي. وفي هذا الجو المسموم والقلق العام برز تيار إصلاحي جديد، وتقوى صوت الحركة الإصلاحية فضم الشيوخ بمنطقة القبائل صوتهم إلى صوت المصلحين، لمقاومة هذه الطريقة التي تدعي أن كلّ شيء عداها عدم. فقاوموها مقاومة عنيفة حتّى انتهى الأمر بخيبة أمل هذه الطريقة.

وكان هذا العمل بداية الاتصال بين الحركة الإصلاحية الجزائرية العامة ومنطقة القبائل(3). انطلاقا من هذا الوضع الأليم الذي كانت تعيشه الجزائر في بداية العشرينات،

---

1 – معلومات أفادني بها الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، مدير مكتبة قصر الحكومة بالجزائر العاصمة، بتاريخ 1981/7/21.

2 – باعزيز بن عمر، الإصلاح وأثره في منطقة القبائل، الشهاب، مرجع سابق، ص 526.

3 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

بصفة خاصة نادى المصلحون بالإصلاح الديني والاجتماعي على أوسع نطاق. وناوؤوا الاستعمار والطرقيين الضالين، الأمر الذي تسبب في ظهور صراع بين الإصلاح والطرقيين، وأصبح الطرفان يتبادلان رسائل الشتم.

فالطرقيون بزعامة الشيخ "أحمد بن عليوة" المستغانمي أنشأوا جريدة "المعيار"، واتخذوها منبرا لهم، ولسانا معبرًا عن آرائهم. والمصلحون بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس أنشأوا "الجحيم" بصفة أقذر. وبهذا أصبحت الجزائر والإدارة الفرنسية مبتهجة سخرية وهزءًا[1].

والملاحظ أنه بعد سنة فقط من بداية هذا الصراع - بحيث كلّما صدرت جريدة إلا وتلتها جريدة أخرى إصلاحية - تطورت القضية بين المصلحين ورجال الطرق إلى مجابهة خطيرة استعمل فيها العلوية الهراوة والأمواس بدل الأقلام. والجدير بالملاحظة أن جريدة "البلاغ"[2] التي كانت لسان الشيخ "العلوي" وزاويته قد لعبت دورًا كبيرًا في هذه الخصومة الطويلة.

وقد أدى هذا الخلاف إلى إحداث الشغب في المساجد، الأمر الذي استغلته الإدارة الاستعمارية فمنعت العلماء المصلحين من دخولها، والتدريس فيها[3]. وقد هاجم رجال الإصلاح مواقف العلوية المنافية للحركة الإصلاحية الباديسية. ومما يدل على ذلك التهمة التي قدمتها الشهاب للطريقة العلوية، بأنها أخت القاديانية بالهند « تلك الجمعية التي تنتمي إلى "غلام أحمد" الذي كان يدّعي أنه هو المسيح المنتظر وأن الوحي نزل عليه بذلك تناول القرآن بالتأويل الباطل والتزييف الجاهل مثلما فعل ابن "عليوة" في تغيير سورة النجم وغيرها»[4].

---

1 - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 288.

2 - جريدة طرقية أسسها أحمد بن مصطفى العلوي، 1926.

3 - د. عبد الله ركيبي: الشعر الجزائري الحديث، ط 1، الجزائر، 1981، ص 609.

4 - المرجع نفسه، ص 611. نقلا عن مجلة الشهاب 20 مايو 1927.

ولعل الغرض من هذا النقد والتجريح للعوية يعود أساسا إلى تخوف المصـــلحين، من سذاجة العامة التي يمكن أن تتأثر فتعتقد بالخرافــات والأوهـــام أو فـــي المبالغـــات الصوفية التي كانت تعتمد على السحر والزندقة والدروشة. وما إلى ذلك من المحرمات.

ولا أدل على مواقف الطرقية المنحرفة من الحركة الإصلاحية في الجزائر من تلك المكيدة المديرة لاغتيال صاحب الشهاب، الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة سنة 1926[1].

وللمزيد من الإيضاح حول هذه القضية، نشير إلى أنه قبــل وقـــوع حوادثهــا المثيرة ببضعة أعوام نشر الشيخ الرئيس رسالة علمية قيّمة في نقض مذهب الحلـــول الذي ينتحله صاحب طريقة العلوية وفند فيها آراءه الضالة في هذا الموضوع، وفيمــا يتعلق بسوء أدبه مع النبي (ﷺ) في أبيات شعرية ملفقة، جاءت في ديوانـــه... مشـــيرا فيها إلى ما نزل في سورة "عيسى". تحت عنوان "جواب سؤال عن سوء مقال"[2].

ونشير فيما يلي إلى بعض ما سجله بعض المؤلفين عن هذه الحادثة على ســبيل التسجيل التاريخي لهذه الحادثة الخطيرة من الوجهة الإصلاحية. وقد كتب حول هــذه الحادثة مجموعة من الكتاب نذكر منهم الشيخ الطيب العقبي بعنوان جمعية التآمر بقتل العلماء والفتك بهم[3] وقد توجه إليهم في خطاب عام من غيـــر أن ينســـى التعـــريض بالسلطات الاستعمارية التي فتحت المجال لمثل هـــذه الأعمـــال. وغـــذت بدسائســـها وبتشجيعها هذه المؤامرات. ونذكر أيضًا الشيخ السعيد أبي يعلى الزواوي الذي كتـــب مقالا في نفس الموضوع تحت عنوان، الاعتداء على صاحب الشهاب الأســـتاذ عبـــد الحميد بن باديس[4].

---

1 – د. محمد ناصر، المقالة الصحفية، ج 1، مرجع سابق، ص 115.

2 – ابن باديس، حياته وآثاره، إعداد وتصنيف د. عمار الطالبي، ج 3، مرجع سابق، ص 152.

3 – الشهاب، عدد 80، بتاريخ 16 رجب سنة 1345هـ/1927م. انظر أيضا: الطيب العقبي، "أين الحكومة لتحفظ الأمن العام" الشهاب، عدد 80، 1927/1/20.

4 – الشهاب، عدد 81، 23 رجب 1345هـ/1927/1/27م.

ومن جملة الطرقيين الذين حذرهم الشيخ العقبي فضلا عن الطريقة العلوية، الزواوي أحمد بن يوسف الجنادي صاحب زاوية سيدي منصور بناحية عزازقة عندما زار منطقة القبائل سنة 1936[1]. ولعل السبب في هذا الصراع أو الخلاف الذي دار بين المصلحين ورجال الطريقة، والمرابطين المتزمتين إنّما حدث بعد الدعوة الجديدة إلى الإصلاح، وبعد الهجوم على أساليبهم العقيمة، وفهمهم الناقص للإسلام، ذلك أن رجال الإصلاح كانوا يؤمنون بالتطور أو بمعنى آخر فإنّ التغيير اصبح مبدأ من مبادئ الفكر الإصلاحي، في حين أن التغيير في المجتمع لدى خصومهم يعد ثورة وانقلابًا في الحياة رأسًا على عقب.

وهذا قد يضر بالمجتمع أكثر مما ينفعه، أضف إلى ذلك أن الحركة الإصلاحية كانت تعتمد على الكتاب والسنة في فهم الدين. ذلك أن الاعتماد على غيرهما من النصوص الأخرى أمر قد أوقع الناس في البلبلة والشك والاضطراب، بل أدى إلى تمزق المسلمين، وإلى ظهور طوائف[2] وفرق أضرت بالوحدة الإسلامية التي كانت شعارًا من شعارات الفكر الإصلاحي.

أما رجال الطرق فإنّهم يقتدون في النصوص الأخرى، خاصة ما يتصل بالتصوف ومعانيه، ويرون فيه طريقًا لتطهير المسلم مما يعاني في حياته روحيًا وماديًا. في حين يرى رجال الإصلاح أن التصوف وإن وجد في التراث الإسلامي فهو عائق لا عامل مساعد للمجتمع الإسلامي[3].

والملاحظ أن هذا الخلاف بين الإصلاح والطرقية دام سنوات طوالا حتّى قال فيهم الشيخ الإبراهيمي بعد الحرب الثانية ما معناه والحقيقة أن هؤلاء القوم مازالوا حيث

---

1 – معلومات شفوية أفادني بها سي الحاج خوجة بن يوسف أحد أعضاء حركة الإصلاح بتيزي وزو، بتاريخ 1981/10/1.

2 – د. عبد الله ركيبي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 583، 584.

3 – المرجع السابق، ص 584.

تركناهم في عام 1937، لم تؤثر فيهم أحداث الزمن، ولم يتأثروا بما حل بالأمة من محن، ولم تخرق آذانهم هذه الأصوات المتعالية[1].

فالمعركة هذه إن صح التعبير والتي خاصها رجال الإصلاح ضد التصوّف السلبي، إنّما نشأت لتشبث هؤلاء بالماضي القديم دون أن يحاولوا التجديد، وأن يفسروا الدين تفسيرًا يناسب العصر، ويدفع الناس إلى الفهم الصحيح للإسلام. وبالتالي لم يفهموا الإسلام على أنه عقيدة صالحة لسير التقدم الإنساني. هكذا كان المصلحون يصارعون في ميادين مختلفة يصارعون الجمود كما يصارعون أعداء الإسلام من المستشرقين أو المتفرنسين المتشبعين بالروح الفرنسية.

ومن المهتمين بأعمال الطرقية والاستعمار في منطقة القبائل الشيخ أبو يعلى الزواوي. فقد كشف في إحدى مقالاته عن أصول بعض الانتقادات الخرافية التي ألصقها المتصوفون المنحرفون بالإسلام. كتصرف الإحياء بالأموات، وقضاء الحاجات على أيديهم والتوسل بهم، وطلب ذلك منهم، وإسناد الحوادث الأرضية والسماوية إليهم، وغير ذلك من أعياد التصوف[2].

هكذا تغبن المصلحون بما كان يقوم به هؤلاء الدجالون من أعمال شوهت الوجه الحقيقي للإسلام، ونادوا بمجابهتهم، والوقوف أمام تصرفاتهم المنافية للدين الإسلامي. وهم في نظرهم جنوا على الإسلام وعلى طريق الحق، لذلك نشر الشيخ المولود الحافظي في الشهاب سنة 1933 مقالا طويلا تحت عنوان "العوائد الممقوتة والأحكام

1 – عيون البصائر، مرجع سابق، ص 431 وما بعدها.

2 – انظر: أبو يعلى الزواوي، حول المجابهة، الشهاب، عدد 16، 1927/10/16. وكذلك كتابه، الإسلام الصحيح، مطبوع موجود بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة.

الشرعية" ختمه بقوله: «هكذا تجري العوائد الممقوتة قابضة على الأرواح وعلى رقاب الرجال مدفوعين بأهوائهم وما أكثر تلك الأهواء ولا تقف عند حد...»[1].

إنّ سبب تفرق المسلمين في نظر الشيخ يعود أساسًا إلى هذه الطرق المبتدعة في الإسلام وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم، ولذلك فإنّ القضاء عليها يعني القضاء على كلّ شر، يقول الشيخ الإبراهيمي في هذا المعنى: «إنّنا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر، وضلال. وأنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود الطرقية المشؤومة ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان وما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب»[2].

وبهذا التجريح والهجوم الساحق انفصل شيوخ الطرق عن الجمعية، وأخذوا يسعون إلى تأسيس جمعية أخرى سميت فيما بعد "بجمعية علماء السنة" التي تأسست سنة 1923. والتي انضم إليها الشيخ الحافظي وعمر إسماعيل[3] الذي كان عضوا في جمعية العلماء المسلمين وقد اغتنمت الإدارة الفرنسية تلك الفرصة وأضرمت النار بين رجال الإصلاح والطرقية – كما أشرت إلى ذلك – وصبت عليها زيتها المسموم، وسهلت للجماعة الخارجين سبيل تأسيس جمعية خاصة بهم، وأعانتهم بالمال وبالرجال على بث دعايتهم[4].

وفي سنة 1932 إثر انتخابات المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الخاص بتسوية النزاع القائم بين المجموعتين بصورة نهائية تمّ عزل المجموعة المرابطية تمامًا عن المجلس الإداري للجمعية.

---

1 – الشيخ الحافظي: العوائد الممقوتة والأحكام الشرعية، جريدة السنة، العدد 19، السنة 1، 15 ماي 1933، ص 1. انظر أيضًا: صدى الصحراء، العدد 13، 1926/3/26، لنفس الكاتب، مقال بعنوان "الدخلاء في الإسلام".

2 – آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، طبعة جزائرية، الجزائر، 1978، ص 123 حتّى 126.

3 – MERRAD A., op.cit., p. 145.

4 – Idem, p. 239.

وانطلاقًا من هذا التاريخ حاولت الفئة المرابطية بمساعدة الإدارة الاستعمارية أن تشكل وحدة فيما بينها حتّى تشكل خطرًا على مصير الجمعية، وأن تعرقل مسيرتها[1]. وإسقاط رجالها إلى الحضيض الأسفل يؤيدها الشيخ "محمد العاصمي" الذي قال عنه أحمد توفيق المدني، ما قاله الكاتب الشاعر الفرنسي "لامارتين" عن دانتون، «كان يبيع نفسه كل يوم بالمزاد، فإذا جاء الغد عرض نفسه للمزاد مرة أخرى».

وقد وصف الإبراهيمي أعمال "جمعية علماء السنة" التي أسسها الحافظي، قائلا: «وليس بهذه القوة ولا بهذه المكانة الجمعيات التي تؤسس لإبقاء قديم على قدمه والحال على ما هي عليه كمن يؤسس جمعية بني فلان لأنهم بنو فلان، لا لمعنى أخرى زائد على ذلك يجلب لهم نفعًا جديدًا أو يعلمهم عملا مفيدًا أو يدفع عنهم ضررا مبيدا، أو يقتضي لهم من الكمال مزيدًا. وكمن يؤسس جمعية الفلاحين لأنهم فلاحون فقط لا لمعنى آخر جديد يصلح فاسدهم أو ينقلهم من صلاح إلى أصح. وكمن يؤسس جمعية للأميين ليبقوا أميين، أو جمعية الضلال ليبقوا على ضلالهم، أو جمعية العمي ليبقوا على عماهم لا لشيء آخر زائد عن ذلك».

ويتبين من هذا كله أن رد فعل الحركة الإصلاحية على الطرقية وحملات التنصير في ناحية القبائل على الخصوص، كان قويا وكان له تأثير قوي على انتشار الحركة الإصلاحية في ناحية القبائل وتدعيمها، ومما يدل على ذلك المدارس الإصلاحية التي تأسست في الناحية.

---

1 – MERRAD A., op.cit., p. 146.

# الفصل الخامس

# الحركة الإصلاحية وأثرها في المنطقة

## تمهيد

من آثار الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل تأسيس المدارس الإصلاحية والمساجد الحرة، والنوادي الثقافية. ومما ساعد على انتشار هذه الحركة خلال الثلاثينات، وأضعف من نفوذ رجال الزوايا المنحرفين، جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة 1931. بحيث لم تمض إلا مدة قليلة حتّى علا صوت الإصلاح وترامى خبره إلى هذه المنطقة وراح من هدى الله قلوبهم من المؤمنين الصادقين يحضرون[1] دروس الشيخ الطيب العقبي في نادي الترقي.

أسس هؤلاء المصلحون الأوائل مدارس إصلاحية في كل المدن والقرى إدراكا منهم بدور المدرسة إلهام في بعث النهضة، وإيقاظ الأمة، وحفظ اللغة والثقافة والدين من مكائد الاستعمار والمبشرين.

وبرز دور جمعية العلماء في هذا النشاط وازدهرت الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل ناحية بعد أخرى. وقد بلغ عدد مدارس جمعية العلماء عام 1943 حوالي 140 مدرسة، تغطي معظم مدن القطر وقراه أما في عام 1951 فقد ذكر الإبراهيمي في تقريره السنوي المقدم إلى اجتماع الجمعية المنعقد في أكتوبر من نفس السنة أن عدد مدارس الجمعية يبلغ 125 باستثناء المدارس التي تمّ تعطيلها إداريًا من طرف الإدارة الاستعمارية وهي تشتمل على 300 فصل دراسي يدرس فيها حوالي 36286 تلميذًا وتلميذة[2]. وفي هذا الجو وبإلحاح من رجال الإصلاح أعضاء جمعية العلماء تمّ تأسيس الكثير من المدارس[3] في منطقة القبائل.

---

1 – معلومات شفوية من الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، مقابلة شخصية في مقر عمله بتاريخ 1981/7/21.

2 – البصائر، عدد 65، السنة 2، السلسة 2، 31 جانفي 1949، ص 1.

3 – راجع الملحق الخاص بهذه المدارس في نهاية هذا البحث.

**المدارس الإصلاحية**

1 – مدرسة بجاية.

2 – مدرسة دلس سنة 1931.

3 – مسجد برج أم نائل الإصلاحي سنة 1932.

4 – مدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو 1942.

إلى غير ذلك من المدارس الإصلاحية التي أسست في المنطقة وعددها كبير.

**دور هذه المدارس في ميدان الإصلاح**

من المعروف أن المدرسة قد لعبت دورًا كبيرًا وفعّالا في بعث النهضة وروح الوطنية في الأمة، وحفظها من الذوبان، ومن الجهل والانحلال. فهي كما يقول الشيخ الإبراهيمي: « جنة الدنيا والسجن نارها، والأمة التي لا تبني المدارس تبني لها السجون، والأمة التي لا تصنع الحياة يُصنع لها الموت، والأمة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها » إلى أن يقول: « وأن المدرسة هي طريق الحياة وطريق النجاة وطريق السعادة، وأن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممنا فمن بعض حقّه علينا أن نحفظ دينه من الضياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيها الأمة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصونًا تقي أبناءها من الانحلال الديني والانهيار الخلقي، وتحفظهم من ترف الغني، وذل الفقر، وتربيهم على الرجولة والقوة، وتوحيد النزعات، وتصحيح الفطرة، وتقويم الألسنة، وتمكين الإرادات والعزائم، وتغرس الفضيلة في نفوسهم وتصلح فيهم ما أفسده المنزل والشارع، وتروضهم على حب الوطن وبنائه »[1].

---

1 – البصائر، عدد 172، 173، عددان في جريدة واحدة، 14 محرم 1931، ص 1. و15 أكتوبر سنة 1951، ص 3.

**مدرسة بجاية الإصلاحية:**

أسس الشيخ الهادي الزروقي[1]، في بجاية مدرسة إصلاحية شارك في إدارة شؤونها والتدريس بها ثلة من رجال الفكر والثقافة نذكر على سبيل المثال، الشيخ الزروقي المؤسس لها، ثمّ الشيخ علي شنتير وغيرهم. ولهذه المدرسة صدى عميق في النفوس بحيث لقيت من الأمة إقبالا وتأييدًا[2] عظيمين. الشيء الذي ساعد على انتشار حركة الإصلاح في بجاية وضواحيها. وكانت فيها أقسام مجهزة تجهيزًا عصريًا. ومن نشاطها الإصلاحي التدريس بها على الطريقة العصرية، ومن المواد التي كانت تدرس بها الرياضيات والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية والتربية الإسلامية[3]، ونشر الوطنية الجزائرية، إذ كان لها تأثير كبير بين المثقفين سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية[4].

والشيخ الزروقي من خريجي جامع الزيتونة وأحد أعضاء الحركة الإصلاحية المعروفين في المنطقة. ويذكر الشيخ المهدي البوعبدلي بخصوص الإصلاح المنشود في منطقة القبائل خلال فترة الدراسة (1920 – 1954) وقبلها أن من بين المصلحين المعروفين بآرائهم الإصلاحية الشيخ الزروقي. وقد كان متنقلا بين القرى لنشر الدين وتعريف الناس بالحقيقة الإسلامية كما نادى بها المصلحون الأولون بين سيدي عيش وأقبو وبجاية رغم الحصار الشديد الذي فرضه الاستعمار على المصلحين في الجزائر.

وفي الفترة ما بين (1937 – 1938)[5] تعرض الشيخ الزروقي لأبشع أساليب التعذيب والتنكيل، وقد ناوأت الحكومة الفرنسية المدرسة الزروقية محاولة إغلاقها إلى الأبد.

---

1 – انظر الملحق الخاص بترجمة الشيخ الزروقي في نهاية البحث.

2 – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 285.

3 – معلومات شفوية من الأستاذ عبد الحميد يخلف مدير الشؤون الدينية (بجاية) مقابلة معه في مقر عمله بتاريخ 1981/12/31.

4 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، لقاء في مقر عمله مكتبة قصر الحكومة بالجزائر بتاريخ 1981/9/29.

5 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، بتاريخ 7 مارس 1981.

وكان الشيخ الزروقي معلمًا ماهرًا ومقتدرًا، عليه تخرج طلبة كثيرون نذكر منهم الشيخ محمد الطاهر بكارى، والأستاذ مولود الطياب، والشيخ محمد الصالح معافري، والشيخ محمود بوزوزو[1]، والشيخ العربي شريفي الذي استشهد على أيدي الطغاة أثناء الثورة التحريرية. وقد كان هذا الأخير إماما بمسجد سيدي عيش ومديرًا في مدرسة "حرة" في بني منصور، ومنها اختطف واستشهد[2] رحمه الله.

ومن نشاط الشيخ الهادي الزروقي الإصلاحي خارج المنطقة تأسيسه لمدرسة دلس الحرة حوالي 1941 ثمّ انتقل إلى العاصمة ودرس فيها بمدرسة مستقبل الشباب في حسين داي، وفي سنة 1944 أرسل البعثات العلمية إلى جامعات إسلامية كالزيتونة والصادقية بتونس. كما كلف من طرف جيش التحرير الوطني بعد بداية الثورة التحريرية 1954 بتنظيم التعليم على أوسع نطاق، وإصدار الفتاوى الدينية بهدف إبراز حقيقة الشرع الإسلامي. فكان له مشاركة فعالة في حرب التحرير[3].

ونذكر أيضًا أن من جملة المشايخ الذين ساهموا في بعث الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل الشيخ عمر بوعناني المكلف بتسيير شؤون المدرسة الخلدونية الواقعة بمدينة بجاية، والشيخ ابن عيسى ثمّ الشيخ المفتي بولحبال، والشيخ أحمد بن الشيخ الحسين الذي كان اصله من قسنطينة[4]. وقد استطاع هؤلاء تكوين جمعيات إصلاحية أخرى كجمعية الكشافة الجزائرية، وجمعية الراشدية. وهو ما كان له تأثير بالغ في ظهور مدارس أخرى في المنطقة كمدرسة برباشة وجمعية التربية والتعليم ببوقاعة. وتعتبر هذه الأخيرة على نحو ما امتدادًا لمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة[5].

---

1 – معلومات أفادني بها الأستاذ مولود الطياب، لقاء معه في وزارة التربية بتاريخ 1982/3/29.

2 – معلومات من الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، بتاريخ 1981/9/29.

3 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ السعيد الزروقي (نجل الشيخ الهادي الزروقي) في مقر عمله بولاية الجزائر، بتاريخ 1982/3/28.

4 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ مولود الطياب، بتاريخ 1982/3/29.

5 – مجلة الشهاب، ج 4، م 10، 1934/6/14، ص 376 "فصل خاص برحلات الشيخ الرئيس".

وكان مجلسها الإداري يتكون من 31 عضوًا من علماء ومـوظفين، وبمناسـبة تأسيسها استدعي الشيخ عبد الحميد بن باديس لحضور الجمعية العامة فلبـى الـدعوة. وذكرهم بأنه لا يمكن نيل الفضل إلا بالتربية والتعليم[1]. ولهذا حثهم ابن باديس علـى فتح مدرسة إصلاحية بقلعة "بني عباس" خارج قسنطينة وهي أول مؤسسة إصـلاحية وتربوية قام بتشييدها وإسناد مهمة التدريس فيها للممتازين من تلاميذه أمثال الشيخ بن حلواش[2]. وتكتسي زيارة الشيخ الرئيس للمنطقة أهمية خاصة يمكن تلخيصـها فـي نقطتين أساسيتين وهما:

1 – كونها تصادف ذكرى الاحتفال المئوي على احتلال الجزائر.

2 – تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 كرد فعل عنيـف على سياسة الاستعمار الذي بلغ احتلاله للجزائر قرنا كاملا[3]. (1830 إلـى 1930)، وهذا حدث هام في تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية. وعن أهمية هـذه الجمعيـة، وقيمتها يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ما يلي: «لو تأخر ظهور جمعية العلمـاء عشرين عامًا لما وجدنا من يسمع صوتنا»[4] وقد اغتنم الشيخ الرئيس هـذه المناسـبة فزار النواحي التالية: تازمالت، أقبو، بني وغليس القبائل الصغرى، دلس تيـزي وزو، زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بناحية عزازقة القبائل الكبرى[5].

وقد مكنته هذه الزيارة من بث روح الإصلاح وبعث الحياة من جديد في النفوس حسب مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت خلال القرن التاسع عشـر فـي العـالم الإسلامي، وأثناءها أسدى النصائح وشجّع الطاقات الحيـة، وذوي الإرادات الحسـنة. ويذكر الدكتور سعد الله بخصوص زيارات الشيخ الرئيس لمدن وقرى الجزائـر أنـه

---

1 – المرجع السابق، ص 377.

2 – الشيخ سليمان داود يوسف، مقال بعنوان: "ملاحظات وانطباعات حول ثورة المقراني والشيخ الحداد"، الأصالة، العدد 40/39، السنة 5، ذو القعدة ذو الحجة 1396هـ/نوفمبر ديسمبر 1976، ص 138.

3 – الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الشهاب، ج 5، م 7، عدد مايو 1931، ص 341.

4 – مجلة "مجمع اللغة العربية"، القاهرة، عدد 21، القاهرة، 1966، ص 151.

5 – MERRAD A., op.cit., p. 139.

خلال سنة واحدة قام بزيارة أكثر من 50 مدينة[1]. وفي الفترة ما بين (1932 – 1939)[2] توسعت الحركة الإصلاحية فزار أيضًا في الجزائر الوسطى والغربية النواحي التالية: بورج بوعريريج، بجاية، جيجل، قنزات (بني يعلى) بوقاعة، وادي أميزور، قلعة بني عباس، سيدي عيش، عزازقة، عين الحمام، الأربعاء بني راثن وتيقزيرت. لغرض نشر الدعوة الإصلاحية في أوساط السكان وتوديع الحجاج المتوجهين إلى البقاع المقدسة وتقديم النصائح الدينية لهم[3].

وكذلك تأسيس المساجد والمدارس، وقد كان الشيخ الرئيس في كل ذلك مجتهدًا ليعطي فكرة واضحة عن الحالة العامة في الجزائر مبينًا للجزائريين في نفس الوقت تناقض السياسة الفرنسية التي كانت تدعي العدل والمساواة حسبما جاء في ميثاق الثورة الكبرى غير أنها لا تطبقها في الجزائر.

وبيّن أن مهمة الإصلاح لم تكن خاصة بفئة دون أخرى، ولكنّها للناس أجمعين بما في ذلك بعض المرابطين المنحرفين المعارضين للخطة الإصلاحية. رغم الصراع الذي أشرنا إليه بين الحركة الإصلاحية والطرقيين، كالعيساوية، والقادرية، والعمارية وغيرها.

ومن الشخصيات البارزة التي واكبت هذه الحركة في بني يعلي، وفي ناحية بوقاعة (بني ورتلان سابقًا) الشيخ ناصر الدين ناصر، والشيخ سعيد بن عمرو أحد أقطاب الحركة الإصلاحية وهو من قرية الشرفة (وادي الصومام) والشيخ سعيد صالحي من قنزات (بني يعلي)، والشيخ صادق[4] عيسات البوجليلي، ثمّ الشيخ المحمودي الذي هو من قرية أولماثن بني ورتلان، والشيخ الفضيل الورتلاني[5].

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، مرجع سابق، نقلا عن ديبارجي: "المظاهرات في إفريقيا الفرنسية"، سبتمبر 1934، ص 545، 546.

2 – MERRAD A., op.cit., p. 191 - 192.

3 – مجلة الشهاب، العدد أوت 1930، ص 444. ثمّ عدد مارس 1935، ص 183، 184.

4 – انظر القسم الخاص بتراجم أعلام الإصلاح في نهاية هذا البحث.

5 – MERRAD A., op.cit., p. 142 - 145.

وبدعوة من هؤلاء جميعًا زار وفد من أعضاء جمعية العلماء هذه الناحية وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي والأستاذ فرحات عباس، واستقبل الوفد بنشيد ترحيبي من طرف شباب القرية خلب العقول، وهز المشاعر، وهذا مطلعه:

أهـــلا برئيـــس الكرام        أهـــلا بالزعيـــم الهمام

وبالمناسبة ألقى الشيخ السعيد الزموشي[1] أمام الوفد درسا في الوعظ والإرشاد في الجامع العتيق ثمّ درسا آخر بجامع الأعراف، أجاد فيه، وأفاد، ثمّ محاضرة أخـــرى من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بعنوان "النكاح في الإسلام" مغـنطس الحاضـــرين بسحر بيانه وقوة حجته[2]. وبعده ألقى الشيخ صادق عيسات[3] خطابا حماسيًا باللهجـة القبائلية، وما إن انتهى حتى قام الإبراهيمي معجبًا به فقال: صحيح صدق الله في قوله ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ﴾ [4].

وقد كانت ناحية "بني ورتلان" سابقًا معقلا لكل التيـــارات الفكريـــة والثقافيـــة والدينية. ومما يدل على ذلك احتضانها لحركة تعليمية تقليدية بحيث نجد في كل حـــي مدرسة لتعليم القرآن الكريم. ومن جملة المساهمين في هذه الحركة القرآنية فـــي هـــذه الناحية، الشيخ الطاهر بمسجد سيدي سفيان، والشيخ بوجلود بمسجد عبـــد الحـــق، ثـــمّ الشيخ الحاج أعراب بمسجد سيدي بتروني، والشيخ أمحنداش المدعو سيدي الخيضـــر نسبة إلى جامع سيدي خيضر. والشيخ المتيجي في باب اللوز[5]، (هو عبارة عن محل صغير لتعليم الصبيان) وليس بجامع.

---

1 – يعتبر من أعضاء جمعية العلماء البارزين، شارك في الحركة السياسية ببني ورتلان وهي منطقة مشهورة بعلمائها منهم الشيخ الحسين، والفضيل الورتلاني، تولى إدارة عدة مدارس إلى أن استشهد أثناء الثورة المباركة.

2 – البصائر، العدد 56، السنة 2، نوفمبر 1948، السلسلة 2.

3 – معلومات شفوية من الأستاذ الشريف حسين، لقاء معه في مقر عمله المركز الثقافي الإسلامي علي بومنجل، بتاريخ 1982/3/23.

4 – سورة إبراهيم: الآية 4.

5 – معلومات شفوية من الأستاذين مولود الطياب، والشيخ يوسف يعلاوي بتاريخ 1981/8/23.

والجدير بالذكر إنّ الإصلاح لم يقتصر على الناحية التعليمية فقط سواء كان عصريًا أو تقليديًا، بل تجاوز ذلك إلى محاربة البدع والخرافات كما أشرت إلى ذلك سابقًا. هكذا انتشرت الحركة الإصلاحية في المنطقة وتأسست في دلس مدرسة إصلاحية.

**مدرسة دلس الإصلاحية:**

دلس مدينة عتيقة وشبيهة بشرشال وبجاية من حيث القدم، ومن حيث المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية طيلة عهد الاحتلال، وهي ضمن ولاية القبائل الكبرى. وكان أبناء دلس يزاولون تعليمهم القرآني في مساجدها كمسجد سيدي عمرو الشريف، وسيدي علي. وظل التعليم بها إلى أن تأسست "الجمعية الإصلاحية" بها سنة 1931[1].

ويوم تدشينها أقيم حفل بهيج حضره الأستاذ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي وكثير من أعضاء جمعية العلماء. ومن المعلمين العاملين بها الشيخ الطيب بن ناصر مؤسس الحركة الإصلاحية بدلس، والأستاذ حمزة شنوف المعروف "بحمزة بكوشة"[2] الذي عينته جمعية العلماء مدرسًا بها.

---

1 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ أحمد بن حميدة (لقاء معه بمقر عمله بمديرية التربية الجزائر العاصمة، بتاريخ 1982/3/27.

2 – عضو بارز في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وشاعر جزائري معاصر خاطب بالأبيات التالية الشيخ الطيب العقبي في زيارته إلى بلدة دلس سنة 1935 بهدف تقوية الصلة بين رجال الإصلاح وجمعية العلماء قائلا:

يا بلبل الشرق، ما أشجاك أشجاني
قم ناج قلبي بتغريد وتحنان
فإنّ مثلي كئيب حل في شرك
وأنت مثلي غريب بين أوطان
لولا فروض علينا العلم يفرضها
ما كنت ألقاك بل ما كنت تلقاني
إذ لا يقيم على ذل يراد به
في بلدة – قد جفت – إلا الإذلال =

ومن نشاط المدرسة الإصلاحي والتربوي، تدريس المواد التاليــة: « التفســير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، الأدب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، محفوظات، ومطالعات، دراسة الإنشــاء، الحســاب، الجغرافيــة، التاريخ »[1].

وقد استمر العمل بها إلى أن أوقفتها الحكومة الفرنسية لعلمها أن هذه الــدروس كانت تهدف إلى تحقيق غرضين أساسيين: سياسي وأخلاقي. فالهدف السياسي يتمثــل في مقاومة سياسة التفرنس للشباب الجزائري، وسلخه عن تراثه العربي الإسلامي منذ بداية الاحتلال للجزائر 1830 حتّى خروجه منها.

أما الهدف الديني والأخلاقي فيتمثل في تربية الشباب تربية إسلامية تساعد على تنشئة الأجيال تنشئة قويمة قائمة على القرآن والسنة الصحيحة، والتمســك بالعــادات الأخلاقية الكريمة.

ورغم سياسة التضييق التي تمارسها فرنسا على هذه المدرسة فإنّ الوضــع لــم يقلل من عزيمة المعلمين العاملين بها، ولا من عزيمة أعضاء جمعية العلماء. وكانــت تتلقى تأييدا شعبيًا كبيرًا، وظيفته إمداد هذه المدرسة بكل ما تستحقه. الشيء الذي ساعد أعضاءها من القيام بما كلفوا به من تربية النشء تربية إسلامية وبث الروح الإسلامية في نفوس الطلبة المترددين على هذه المدرسة، ومحاربة البدع والخرافات الماثلة فــي زيارة القبور غير الشرعية، بإعلان الحرب على تلك العــادات الفاســدة، والأكاذيــب السائدة المسندة للدين ظلمًا وجورًا في تلك الناحية.

---

= والقصيدة هذه منشورة في جريدة الوزير التونسية 1935/8/22، ع 442، المكتبة الوطنية، تونس. انظر: د. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الجزائر، ب.ت، ص 139.

وقد تولى الشيخ حمزة بكوشة التدريس بالمدارس الثانوية بعد الاستقلال ثمّ عيّن مستشارًا للمجلس الأعلى للقضاء.

1 – انظر: جريدة البصائر، عدد 47، 11 ديسمبر 1936، ص 5. انظر أيضًا: الأستاذ بوالصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931 – 1945)، مرجع سابق، ص 153.

وقد كان لهذه المدرسة نصيب كبير وحظ وافر في إيفاد الطلبة لمزاولة الدراسة بالجامع الأخضر لدى الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة. ولم يمض وقت طويل حتى تغير الجو بتلك الناحية فصار الناس لا يعملون إلا بما جاءت به الشريعة الإسلامية تاركين كل ما تعلموه عن مشايخ الطرق الصوفية بماضيها من انحرافات خطيرة في التفكير وفي التوجيه.

ولما تحققت فرنسا من أن وجود الأستاذ حمزة بكوشة في هذه المدرسة سيقضي قضاء مبرما على ما كانت تنويه في سياستها، قررت إيقافه وإبعاده عن المدرسة، حتّى يصفو لها الجو.

غير أن عزيمة الجمعية لم تنثن أمام هذا القرار فطلبت إدارة المدرسة من جمعية العلماء تعويض الأستاذ "بكوشة" بأستاذ آخر ليتم ما شرع في بنائه.

هكذا أدت جمعية الإصلاح بدلس مهمتها كاملة حتّى آخر سنة 1945، وبعد هذه السنة عين الأستاذ أحمد بن حميدة مدرسًا بها. ثمّ واصلت المدرسة ما بدأه الأولون من تعليم وتربية إسلامية صرفة، وبث الروح الوطنية في نفوس من كانوا يتعلمون ويأخذون. ومن هؤلاء من التحق بصفوف جيش التحرير الوطني وهم كثيرون ومنهم من استشهد، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة[1]. وكان لهذه المدرسة تأثير قوي على سكان الناحية وبعد مدة وجيزة تأسست في برج أم نايل حركة إصلاحية أخرى.

**الحركة الإصلاحية في برج أم نايل:**

بدأ النشاط الإصلاحي في ناحية برج أم نايل بتأسيس المسجد الحالي سنة 1932[2] على يد جماعة من المصلحين نذكر منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ يحي حمودي[3] وهو من

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها الأستاذ أحمد بن حميدة في مقر عمله، بمديرية التربية والثقافة بالجزائر العاصمة، بتاريخ 1982/3/27.

2 – معلومات شفوية أدلى بها الشيخ الحاج السعيد معزوزي، بتاريخ 1981/9/25.

3 – انظر: ترجمة كل واحد منهما في ملاحق البحث.

المصلحين القدامى في بني ورتلان، والشيخ علي والخيار[1] كما سيأتي الحديث عن هذين الأخيرين فيما بعد.

ومن المشايخ الذين باشروا العمل بمسجد برج أم نايل السالف الذكر في بداية عهده الأول، الشيخ محمد بن منصور، والشيخ حسين المحفوظ والشيخ علي الشرفي المعين من قبل جمعية العلماء سنة 1952. ومن نشاط الشيخ محمد بن منصور[2] من خلال هذا المسجد، نشر العلم والمعرفة في ربوع هذه المنطقة، وقد عاش الشيخ حياة مليئة بالأعمال الخيرية، حيث كان مدرسًا بالنهار، وواعظا بالليل، وقد صنف عمله صنفين:

1 – دروس عامة كتفسير بعض الآيات والأحاديث النبوية، فضلا عن الخطب الدينية والصلوات الخمس التي كان الشيخ حريصًا عليها.

2 – دروس خاصة، كتدريس الأجرومية والمتن السجاع على القطر. وما إلى ذلك من العلوم الأخرى.

وقد كان الشيخ من فطاحل العلماء الذين يسعون في إصلاح العباد، وترقية الأفكار، وإرشاد الخلائق لما فيه صلاحهم الدنيوي والآخروي.

وكان عالمًا نصوحًا ومرشدًا ممن سلم الناس من لسانه ويده، وأنار العقول، وبين السبل بخطبه المفيدة، ومواعظه الحسنة. وبعد وفاته تولى العمل بالمسجد الشيخ الشرفي، وهو معروف بعلمه وإصلاحه، مكملا للرسالة الإسلامية الخالدة، وفي ظروف قاسية. وفي عهد هؤلاء المشايخ انتشر الإصلاح في منطقة القبائل على أوسع نطاق إلى أن تمّ تأسيس مدرسة إصلاحية تسمى في الوقت الحاضر بالمدرسة الخلدونية. وهي تتكون من أربعة أقسام تربوية مجهزة تجهيزًا عصريًا، بها معلمون مقتدرون يدرسون اللغة العربية، وبعض العلوم الشرعية كالفقه.

---

1 – انظر: ترجمة كل واحد منهما في ملاحق البحث.

2 – انظر: ترجمته في ملاحق هذا البحث.

وقد دشنت هذه المدرسة سنة 1945 على يد المصلحين من أبناء المنطقة أمثال الشيخ السعيد معزوزي وغيره من العاملين المخلصين. ورغم مضايقات الإدارة الفرنسية فإنّ نشاطها لم يتوقف حتّى بداية الثورة التحريرية 1954. وبعد الاستقلال أعيد فتحها من جديد[1]، وفي نفس الفترة أسست مدرسة إصلاحية أخرى في مدينة تيزي وزو.

### مدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو:

بدأ النشاط الإصلاحي بمدينة تيزي وزو بتأسيس هذه المدرسة سنة[2] 1944 بمسجد لالة سعيدة أحد مساجد تيزي وزو في الوقت الحاضر. وقد شارك في إدارتها والتدريس بها مجموعة من ألمع رجالات الفكر والثقافة نذكر منهم الأستاذ رابح بونار[3] والأستاذ حسن حموتن[4] الذي أدار شؤون هذه المدرسة إلى عهد الاستقلال، ودالي أرزقي[5]، والشيخ علي بن السعدي من (العاصمة) والشيخ علي الشرفي. وقد كان لهذا

---

1 – معلومات شفوية أفادني بها الشيخ الحاج السعيد معزوزي، وهو أحد أعضاء الحركة الإصلاحية في برج أم نائل، بتاريخ 1981/9/25.

2 – معلومات أفادني بها الأستاذ حسن حموتن، بتاريخ 1982/01/10.

3 – يعتبر من المعلمين المقتدرين تولي التدريس الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو حوالي 1950. وخلالها أظهر نشاطًا قويًا مما جعله محل احترام وتقدير لدى زملائه. له ثقافة واسعة أرسى قواعدها على الكتاب والسنة من مؤلفاته رحمه الله: النحو الواضح، تاريخ المغرب الغربي، عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، (تحقيق) هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات التي كان ينشرها في الصحافة الوطنية، توفى رحمه الله في السبعينات، انظر ترجمته في ملاحق هذا البحث.

4 – أحد طلبة ابن باديس الحريصين على حضور دروسه في قسنطينة رغم البعد الحيف، تولى التدريس بمدرسة الشبيبة، ثمّ إدارتها إلى عهد الاستقلال. وللشيخ حموتن نشاط شعري وما من مناسبة دينية أو وطنية مرت إلا وله فيها نصيب، عين مستشارًا تربويًا ثمّ مفتشًا ابتدائيًا بدائرة ذراع الميزان، تيزي وزو، توفي رحمه الله عام 1982.

5 – البصائر، العدد 235، السنة 6، السلسة 2، جويلية 1953، ص 7.

الأخير الفضل الأكبر في إحداث جريدة إصلاحية سماها علي بن سعد "الليالي"[1] عالج فيها موضوعات إصلاحية، تولى التدريس في ثانوية البليدة بعد الاستقلال.

وبعد سنوات قلائل أصبح لهذه المدرسة نفوذ أدبي وروحي كبيرين على سكان الناحية. والسبب في ذلك هو أنها تقيم حفلات مدرسية ثقافية قصد نشر الوعي، والدعوة للفكرة الإصلاحية. وفي هذه المدرسة عرف الشباب حقيقة الإسلام الصحيح، واستقى فيها روح الوطنية الحقة، ومنها انبثق نور النهضة واليقظة، وامتد إلى القرى.

وقد كانت هذه المدرسة وكشافة "الهلال"[2] التي أقيمت بجانبها تقدمان أُناشيد وطنية في مناسبتي "ليلة القدر" و"المولد النبوي الشريف". وصارت بهذا النشاط الثقافي الهام قدوة لعدد كبير من المدارس التي أنشئت على غرارها، وسلكت مسلكها في نشر التعليم العربي الإسلامي، وبث الفكرة الوطنية، والقيام بنشاط ثقافي متعدد الجوانب.

وقد استمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها بكفاءة عالية ونشاط حثيث رغم مضايقات الإدارة الفرنسية المحلية لها. وعلى رأسها السيد فيمان "WIEMAN" رئيس بلدية تيزي وزو في العهد الاستعماري، وهو الذي اعترض على ممارسة أي نشاط إصلاحي بها لأنها تمارس السياسة في نظره. وفي سنة 1954 توقف نشاطها بسبب الثورة التحريرية، وتعتبر هذه المدرسة على نحو ما امتدادًا لمدرسة[3] دلس الإصلاحية.

وفي هذا الجو المتوتر أخذت الحركة الإصلاحية تشق طريقها نحو الأمام، وبدأت الشخصية الجزائرية تتبلور بشكل أكثر وضوحًا، في إطار العروبة والإسلام والجزائر، ومما ساعد على تعميق روح الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل تأسيس

---

1 – معلومات شفوية أفادني بها الأستاذ أحمد بن حميدة، بتاريخ 1982/3/27.

2 – الأستاذ محمد الصالح رمضان: "تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية"، مجلة الثقافة، العدد 70، السنة 12، يوليو أغسطس 1982، ص 60.

3 – باعزيز بن عمر، الإصلاح وأثره في منطقة القبائل، مجلة الشهاب، مرجع سابق، ص 526.

جمعية[1] الكشافة الإسلامية بالجزائر سنة 1935 بقيادة الشهيد "محمد بوراس"[2] منافسة لجمعيات الكشافة الفرنسية بمختلف أنواعها. ولهذه الجمعية دور كبير في تأسيس منظمات كشفية ونوادي محلية تقريبًا في كامل التراب الوطني.

وتعتبر هذه المنظمات على نحو ما امتدادًا للحركة الإصلاحية الباديسية في الجزائر، يقول الأستاذ محمد الصالح رمضان: « إنّ من أوائل البراعم الربيعية للكشافة الجزائرية التي تأسست في مدينة تيزي وزو، وفي نطاق الحركة الإصلاحية "الهلال" وغيرها مما لا أتذكر أسماءها في جيجل وبجاية »[3] وعلى الرغم من الصعوبات والعراقيل التي اعترضتها من مثيلاتها الفرنسية المنافسة، ومن بعض الحكام الاستعماريين وأذنابهم من المواطنين المتواطئين[4] معهم. فإنّ ذلك لم يزد الحركة إلا قوة وصلابة، فشقت طريقها وسارت بخطى ثابتة نحو هدفها المنشود.

ومن أبناء المنطقة الذين واكبوا هذه الحركة الإسلامية محمد الصغير فرج ومحمد القشيعي ورابح بوبريط[5]. هكذا عرفت منطقة القبائل كغيرها من المناطق الأخرى حركة

---

1 – الأستاذ محمد الصالح رمضان، تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية، مجلة الثقافة، عدد سابق، ص 61.

2 – ولد في مليانه سنة 1908، وبها نشأ وتربى وتعلم في الكتاتيب القرآنية والمدرسة الابتدائية الفرنسية، أنشأ أول فوج للكشافة بها سنة 1930 باسم (الخلود) ثمّ انتقل إلى العاصمة وكوّن بها فوجا آخر باسم (الفلاح) وكان يتردد على مدرسة (الشبيبة) ليتعلم العربية في دروس مسائية، وعلى (نادي الترقي) مهد الحركة الإصلاحية لحضور المحاضرات على أساتذة بارزين أمثال الشيخ الطيب العقبي، وابن باديس، والإبراهيمي وغيرهم، وفي سنة 1941 أعدمته السلطة الفرنسية بدعوى اتصاله بالعدو ومحاولة القيام بثورة، فكان أول شهيد وأول ضحية للحركة الكشفية، انظر المصدر السابق، ص 61.

3 – الأستاذ محمد الصالح رمضان، الكشافة الإسلامية الجزائرية، مجلة الثقافة، عدد سابق، ص 60.

4 – من المواطنين المتواطئين مع الفرنسيين الذين يتلقون منهم الوحي ويسيرون في فلكهم، وإن تسموا بأسماء عربية "كشافة القطب" في العاصمة أو انتسبوا إلى الإسلام والجزائر. مثل "الرواد المسلمون الجزائريون EMAالتابعون في الأصل والمنهج والروح لمنظمة "رواد فرنسا اللائكيون" EDF الذين يجمعون بين الطوائف المتساكنة مثلهم "الرواد الإسرائيليون الفرنسيون" EIDF .

5 – الأستاذ محمد الصالح رمضان، مصدر مذكور في هامش رقم (1)، ص 16.

كشفية إسلامية جزائرية من أول عهدها في أحضان الحركة الإصلاحية العامة التي كانت تشرف عليها وتوجهها "جمعية العلماء المسلمين" وقد كان أغلب مؤسسيها ومسيري جمعياتها من تلاميذ مدارس الجمعية أو من أعضاء جمعياتها المحلية.

وكان الكشافون يشاركون الشعب في احتفالاته وجمعياته بلباسهم الرسمي لحفظ النظام، ومد يد المساعدة لهم كما كانوا يشاركون تلاميذ المدارس الإصلاحية الحرة في احتفالات آخر السنة الدراسية، ويقدمون العون والتأييد وتوجيهات دينية في كل تجمع. ويلاحظ أن الشيخ حسن حموتن كان مرشد فرع الكشافة الإسلامية وأحد معلمي مدارس الجمعية، كما كانت الكشافة أيضًا تتلقى تأييدًا وتشجيعًا من الحركة الإصلاحية. هكذا اكتسبت الحركة الكشفية في الجزائر مكانة شعبية، وأصبحت من الحركات الوطنية الواعية التي أحبها الشعب وتعددت فروعها في كل من عزازقة والأربعاء بني راتن وعين الحمام. وتوقفت الحركة الكشفية في تيزي وزو بأمر من السلطة الفرنسية بعد حوادث 8 مايو 1945.

وفضلا عن النشاط التعليمي الذي كانت تضطلع به المدارس الإصلاحية والمساجد الحرة وجمعيات الكشافة الإسلامية التي تأسست في المنطقة، أضاف المصلحون من أبناء المنطقة نشاطًا إصلاحيًا آخر تمثل في تأسيس "نادي السلام" في تيزي وزو سنة[1] 1944، ونادى "الإصلاح" بدلس وبجاية[2] كما تأسست نوادي أخرى في شرق البلاد وغربها.

والملاحظ أن الدور الذي أناطته الحركة الإصلاحية بالنوادي الثقافية كان هدفا مغايرًا للهدف الذي خولته للمدارس العربية المنتسبة لها، ذلك أن هدف هذه النوادي هو إعطاء الشباب تكوينًا اجتماعيًا يجدون فيه متنفسًا ثقافيًا مطبوعًا بطابع إسلامي عربي.

ويتمثل النادي عادة في محل يحتوي على قاعة للاجتماعات وقاعة للصلاة، وقاعة صغيرة لتناول المشروبات (المباحة). ويعتبر النادي ملتقى حرا من كل ضغط

---

1 – معلومات شفوية من السيدين محمد الصغير فرج، وحسن حموتن، بتاريخ 1982/01/10.

2 – د. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الجزائر، ب.ت، ص 165.

ديني فكان بإمكان الشباب على غرار الكهول ارتياد النوادي دون أن يجبروا على الصلاة. ومن جملة ما تهدف إليه هذه المؤسسات الإصلاحية الوصول إلى إبراز مزايا الإسلام واللغة العربية لهؤلاء الشباب.

فقد بات في اعتقاد المصلحين أن ذلك سيمكن الشباب من إدراك الشخصية الجزائرية، وإبعاده من النزوات اللاأخلاقية. لذا قام المصلحون بمبادرات أهمها تنظيم أوقات فراغهم.

وبإيعاز من المسؤولين المحليين تكونت في المنطقة فرق رياضية، وفرق مسرحية، وفرق للكشافة الإسلامية. كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وينبغي أن نذكر ونحن بصدد الحديث عن الحركة التعليمية في منطقة القبائل، نشاط الشيخ الفضيل الورتلاني في الميدان الديني والتربوي، مما يدل على ذلك تمثيله لمجلة الشهاب، والتنقل باسمها، وتكثير أنصارها، وتوضيح خطتها وغايتها.

وتحقيقًا للمهمة التربوية – كما أسلفت – قام في جوان من سنة 1931 بجولة في ناحية القبائل، مدنها وقراها[1]. وقد اغتنم الشيخ هذه الفرصة فتوجه إلى بني يعلى، فألقى هناك دروسًا، وأحيى نفوسًا، وألح عليه أهل بجاية فزارهم صحبة الشيخ السعيد صالحي، وبعض تلاميذه.

وفي بجاية عقد الشيخ اجتماعًا حضره ما يزيد عن 2000 شخص، خطب في الناس فكان صريحًا في وصف الداء والدواء، مبيِّنا مظالم الحكومة الفرنسية، وبالمناسبة دعا الشيخ الطلبة للالتحاق بقسنطينة للاستفادة من الدروس العلمية التي يقدمها ابن باديس، بالإضافة إلى تعريفه وشرحه لمبادئ جمعية العلماء التي كانت يوم ذلك حديثة العهد. وقد استجابت الأمة لهذه الدعوة القرآنية، وأقبلت على العمل، والإعراض عن البدعة.

---

1 – الأستاذ علي محروم، مقال بعنوان "مواقف من جهاد الشيخ الفضيل الورتلاني"، الثقافة، العدد 34، السنة 6، ديسمبر 1976، نقلا عن مجلة الشهاب، ج 7، م 8، عدد 8، 9.

ومن مواقف الشيخ الورتلاني بخصوص الإصلاح المنشود في منطقة القبائل، اهتمامه بقضايا التربية والتعليم ودعوة الناس إلى إنشاء المدارس كالتي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة.

ولعل هذا يعود أساسًا إلى كونه معلمًا ومرشدًا في إحدى المدارس التي أسسها الشيخ. وفي سنة 1936 حين أصدرت هذه المدارس أولى نشراتها التربوية نشر فيها موضوعًا قيمًا تحت عنوان "التربية" ومنه نقتطف هذه الشذرات « إنّ البحث التربوي لا ينبغي أن يكون قاصرًا على تعليم وتربية الصبيان فحسب، بل العناية بإصلاح حالة المعلم والمربي – أولى وأجدى – قيل قديمًا: « كيفما يكون المربي يكون المربى ». إلى أن يقول: « إنّ مهمة هذه النشرة هي التنبيه إلى أصول الداء والإرشاد إلى النافع من الدواء. ولذا أريد أن أقدم نصيحة مجملة لآباء الأطفال لعلها تكون كفيلة بإنقاذ فلذات أكبادهم من ضياع العمران فيما لا يجدي نفعًا.

فمن حقوق الابن على الأب أن يربيه تربية إسلامية، وسيلة إلى ذلك أن يسلمه إلى المربي المسلم الخبير بأساليب التربية السليمة علما وعملا »[1].

ومن هذه الفقرة نستطيع أن تستشف الروح الإسلامية الصحيحة، التي قام على أساسها عمل الشيخ الورتلاني في مجالات التربية والتعليم، والصحافة والتوجيه، للفكر الوطني العام الذي كان يضمنه مقالاته التي يكتبها باستمرار في مجلة الشهاب، وفي صحف جمعية العلماء كالسنة، والشريعة، والبصائر وكان يرى دائمًا أن كل عمل خال من الطابع الإسلامي لا يعتد به، ولا يلتفت إليه إلا في نادر الأحوال.

ونشير إلى أن النشاط الإصلاحي في المنطقة لم يقتصر على الناحية التعليمية فقط، سواء كانت عصرية أو تقليدية (الزوايا)، بل هناك من خدم الحركة الإصلاحية وساهم في بعثها ودفعها نحو الأمام. إما بلسانه أو بماله، ومن هؤلاء الشيخ "حموش كرباني"[2].

---

1 – نشرية جمعية التربية والتعليم بقسنطينة سنة 1936.

2 – انظر ترجمته في الملحق الخاص بتراجم أعلام الإصلاح في منطقة القبائل.

وهو أحد أقطاب الحركة الإصلاحية الذين خدموا الجزائر وعروبتها وإسلامها، وجندوا أنفسهم لترسيخ عقيدتها في مسقط رأسه، بقرية "تيمغراس" ولاية البويرة. ومن نشاطه في ميدان الإصلاح، أنه كان يساعد الطلبة الفقراء ماديًا وأدبيًا. وما من مشروع خيري أقيم إلا وله فيه نصيب، وقد بنى مسجدًا ومدرسة قرآنية بجانب ضيعته الواقعة قرب "قرية الأسنام"[1]. وكان يشرف على جمع التبرعات وأموال الزكاة ليدفع بها إلى صندوق جمعية العلماء[2].

ومن الشخصيات الإصلاحية الذين خدموا الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل "الحاج لونيس"[3] الرجل العصامي وخاتم زمانه، الذي استوطن باريس منذ وقت ليس ببعيد، فهو من المتفانين في خدمة العلماء ومن المتشبعين بالفكرة الإصلاحية.وإليه يرجع الفضل في نشر العربية والإسلام على قمم هذه الجبال. وذلك بواسطة المدارس "الحرة" التي ساهم في ترسيخ أركانها بحيث كان يمدها في كل شهر بأعز ما لديه تشجيعًا لحفظ القرآن الكريم.

وأخيرًا "الحاج محمد بشوشي" الذي نشط هو الآخر في جمع التبرعات لفائدة المشاريع الخيرية في المنطقة وكان له نصيب كبير في تأسيس مسجد برج أم نائل السالف الذكر. ويبدو أن العناية بالمشاريع الخيرية كانت ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري، ولاسيما المجتمع الريفي. إذ لا تكاد تجد قرية أو حيًا في المدينة إلا وفيه مسجد أو مكتب صغير لتعليم القرآن فالغني المتحمس هو الذي كان يقود عملية بناء المساجد والوقف عليها وصيانتها[4].

---

1 – قرية الأسنام تقع على بعد حوالي 8 كلم من البويرة، وتكتب بالسين خلافا لولاية الأصنام سابقا، والشلف حاليًا.

2 – جريدة العصر الأسبوعية، السنة 1، العدد 13، 9 جويلية 1981، ص 5.

3 – مقال نشر في جريدة البصائر، عدد 213، السلسلة 2، السنة 5، 1953/01/16، ص 2.

4 – د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مرجع سابق، ص 244.

هكذا ثارت نخبة من الأمة كما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي « فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدًا في سنة واحدة، في أمهات المدن والقرى »[1] كرد فعل لسياسة الاستعمار الذي منع رجال جمعية العلماء عام 1934 من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد الخاضعة لإشرافها[2]. وفي سنة 1936 قامت جمعية العلماء بتنظيم حملات توعية ودعوة في منطقة القبائل. ويبدو أن نجاح هذه الحملات كان تامًا، إذ أن النزعة البربرية التي كان يغذيها الاستعمار ضد الحركة الإصلاحية لم تستطع أن تؤثر إلا على بعض المثقفين بالفرنسة الذين ترسخ في قلوبهم الفكر الاستعماري لكن بالرغم من ذلك لم تجد صدى لدى الشعب وقد كان حظ المصلحين في منطقة القبائل وافرًا حيث وضعوا تحت تصرفهم رجالا من القبائل ينشرون كلمتهم في هذه القرى النائية[3].

ويلاحظ في هذا الشأن أن منطقة القبائل كانت المنطقة الأكثر احتضانًا للدعوة الباديسية، وذلك بسبب وضعها الجغرافي، وتقاليدها الثقافية. فقد استلهمت أيضًا العربية الفصحى أكثر من غيرها، فكل هذه الشروط تضافرت لتؤهلها لتفهم واعتناق الحركة الدينية التي أتى بها المصلحون على أوسع نطاق.

ومن العوامل التي ساعدت على تذليل الصعوبات أمام المصلحين بهذه المنطقة ضعف المقاومة المرابطية، بحيث لم تشكل عقبة أمام رجال الإصلاح ذلك أن المقاومة المرابطية بهذه الناحية كانت أقل نفوذًا إذا ما قورنت بغيرها من المناطق الأخرى. وعلة ذلك تكمن في أن مستوى التدريس للعلوم الاجتماعية كان على قدر كبير من الأهمية، وعلاوة على ذلك فإنّ العديد من الناس كانوا متشبعين بثقافة عربية موسومة بالعصرية. ثمّ إنّ من حظ الحركة الإصلاحية في المنطقة وجود عدد كبير من الدعاة القبائليين الذين تولوا بوفاء نشر الإصلاح[4] في هذه المنطقة.

---

1 – مجلة "مجمع اللغة العربية"، عدد 21، مرجع سابق، ص 146.

2 – كوليت فرانسيس جانسون، الجزائر الثائرة، مرجع سابق، ص 55.

3 – AGERON Ch. R., Histoire de l'Algérie contemporaine, T 2, op.cit., p. 74.

4 – MERRAD A., op.cit., p. 193.

ويلاحظ أن الحركة الإصلاحية استعانت أيضًا باللهجات البربرية لبث الحركة، وقد تولى نشر هذه الحركة القنزاتي ناصر الدين ناصر، والفضيل الورتلاني، وباعزيز بن عمر، والشيخ أرزقي الشرفاوي، والشيخ المولود الحافظي والشيخ أبي يعلى الزواوي، والشيخ السعيد البهلولي المصلح الديني في بني ورتلان الذي انتصب للتدريس واستمر فيه أكثر من خمسين سنة حتّى أنه كان مرجعًا ثبتا في القضايا الدينية واشتهرت فتاواه بين العلماء والفقهاء حتّى اعتمدوه في أحكامهم فراسلوه وأخذوا بآرائه وفتاويه[1].

ثمّ الشيخ يحي حمودي وقد اهتم هذا الأخير بتدريس العلوم الدينية وتضلع فيها ولاسيما الفقه والتوحيد، مما جعله مرجع العلماء والطلبة في المسائل الفقهية، والقضايا الشرعية المختلفة، التي تواجه الناس في حياتهم العامة في تلك الناحية. ونظرا لمكانة الأسرة الحمودية الدينية والعلمية فإنّ الناس كثيرًا ما كانوا يقصدونها لتأدية اليمين الشرعية. وقد كان يجلس للفتوى فيقصده الناس من كل حدب وصوب على اختلاف طبقاتهم وقضاياهم. كما يعد الشيخ فقيهًا في علم الميراث.

ولعل اهتمامه يعود أساسًا إلى أهميته في المنطقة، وقد تخرّج على يده عدد كبير من العلماء الذين نهضوا برسالة الإسلام في تلك النواحي أمثال الشيخ الطاهر فوقام[2] وغيره. ومما يذكر للتاريخ والاعتبار أن الشيخ يحي حمودي عاش حرا لم يتوظف في الإدارة الفرنسية، صونًا لكرامته، وإيثارًا لخدمة العربية والإسلام وخوفًا من الله بحساسية هذه الوظيفة. وقد كان معهد أسرته بني ورتلان من المعاهد التي نشرت العلم والدين قرونًا، وكان بين أفراد أسرة حمودي ومشايخ الأزهر اتصال وثيق، وتبادل إجازات لا زالت الأسرة الحمودية تحتفظ بها. وهي إجازة مرتضى

---

1 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، الشيخ السعيد البهلولي الورتلاني، المصلح الديني في بني ورتلان، جريدة العصر الأسبوعية، عدد سابق، ص 4.

2 – معلومات شفوية أدلى بها لي الأستاذ محمد الأمين حمودي (حفيد الشيخ) الموظف بالإذاعة والتلفزة الجزائرية، بتاريخ 1982/4/28.

الزبيري التي كتبت سنة 1874[1] ومن هؤلاء المشايخ "الفيروز أبادي"[2] وهـو مـن فارس وصاحب القاموس المحيط، وأخيرًا الشيخ علي والخيار وهـو عمـدة جمعيـة العلماء في المنطقة، وشيخ زاوية سيدي عمرو الشريف بدلس.

درس الفقه وقواعد اللغة العربية في هذه الزاوية، وبعد تأسيس جمعية العلمـاء عيّن عضوًا بها. ومن نشاطه الإصلاحي خلال الثلاثينات، الدعوة إلى الإصلاح. وقـد كان متنقلا وواعظًا إلى آخر أيامه[3]. هذا وإن السر في تأقلم الحركة الإصلاحية فـي منطقة القبائل يعود أساسًا إلى هؤلاء جميعًا وإلى المدارس الحرة المؤسسة في المـدن الكبرى، وإلى جهود الزوايا الصالحة التي لم يتردد عدد منهـا فـي خدمـة الحركـة الإصلاحية منذ بروزها إلى الوجود كزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، غير أن عـين الاستعمار كانت ساهرة في حراسة هذه المؤسسات التعليمية لأنها وقفت سدًا منيعًا أمام جميع تحركاته ولذلك فلا بدّ من محاربتها والتنكيل بأصحابها.

**موقف فرنسا من حركة التعليم العربي الإسلامي:**

أدرك الاستعمار منذ البداية أن استمرار التعليم العربي "الحر" في الجزائر بكـل مواده ومعاهده سوف لا يكون في صالحه، ولا في خدمته مهما احتاط فـي مراقبتـه، وتفنن في طرد معلميه. لهذا عمد إلى الاستيلاء على أوقافه، وتعطيـل معاهـده، ثـمّ فرض على ما تبقى منها نوعًا من التعليم يقتصر فقط على تحفيظ القرآن في الكتاتيب،

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها الأستاذ محمد الأمين آيت حمودة، بتاريخ 1982/4/28.

2 – الفيروز أبادي (محمد): (1329 – 1915)، ولد في كارزين قرب فيروز آباد، من أئمة مؤلفي القواميس العربية، تعلم في شيراز وواسط وبغداد ودمشق علم في القدس، كان يسافر وبصحبة عدة أحمال من الكتب، من أشهر مؤلفاته "القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط".

والفيروزباد مدينة في إقليم فارس (إيران)، أسسها أردشيرا، كان فيها على أيام الساسانيين مسجد لعباد النار، احتلها عبد الله بن عامر بن كريز حاكم البصرة (650). انظر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم (قسم الأعلام)، ط 18، بيروت، د.ت، ص 396.

3 – معلومات شفوية أدلى لي بها الشيخ سعيد معزوزي بتاريخ 1981/9/25.

كانت تابعة لبعض الزوايا والأضرحة والمساجد. غير أن الاستعمار كان يجهل حقيقة هذه المؤسسات الدينية، وطبيعة القرآن حين يتغلغل في نفوس أهله من المسلمين بحيث لم يمض وقت طويل حتّى تحولت الزوايا والمساجد إلى معاهد ومدارس، وقلاع تضطلع بمهام المقاومة الصامتة لمخططات الاستعمار والمبشرين المسيحيين بها[1]. وخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء سنة 1931.

وفي بداية سنة 1937[2] ارتسم رد فعل الإدارة الفرنسية إزاء مدارس الإصلاح، فالمدارس التي كانت تستعمل إلى ذلك الحين بصفة عادية أصبحت مهددة بالقلق بحجة مفادها أنها لا تتوفر على الشروط الصحية والقانونية من طرف المؤسسات الرسمية. ومما ضاعف من حدة المشكل، صدور قرار رسمي سنة 1938 يقضي بالحد من تعليم العربية للأهالي ما أمكن وقد كان تطبيق هذا القرار بمثابة ضربة قاسية للمدرسة العربية الإصلاحية، وللحركة الإصلاحية في الجزائر قاطبة.

ونتيجة لمضايقات الإدارة الفرنسية المفروضة ظلمًا وجورًا، تناقصت جهود الكثير من المدرسين الإصلاحيين إلى درجة أنهم لم يهتدوا إلى السبيل القويم الذي يخوّل لهم الحق بفتح مدرسة "حرة" أو الحصول على إجازة تمكنهم من مواصلة مهمتهم في المدارس الموجودة قبل صدور القرار المشؤوم القاضي بتقليص دائرة تعليم اللغة العربية.

ولعل ما يفسّر لنا هذا السلوك تجاه التعليم العربي الإسلامي هو رفض الجزائر تأييد فرنسا ضد ألمانيا عند بداية الحرب العالمية الثانية[3]. والملاحظ مما سبق، أنه كلما نشطت حركة التعليم العربي، وازداد إقبال المواطنين على تعليم أبنائهم في مدارسها ومعاهدها زاد الاستعمار في القيود المفروضة على هذا التعليم، وتعددت

---

1 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء: "التعليم الديني والإصلاح في الجزائر، من الاحتلال حتّى الاستقلال"، جريدة العصر، العدد 32، السنة 1، 15 نوفمبر 1981.

2 – MERRAD A., op.cit., p. 339 - 340.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 100.

القوانين والقرارات المعرقلة له حتى أنه فيما يذكر أحد المصلحين الجزائريين « لو طبقت ونفذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرفًا عربيًا. ولذلك يجب مقاومة هذه القوانين المفروضة من الاحتلال على الشعب في أمر يتعلق به وحده وهو دينه ولغته لأنها باطلة، والباطل لا يحترم ثمّ هي حرب على ديننا ولغتنا، ولا نتحملها ولو أدت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة »[1].

وتتميز الفترة ما بين 1938 – 1945 بكونها فترة صراع عنيف بين الإصلاح وأعدائه. ويتمثل هذا الصراع في محاولات كثيرة للتضييق على التعليم العربي الإسلامي ومنع المعلمين العاملين به من كل نشاط.

وقد بلغ عدد قضايا محاكمات المعلمين التابعين لجمعية العلماء بتهمة تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي خلال العام الدراسي 1948/1949 فقط سبعًا وعشرين قضية. حكم في بعضها بالتغريم وفي ثلاثة منها بالتغريم والحبس، وفي واحدة منها بالسجن والتغريم المضاعف[2].

وقد كتب الأستاذ مصطفى سعد الحجيلي أحد أساتذة التعليم العربي "الحر" مقالا في جريدة البصائر يشكو من الظلم والاضطهاد المسلطين على المعلمين الأحرار جاء فيه « في هذا الوقت، وقت التقدم والنهوض، وفي هذا العصر، عصر الثورة والمدنية، والحضارة، وفي هذا الجو الذي تتنسم فيه الشعوب نسيم الحرية وتتمتع بالاستقلال، يساق المعلم الحرّ، ويحاكم مع أصحاب الإجرام. فقد كان يوم (4) جانفي سنة 1950 يومًا مشهودًا في قضية مدير مدرسة "إيغيل علي" الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، بدعوى أنه معلم بدون رخصة »[3].

لكن رغم سياسة الاستعمار فإنّ جهود المصلحين لم تنثن وخاصة إذا علمنا أن الهدف الإصلاحي في المجال المدرسي هو تصحيح ما أمكن الوضع الثقافي الذي

---

1 – الشيخ البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، الشركة الوطنية، 1971، ط 2، ص 250.

2 – ساطع الحصري: حوليات الثقافة العربية، السنة 2، العام 1950/1951، القاهرة، ص 568.

3 – البصائر، عدد 104، 23 يناير سنة 1950، ص 1.

يتراءى للمصلحين على أنه وضع جائر. ورغم كل هذه المضايقات واصل المصلحون مهمة التدريس التي كانوا يرمون من ورائها إلى تحسين الوضع الثقافي والرفع من الوضع الأخلاقي والاجتماعي لأمتهم. وبهذه الصورة بدأ الهلع يدب في صفوف أعداء الإصلاح، من مرابطين، متجنسين ودعاة الإدماج، وذلك لما رأوه من تطور وتعاظم الحركة الإصلاحية[1].

وقد كتبت البصائر نفس الموضوع تصف بل تفضح سياسة الاستعمار تجاه الحركة التعليمية في منطقة القبائل، فقالت: « لم تكتف الإدارة الاستعمارية في ناحية أقبو (القبائل الصغرى) بمحاكمة الأستاذ محمد الطاهر الأطرش، المعلم بمدرسة "أيغيل علي"، وإصدار الحكم عليه بتغريم 1200 فرنك في ذلك الوقت بتهمة فتح مدرسة قرآنية بدون رخصة، بل تعدت ذلك إلى دور جديد من أدوار الاضطهاد والتنكيل، اضطهاد العربية وعلوم الدين، والتنكيل بالمعلمين ورجال الإصلاح، ثمّ قالت: « وهناك أمام محاكم ذراع الميزان وتيزي وزو وبجاية قضايا أخرى من هذا القبيل»[2].

الواقع أن محاربة المعلمين، واضطهادهم وإهانتهم قضية قديمة في سجل الاستعمار يعود تاريخها إلى سنوات خلت من تاريخ صدور قانون 8 ماي 1938[3] وفي عام 1933 كتب الأستاذ عبد الحميد بن باديس مقالا بجريدة "الصراط السوي"[4] تحت عنوان "بعد عشرين سنة من التعليم نسأل هل عندك رخصة؟".

وكان للمقال صدى عميق في أوساط التعليم العربي "الحر" فتقبلوا ضغوط الاستعمار بالصبر والعمل والصمود التي تثير الإعجاب، وعن هذا الصمود وتلك الروح الدينية يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: « بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم ونحن نقدر أنها ستعمر، وأن أول المطر قطرة والأحكام ستكون بالغرامة فالسجن،

---

1 – MERRAD A., op.cit., p. 341.

2 – البصائر، عدد 294، السنة 7، 26 نوفمبر 1954، ص 1.

3 – تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 175.

4 – البصائر، العدد 7، السنة 1، قسنطينة، 3 أكتوبر 1933، ص 6.

ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام، ومقاصد الاتهام، وحسبنا شرفًا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخرًا أن تكون التهمة "فتح مدرسة قرآنية بدون رخصة"[1] وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة، وسجن واحد »[2].

وبناء على ذلك قامت السلطات الفرنسية سنة 1933 بغلق مدارس العلماء المصلحين في كل من تلمسان وسيدي بلعباس، وطردت معلميها، كما أغلقت أبواب المساجد في وجه دعاة الإصلاح في هذه المنطقة ومدينة الجزائر حيث يوجد الشيخ الطيب العقبي المعروف في ذلك بمواقفه المعادية للفرنسيين وأعوانهم من الطرقيين والدجالين المتظللين على الإسلام.

وبهذا أتهم بأنه "وهابي المذهب"[3] وقد أثارت هذه الإجراءات التعسفية موجة من السخط وأدت في النهاية إلى قيام مظاهرات عامة معادية لتدخل السلطات الفرنسية في شؤون الدين. وفي سنة 1933 استنكر ابن باديس القرار المتضمن غلق المساجد والمدارس في وجه العلماء في خطبة له بنادي الترقي بالعاصمة، كما جرت مظاهرات أخرى عنيفة بالعاصمة بسبب منع الشيخ الطيب العقبي من إلقاء دروسه في الجامع الجديد، وتدخل الحكومة في الشؤون الدينية. وقد استعملت السلطات قوات الشرطة ضد المتظاهرين، واعتقلت كثيرًا منهم ولم تهدأ المظاهرات حتّى وعدت السلطات بالسماح للعقبي، باستئناف دروسه.

---

1 – البصائر، عدد 64، 24 جانفي 1948، ص 2. وعيون البصائر، ص 383، 384.

2 – البصائر، العدد السابق، ص 2.

3 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 45.

ويعتبر المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في الجزائر سنة 1936 مناسبة ثمينة مكنت المصلحين من شرح أهدافهم السياسية والثقافية[1]. وابتداء من هذا التاريخ أصبحت الحركة الإصلاحية أكثر التزامًا بالمسائل السياسية، ذلك أن الحركة الإصلاحية لم تتوقف عند حدود نشر العقيدة الدينية والأخلاقية فقط، بل امتدت أيضا إلى إحياء الثقافة العربية في بلد فرضت فيه قوانين فرنسية.

وعلى هذا الأساس كان عمل المصلحين جادًا في جميع المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية. وقد جاء في إحدى مذكرات أحد الساسة الفرنسيين "شارل كولومب" بخصوص التعليم الذي كانت تطالب به مدارس جمعية العلماء قوله: « أن نتركهم في جهل وفقر وإهمال حتى لا يجدوا وسيلة للثورة والانتقاض »[2].

هكذا كانت تسعى فرنسا منذ وجودها على أرض الجزائر إلى شل العزائم، ورفض مطالب الجزائريين فهذا "شارل كولومب" يسعى كالأفعى بين صفوف المساكين لمنعهم من التعليم العربي وتطبيق سياسة التفقير والتجهيل، وفصلهم عن العالم العربي الذي ينتمون إليه حضاريًا، ولم يسمح بتعليم الفرنسية إلا بقدر ما يحتاج إليه من أعوان له في مهمته بقصد الخلود وتدلنا على هذه السياسة الإحصائيات الفرنسية المعلنة سنة 1954 والتي نشرت سنة 1955 وهي تقول: « إنّ نسبة الأمية في الجزائر سنة 1954 بلغت 94% بين الرجال و96% بين النساء » بل تجاوز ذلك إلى المساجد والجوامع التي أنشأها الشعب لأداء الشعائر الدينية. ومن ذلك المنشور الذي أصدره[3] والي الجزائر في 16 فبراير 1933 هاجم فيه العلماء المصلحين الوطنيين الذين اتخذوا من المساجد والجوامع منابر للوعظ والإرشاد وتعليم المواطنين أمور الدين بطريقة حية، وأسلوب شيق يتلاءم مع تطورات العصر.

---

1 – د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، مرجع سابق، ص 45. انظر أيضا: الإبراهيمي، الشهاب، يوليو 1936، ص 195، 196.

2 – أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2، مرجع سابق، ص 274.

3 – جريدة الشريعة، العدد 1، 17 يوليو 1933، ص 4.

وقد هاجم الوالي المذكور بصفة خاصة "جمعية العلماء" واعتبر أعضاءها مشوشين يعملون لمصلحة الجامعة العربية، والجامعة الإسلامية. ولم تمض مدة طويلة حتّى عزز المنشور بقرار 18 فبراير من نفس السنة حرم فيه على المساجد الرسمية والمساجد الحرة وعلى رجال الجمعية، ومنعهم من التدريس أو عقد حلقات الوعظ والإرشاد[1] فيها. وهذا ما وقع مثلاً لمسجد "قنزات" بالقبائل الصغرى، من اعتداء أعوان الشرطة.

وقد احتج ابن باديس على هذا التصرف لدى عامل قسنطينة على النحو التالي «يوم الجمعية 22 أكتوبر من عام 1937 بينما كان أحد الشباب المثقفين الشيخ الفضيل الورتلاني يفسر آيات كتاب الله أمام جمع غفير من مسلمي القرية، إذ دخل عليهم أعوان الشرطة واعتدوا عليهم، منتهكين حرمة الأماكن المقدسة[2]، وفي نفس الفترة أصدرت إدارة الاحتلال الحكم بالسجن على الشيخ السعيد صالحي والأستاذ يوسف العلاوي في منطقة بني يعلى بدعوى انتمائهما لهذه الحركة.

ومن نشاط هذا الأخير في ميدان الإصلاح في ناحية بني يعلى نشر المقالات في جريدة البصائر تحت عنوان"معنى الشرف"، تعرض فيها للرد على تساؤلات بعض المتشككين في أصالة الشعب الجزائري[3].

هكذا كان موقف أبناء المنطقة المصلحين جادًا وفي جميع المجالات، ولعل أهم شخصية لعبت دورًا هامًا في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي هو الشيخ أرزقي

---

1 – البصائر، العدد 3، 7 أغسطس 1936، وكذلك عدد 26، 27، 30 سنة 1936.

2 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 184.

3 – وقد أدلى لي بهذه الشهادة الأستاذ يوسف يعلاوي الأمين العام للمنظمة الوطنية للمجاهدين، وبتاريخ 1981/8/23. والأستاذ يعلاوي معروف بمواقفه الإصلاحية والنضالية الذي جعل السلطات الفرنسية تراقب كل تحركات في بني يعلا باعتباره سهما محرقًا في وجه الاستعمار. وفي الفترة ما بين (1937 – 1949) تعرض لأبشع أساليب التعذيب من طرف الحكومة الفرنسية. وأودعته غياهب السجون إلى أن استقلت الجزائر سنة 1965، حيث تمّ الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين الجزائريين.

الشرفاوي. ونظرًا لمكانته العلمية وحركته الإصلاحية القوية الطويلة المدى أرى من الواجب أن أتوقف عنده باعتباره شخصية إصلاحية بارزة من رجال العلم وإن كان لم ينتم إلى جمعية العلماء، فأذكر نبذة عن حياته ونشاطه.

### الشيخ أرزقي الشرفاوي الأزهري

ولد الأستاذ الشرفاوي في قرية شرفة بهلول[1] بالقرب من مدينة عزازقة سنة 1880م ولما بلغ سن التمييز أدخله والده إلى زوايتهم المعروفة بزاوية شرفة بهلول. وهناك اشتغل بحفظ القرآن الكريم، ثمّ انتقل إلى زاوية سيدي أحمد بن إدريس البجائي "الزواوي" بقبيلة يلولة بمنطقة القبائل فأتقن القرآن الكريم حفظا ورسما وتجويدا، ثمّ انتقل إلى زاوية سيدي عمر الحاج بقبيلة بني يجر (آيت يجر) وفيها تعلم النحو والفقه والتوحيد، ومبادئ اللغة العربية والحساب.

ذهب إلى الجزائر العاصمة وهناك التحق بالمدرسة الثعالبية، وكان فيها آنذاك العالم الجليل الشيخ عبد القادر المجاوي مدرسًا. فواظب الشاب على دروس الشيخ مدة سنتين كان خلالهما مثار إعجاب الأستاذ، ومناط أمله حيث كان مثالا للطالب الموهوب، الجيد السلوك والأخلاق[2]. ثمّ انتقل إلى المشرق العربي قصد المزيد من العلم بعد أن زوده أستاذه المجاوي بإرشاداته ونصائحه ومما قاله له وهو يودعه: « أحسن الظن بالله واتقيه في السر والعلانية وتسلح بالصبر فأنت المنتصر إن شاء الله»[3]. فالتحق الشاب بالجامع الأزهر وواصل فيه دراسته إلى أن أتقن جميع العلوم التي كانت تدرس بالأزهر في ذلك الوقت. وفي عام 1901 تحصل على شهادة العالمية وتصدى هناك للتدريس والبحث العلمي، وقد دامت هذه المدة 11 سنة. وفي سنة 1933 قرر الرجوع إلى الوطن.

---

1 – قرية من قرى زواوة في منحدر جبل بني غبرين، ولما تمّ لفرنسا الاستيلاء على زواوة بعد الحرب السبعينية، أنشأت مدينة بالقرب من تلك سمتها سباو الأعلى.

2 – الأستاذ محمد الصالح الصديق: مقال بعنوان "الشيخ الرزقي الشرفاوي"، جريدة العصر، الأسبوعية، العدد 8، السنة 1، 4 جوان 1981، ص 3.

3 – نقلا عن مجلة الثقافة، مقال بعنوان "الشيخ الشرفاوي"، عدد 22، السنة 1، الجزائر، 1974، مرجع سابق، ص 12.

وعند وصوله إلى عاصمة الجزائر استقبل من العلماء استقبالا حارًا منهم الشيخ السعيد بن الزكري مدير المدرسة الثعالبية في ذلك الوقت وهو الذي كان يرافقه ايام إقامته بالعاصمة. وتعرف على عالمين جليلين بعاصمة الجزائر وهما الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي. وتحدثوا طويلاً حول الحركة الإصلاحية بالجزائر والطرق التي يجب اتخاذها لتحرير العقول من قيود الجهل، والخروج به إلى نور المعرفة حتّى يتم دحر كل الوساوس والدسائس التي ينصبها الاستعمار عقبة في طريق التقدم.

ونظرا لمكانته العلمية والأدبية عرض عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس العمل معه في العاصمة وفي صفوف جمعية العلماء، وأبدى له رغبته الملحة في الإقامة بالعاصمة. ولكن الشرفاوي فضل العمل في المناطق الريفية المحرومة من العلم والتي كانت تسود فيها البدع والخرافات وانتشرت فيها سياسة الاستعمار والمبشرين، فرأى أن يعمل في منطقة القبائل لهذه الأسباب[1].

مقتصرا على نشر البحوث والمقالات في جرائد جمعية العلماء، ولقاء زملائه المصلحين حينًا آخر قصد التشاور وتبادل الرأي. وبعد وصوله إلى مسقط رأسه (شرفة بهلول) عرض عليه طلبة المعهد اليلولي في رغبة وإلحاح التدريس في معهدهم فلبى الشيخ الدعوة وشرع في مهمته الجديدة. وكان هذا المعهد يمتاز بكثرة الطلبة واستقلال نظامه وحرية أساتذته، حيث كان الطلبة هم الذين يتولون تسيير شؤونه بأنفسهم. لازم الشيخ التدريس بالمعهد المذكور إلى 1945[2]. وقد ألف الشيخ كتبًا[3] هامة نذكر بعضها مع أن الكثير منها قد ضاع وهذه الكتب هي:

1 – الخلاصة المختارة في فضلا الزواوة.

2 – إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب.

---

1 – نقلا عن مجلة الثقافة، مقال بعنوان "الشيخ الشرفاوي"، مرجع سابق، ص 12.

2 – نقلا عن مجلة الثقافة، مقال بعنوان "الشيخ الشرفاوي"، عدد سابق، ص 13.

3 – المصدر السابق، ص 13، 14.

3 – الدروس الإنشائية لطلبة زوايا زواوة[1].

4 – بغية الطلاب في علم الآداب.

5– الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية.

ويضاف إلى هذا عدد من المقالات نشرت في جريدة البصائر تناول فيها حقيقة[2] إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية. ومقالات أخرى حول المصلح الديني والتعليم الهادف نشر طائفة منها في جريدة البصائر وطائفة أخرى في جريدتي "الأمة والثبات" كما كان ينشر في جريدة الصديق الجزائرية تحت عنوان "أسباب الرقي".

وفي مقال له بالعدد الصادر في جويلية 1925 تحدث عن الحضارة في المغرب العربي وسعة الثروة وانتشار العلوم، أما كتابه الدروس الإنشائية لطلبة زواوة الموجود عند الأستاذ محمد الصالح الصديق وهو الذي نقل منه النص التالي «أما بعد فقد كنت مدرسًا بمعهد سيدي عبد الرحمن اليلولي وطلب مني الطلبة أن أدرس لهم علم الإنشاء فأجبت طلبهم بعد الإلحاح ثمّ فكرت في اختيار المادة التي تعود عليهم بالنجاح لم أجد من بين الكتب المتداولة ما يناسب أحوالهم، وخصوصًا أن هذا العلم أحدث في هذا المعهد وليدا جديدا فينبغي أن أسلك بهم لأجل ذلك طريقا مفيدا لذلك لم أر بدّا من الرجوع إلى ما كتبته من الدروس حين تلقيت هذا العلم عن مشايخي بالأزهر الشريف ضممت إلى تلك الدروس ما رايته صالحًا لإفادة الطلبة فألقيت دروسًا مفرقة ثمّ جمعتها رسالة صغيرة فجاءت بحمد الله تزهو بمحاسنها بين الرسائل والله هو المسؤول أن يجعلها في هذا الفن من خير الوسائل»[3].

ويتبين من هذا النص أن الشيخ الشرفاوي كان مهتمًا بالأسلوب الحديث في التدريس، و له آراء إصلاحية وخاصة في المجالات الدينية والتعليمية والسياسية. ففي

---

1 – مخطوط موجود عند الأستاذ محمد الصالح الصديق، وله مصاهرة مع الشيخ الشرفاوي وهو مكتوب بخط يد الأستاذ الشرفاوي.

2 – جمع وتحقيق الأستاذ محمد الصالح الصديق، سنة 1955.

3 – نقلا عن الثقافة، العدد السابق، ص 14.

المجال الديني كان عمله الإصلاحي يستهدف المرامي التي كان يستهدفها الأستاذان الكبيران جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده.

ويعتبر عمله الإصلاحي امتدادًا لحركة الأفغاني والشيخ محمد عبده. ولذا كان الشيخ يشيد بها باستمرار، وكان يدعو في دروسه ومقالاته إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة السلف الصالح، وعمل الصحابة ومن بعدهم، وقد جاء على لسانه قوله: «من المعلوم أن الإصلاح له فروع كثيرة ومسالكها متشعبة مختلفة، والذي يعنينا الآن الإصلاح الديني ولا يتوسل إليه إلا بالعلم فلزم من أجل ذلك إصلاح التعليم الديني بالمعاهد الموجودة عندنا»[1].

ويرى أن الإسلام يمتاز بخصائص كثيرة غير أن المسلمين كانوا يجهلون دينهم، ولم يدركوا أسراره، ولم يطبقوا أحكامه ولذلك انحرفوا وتأخروا وتخلفوا حضاريا. ولو فهموه على حقيقته، وعملوا به وتفاعلوا معه ومع تعاليمه وأحكامه لما تخلفوا فقال: « ولو اشتغل الأدعياء بتفهم القرآن والسنة وعلموا ما فيها من الأحكام لأبرزوا الدين في أجمل صورة ولكن للأسف تركوا ذلك فانتشرت بينهم الخرافات، إذ الخرافات من أكبر عوارض جهل الأمم، فتسلط عليهم الوهم والخيال فاعتقدوا الحق باطلا والباطل حقًا»[2] ويلخص الأستاذ الشرفاوي الشروط التي يرى ضرورة توفرها لدى الداعي إلى الإسلام قوله: « يجب على الداعي أن يكون عالمًا تمام العلم بطريق الله وهو المراد بسبل الرب وبكلّ الوسائل الموصلة إليه وهو العلم مع اتفاق العمل وهو أن يضع كل شيء في موضعه... إلى أن قال: وإن يتلطف في كل ذلك، وأن يتجنب الألفاظ الجافة والعبارات الشنيعة وكل ما يوجب تنفير القلب وإثارة الشغب، قوي الحجة متين الدلالة »[3].

---

1 – الشيخ الرزقي الشرفاوي، مقال بعنوان: "أدع إلى سبل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة". نشر جريدة البصائر، عدد 104، 11 أفريل 1938، ص 4.

2 – المرجع السابق، ص 4، 5.

3 – المرجع السابق، العدد 111، 29 أفريل سنة 1938، ص 1، 2.

وقد كان الأستاذ الشرفاوي يردد دائمًا أن علة العلل في تأخر المسلمين تكمن في أنفسهم لا في دينهم ويرى أن باب الاجتهاد مفتوح لمن توفرت له الوسائل. ويرى أيضًا أن العقل يجب أن يغسل من الأدران والبدع والخرافات التي تعوق الفكر عن التقدم وعن الإدراك والرؤية الواضحة.

**أولًا – في المجال الأخلاقي:** كان الشرفاوي يعيب على المسلمين فتور الهمة والعزيمة والرضى في إبقاء الأوضاع على ما عليه. فكان على لسانه دائما قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... ﴾[1] ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... ﴾[2]. ويرى أن تربية المرأة تربية إسلامية يساعد على تنشئة الأجيال تنشئة قويمة قوية باعتبارها المدرسة الأولى للطفل. كما يرى ذلك المربون، وإن إهمال المرأة وعدم العناية بها يؤدي حتمًا بالأمة الإسلامية إلى الهلاك.

وقد كان يدعو دائمًا في هذا المجال إلى القرآن، والسنة الصحيحة والتمسك بالعادات والأخلاقية الكريمة.

**ثانيًا – في مجال التعليم:** كان الشرفاوي ينعى على الفقهاء تحجرهم على النص وتشبثهم باللفظ ومشاكل الإعراب دون العناية باللب والروح والجوهر، وهكذا يتدرب الطالب على الألفاظ ومشاكل الإعراب دون فهم للدلالات الفكرية، ودون القدرة على التصرف والفهم والاستنتاج.

وقد شن الشرفاوي حربًا على بعض الزوايا التي كانت تقتل المواهب الفكرية التي يتمتع بها الطلبة في المنطقة، وثار الشيخ على أصحاب الزوايا حتّى حرضوا عليه الطلبة، وحاربوه بكلّ ما لديهم لأنهم كانوا يعتقدون أنه عدو مخالف للدين مقصر فيه، لأنه يعيب عليهم التزمت، والتحجر، والجمود على الماضي.

---

1 – سورة الرعد: الآية 11.

2 – سورة آل عمران، الآية 110.

وهذه الحملات لم تثن الشرفاوي عن عمله فواصل تدريسه فكوّن العديد من الطلبة المصلحين الذين نشروا آراءه في المنطقة وأثر فيهم أيما تأثيرا بإدخاله علوم كثيرة في التدريس واعتماده على الاجتهاد والوسائل الحديثة وكل هذا كان غريبًا عن الزوايا ومريديها في ذلك المعهد.

غير أن ما أحدثه الشرفاوي في هذا المعهد أو الزاوية لم يرض الطرقيين المتحجرين الذين كانوا يفضلون إبقاء الوضع على ما هو عليه، بل يعرضه لسخطهم وغضبهم ويؤلبهم ضده، وكان الشرفاوي يعاني من هؤلاء متاعب كثيرة، ويعيش في جو خانق منذ أن عاد من مصر إلى مسقط رأسه سنة 1933[1] وقد كان هؤلاء لا يألون جهدًا في محاربتهم بوسائل مختلفة أخطرها وأشدها تلك الداعية المسمومة القائلة بأن دين الشرفاوي يسعى للقضاء على القرآن ويريد تحويل الزوايا إلى مدارس عصرية لدراسة العربية وحدها[2].

وقد كتب الشرفاوي عشرات المقالات في البصائر والثبات وغيرهما ينتقد سلوكهم المشين ويفند آراءهم السقيمة، ويدعوهم إلى الجادة المثلى التي يجب سلوكها.

ومن تلك المقالات سلسلة نشرها في "الثبات" حول التعليم الديني وسلوك القائمين به مع التعريج على ذكر من يجدر به أن ينال لقب العالم الديني في هذا العصر. وعن تلك الحرب الضروس بين الشرفاوي ومناهضيه كتب الأستاذ باعزيز بن عمر الذي واكب هذه الفترة وعاش أحداثها في مجلة "الشهاب"[3] مقالا سنة 1936 يشيد فيه بعزيمة الشرفاوي، وجهاده العلمي المثمر، ومساعيه الحثيثة من أجل القضاء على نظم التعليم العقيمة ويلح عليه أن يواصل جهاده بما عرف به من فكر ثاقب، وعلم واسع، وقلم مثمر، وعزم فولاذي[4].

---

1 – الأستاذ محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 12.

2 – الأستاذ نفسه، مقال بعنوان: "العلامة باعزيز بن عمر"، مجلة أول نوفمبر، اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين، العدد 38، 1979، ص 34.

3 – الشهاب، ج 9، مجلد 11، سنة 1936.

4 – محمد الصالح الصديق، "العلامة باعزيز بن عمر"، مجلة 1 نوفمبر، مرجع سابق، ص 34.

ومما جاء في هذا المقال قوله: « وسرّنا جميعًا أن يرتفع صوتكم من أعلى تلك الجبال الشم مؤذنًا بموجب استنكار الحالة التي آل إليها أمر التعليم الديني هناك على أيدي قوم يرون أن كل مناقشة تثار حوله هي نذير شؤم في نظرهم فقلمك الذي هب يكتب عنها اليوم هذه المقالات القيمة نرجو أن لا يجف له مداد لتحقيق أمنية إصلاح التعليم على مرأى ومسمع من أولئك المتشائمين الذين قلب التشاؤم عليهم الأوضاع الحيوية، وحول أنظارهم، فلم تمتد مع الزمن فقصروا هممهم على الرضى بالدون واستحسان ما ليس بالحسن »[1].

**ثالثًا – في المجال السياسي:** فكان الشرفاوي ينعى على الأمة الجزائرية البائسة، وكان يقاوم أعداء الحرية ومنهم بعض الطرقيين والعلماء والموظفين الذين لا ضمير لهم ولا روح، فهمهم الوحيد أن يتمتعوا بمزايا الاستعمار. وكان ينفخ الروح الوطنية في طلبته ويؤكد لهم بأن الإنسان بلا حرية تافه لا معنى له ولا قيمة، ولذا على الأمة أن تسعى للتحرر من قيود الاستعمار الفرنسي. وكان الأستاذ لا يفتأ يندد بالاستعمار ويفتح عيون النائمين على مآربه ودسائسه.

وكان يحارب بشدة، وبالأخص التبشير المسيحي في المنطقة وعلى الرغم من المراقبة المستمرة التي كان المستعمر يحاول فرضها على المثقفين بالعربية سيما من هو في مستوى الشيخ علمًا وتجربة الذي كان يدرك طبيعة الاستعمار وأهدافه السياسية والثقافية، ويكشف عن دسائسه وأساليبه الدنيئة. ويدعو إلى اليقظة والوعي، ويؤكد أن الجزائري لن يلبث طويلا حتّى يهب ويمزق ما تقنّع به ويطرد عدوه ويفضح سياسته.

وقد سمع كلمة من أحد المناضلين تحدث فيها عن حرية الجزائر فقال له الشيخ: « ليس هناك طريق إلى الحرية سوى القوة وليس هناك طريق إلى الحياة سوى الموت، ولن يريحنا من الاستعمار إلا الانفجار »[2].

وقد نشر الشرفاوي مقالات بعنوان "أسباب الرقي" تحدث فيها عن العلم والحديث وهو رأي المصلحين الكبار ومما قاله في ذلك: « إنّنا لا نريد بالعلم العلوم الدينية لأنها موجودة عندنا، وإنّما نريد العلوم الصناعية التي هجرت في البلاد

---

1 – نقلا عن مجلة الشهاب، ج 9، م 11، السنة 1936.

2 – نقلا عن مجلة الثقافة العدد السابق، ص 21، جاءت هذه الكلمة على لسان الأستاذ محمد الصالح الصديق.

الإسلامية، في هذا الزمن وهي مرقاة الأمم في كل عصر كالعلوم الميكانيكية الهندسية والكيمياوية والتجارية، وسائر الصناعات» إلى أن قال « فعلى أعيان الأمة وأغنيائهـا ومصلحيها أن يجتهدوا في إيجاد الطرق لتوصيل العلوم العصرية لينتشلوا أممهم مـن الهاوية ويحفظوا لها كيانها ويعيدوا لها مجدها »[1].

هكذا قضى الشيخ الشرفاوي حياته كلها معلمًا وواعظًا ومبينًا طرق التخلص من الجهل والتحرر من الفقر ومن قيود الاستعمار إلى أن توفي سنة 1945 رحمه الله.

---

1 – الشيخ الشرفاوي، مقال بعنوان: "أسباب الرقي"، نشر بجريدة الصديق الجزائرية، العدد الصادر بتاريخ 1921، تحت رقم 39.

## الخلاصة:

تعتبر الفترة المدروسة من أهم الفترات في تاريخ الجزائر الحديث، حيث اشتد فيها الصراع بين الحركات الوطنية من جهة والاستعمار الذي كان يعمل على طمس الشخصية الجزائرية من جهة أخرى.

ومما ساعد على ذلك انتعاش الثقافة الوطنية، وظهور الصحافة الوطنية والوعي الكبير. وأول حركة سياسية ظهرت خلال العشرينات هي حركة الأمير خالد.

ومن الصحف الهامة التي واكبت هذه الحركة جريدة "الإقدام" الناطقة باللغتين العربية والفرنسية. هذا وأهم ما تتميز به الجزائر من الناحية السياسية خلال الثلاثينات وقوع حدثين بارزين وهما:

1 – الاحتفال المئوي الرهيب على احتلال الجزائر.

2 – ظهور جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 كرد فعل عنيف ضد السياسة الفرنسية التي كانت تعمل على شل الحركة الوطنية الجزائرية.

ومن أهداف الجمعية في هذا الميدان إحياء التراث العربي الإسلامي بتعميم الثقافة العربية، ونشر الوعي الوطني في أوساط الجزائريين. وبذلك كانت أكبر علامة للتحدي لكل محاولات الغزو الفكري والاستلاب الثقافي في الجزائر.

ومن الشخصيات التي ظهرت على المسرح السياسي خلال الثلاثينيات الدكتور ابن جلول ومصالي الحاج، وفرحات عباس الذي نشر البيان الجزائري سنة 1943.

هذا وفي الفترة ما بين (1939 – 1945) عرفت الحركة الوطنية الجزائرية تطورًا ملحوظًا تمثل في طرح القضية الجزائرية، وإبراز حقوقها على المستويين الوطني والدولي، رغم ما أصابها من فتور نتيجة تعرض بعض الزعماء السياسيين الجزائريين للسجن والتشريد.

وقد كان هم الفرنسيين خلال هذه الفترة الاحتفاظ بالجزائر تحت سلطتهم ورفض المطالب الوطنية. وقد تجسد هذا الرفض في تصريحات القادة الفرنسيين الذين يدعون بأنهم ليسوا مستعدين لتغيير عقلية الجزائر الفرنسية.

ولعل هذه السياسة كانت أحد العوامل الهامة التي ساعدت على ظهور حركات سياسية أخرى، كحركة أحباب البيان والحرية. وقد بعثت هذه الحركة الأمل في أوساط الجزائريين باعتبارها حركة وطنية تجمع في صفوفها كل الاتجاهات الوطنية التي أصبحت لأول مرة موحدة وراء هدف واحد وهو الحرية والاستقلال ضمن إطار الشخصية الجزائرية.

وقد استمر نشاطها إلى أن وقع حلها بعد حوادث ماي 1945 التي أدت إلى مقتل حوالي 45000 جزائري. بالإضافة إلى الأحكام العرفية التي أصدرتها الحكومة الفرنسية ضد الوطنيين الجزائريين. وبعد هذه الحوادث تبين للمسؤولين أنه لا خلاص من الاستعمار الفرنسي إلا بتوحيد الصف والمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

وفضلا عن مواقف الاستعمار المتصلبة تجاه المطالب الوطنية فإنّ الجزائر تعرضت لخراب اقتصادي خطير، ومما يدل على ذلك أن معظم الموارد الاقتصادية كانت بأيدي المعمرين الذين استولوا على كل المجالات الاقتصادية كالزراعة والتجارة والوظائف الإدارية. هذا من الناحية الاقتصادية أما من الناحية الثقافية فهدف الاستعمار كان يتمثل في محو الثقافة العربية الإسلامية، وإحلال ثقافة فرنسية محلها.

وقد تجلى عمله التخريبي في القضاء على المراكز الثقافية المنتشرة عبر المدن والقرى، وما إلى ذلك من تشويه لتاريخ الجزائر، واستبدال التعليم العربي بالتعليم الفرنسي. وكان الغرض من وراء ذلك أن يتحول المجتمع الجزائر تحويلا كليًا يجعله يخدم مصالح المستعمر، وأخيرًا تبين أن الشعب لم يرض بهذه السياسة الأمر الذي ساعد على ظهور صراع ثقافي بين ثقافة الوطنية وثقافة المستعمر. ومن نتائج هذا

الصراع ظهور تيارين ثقافيين متباينين. تيار الثقافة الفرنسية، وتيار الثقافة العربية الإسلامية المدعم من طرف الزوايا والمصلحين.

وتعتبر منطقة القبائل أكثر من غيرها احتضاناً لهذا التيار الإسلامي ومما يدل على ذلك كثرة علمائها وخاصة في العلوم الإسلامية كالفقه والتصوف، وهذا باعتراف الأجانب. ومن ذلك أن بجاية قديمًا كانت تزخر بنشاط ثقافي وحركة علمية استقطبت عددا لا يحصى من رجال الفن والأدب. وكانت مراكز التعليم بها هي المساجد والزوايا التي تؤدي دورًا تعليميًا من جهة، ودينيًا من جهة أخرى.

ولهذه الزوايا قوانين عامة وخاصة، وأحباس تعتمد عليها في نفقاتها ومن أهم الزوايا التي خدمت الثقافة الإسلامية ونشر اللغة العربية في المنطقة خلال الفترة وقبلها، زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي، والزاوية السحنونية بالأربعاء نايت إيراثن. وزاوية سيدي علي يحيى بذراع الميزان، وزاوية آيت بو يحي بني دوالة، وزاوية الشيخ أحمد زروق التي تحولت بعد ظهور الحركة الإصلاحية في المنطقة إلى مدرسة إصلاحية.

وقد لعبت هذه المؤسسات الدينية بمختلف أنواعها دورًا بارزًا في جميع المجالات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية. وتعتبر هذه الزوايا وليدة الطريقة الرحمانية التي ادخلها محمد بن عبد الرحمن إلى الجزائر في القرن الثاني عشر الهجري (18م). وقد انتشرت تعاليم الرحمانية في الجزائر وخصوصًا في شرقها ووسطها وفي تونس والسودان. ولهذه الطريقة أتباع ومريدون يزورون الزاوية مرة على الأقل في السنة لأخذ الورد على الشيخ.

وقد أدت هذه المؤسسات القرآنية في منطقة القبائل خدمات جليلة كنشر الدين والتعليم على أوسع نطاق وفي ظروف صعبة جدًا، حيث أن الزعماء الرحمانيين لم يدخروا أي جهد في إعلان الجهاد في سبيل الله.

وتعتبر زاوية الشيخ الحداد من أهم الزوايا التي شاركت في ثورة المقراني 1871، وأبلت فيها البلاء الحسن. هذا وبالإضافة إلى وظيفتها الإيجابية نجد لبعض الزوايا دورًا سلبيًا، وقد تجسد خاصة في البدع التي أحدثتها في الدين، والخرافات

والدروشة التي ينشرها أتباعها بسبب ضيق أفقهم الفكري والعمل على فساد الأخلاق والتعامل مع السلطات الاستعمارية التي اغتنمت هذه المظاهر السلبية وغذتها في نفوس العامة السذج حتّى يبقوا على هذه المبادئ الغالطة، وخاصة بعد أن اتضح لها فشل سياسة الاستعمار أمام المقاومة الشعبية التي قادها رؤساء الزوايا الصالحة، وحتّى يتحقق مطمع الإدارة الفرنسية في الجزائر راحت تشجع حركات التبشير المسيحي بهدف التنصير والفرنسة.

وتعتمد هذه السياسة من الناحية النظرية على بعض نصوص المبشرين الذين بينوا فيها أغراضهم التبشيرية، كالتنويه بالحضارة الرومانية المسيحية وتشويه الحضارة العربية الإسلامية، التي وصفوها بكل النقائص من ذلك قول أحدهم بأن الفتوحات الإسلامية فرضت على البربر (الأمازيغ) الإسلام بالإكراه والسيف وقطعت صلة البلاد بالحضارة الغربية والكنيسة.

وقد تجسدت هذه الفكرة في الأدب الأوروبي خلال القرن التاسع عشر. ومن أقطاب هذه النزعة الكاتب "لويس برتران" ومن سياسة الاستعمار والمبشرين في هذا الاتجاه، التفرقة بين السكان عملا بسياسة (فرق تسد) التي اشتهروا بها منذ الاحتلال، اعتقادًا منهم أن الجزائر تتكون من عنصرين متباينين من السكان، ذاهبين إلى القول بأن العنصر البربري هو الأصيل أما العرب فهم غزاة ودخلاء.

ومما ساعد على تعميق سياسة فرق تسد بين الأهالي تضافر جهود المبشرين ودعاة البعض للكيان القبائلي. ومن دعاة هذه السياسة في الجزائر الدكتور فارنية اعتقادًا منه أن سكان القبائل بربر لهم أصل وماض وحضارة قريبة من حضارة الفرنسيين، ويمكن إدماجهم في المجتمع الفرنسي.

بهذا حاول المبشرون تمزيق شمل الوحدة الوطنية للشعب الجزائري، وخاصة سكان الريف، بإحياء العصبية الأمازيغية التي حاربها الإسلام. إنّ الشيء الذي يجذب الانتباه ويلفت النظر أكثر هو أن سياسة التبشير المسيحي في المنطقة لم تقتصر على الناحية النظرية كما أسلفت، بل امتدت لتشمل الناحية العلمية. وقد تجسدت في الواقع الحي

حين أقبل المبشرون على إنشاء شبكة من المدارس، للأطفال العرب والمسيحيين والملاجئ والمستوصفات، وتقديم المساعدات لليتامى والعجزة.

وقد كانت منطقة القبائل من أهم المناطق التي ركز عليها المبشرون جهودهم، وذلك لأسباب كثيرة ولعل أبرزها فقر المنطقة اقتصاديًا وبعدها عن المدن الكبرى، وأخيرًا تشجيع السياسيين الفرنسيين للحركة التبشيرية في الجزائر عامة وفي المنطقة خاصة. وحتّى يتحقق هدفهم في مجال التنصير والإدماج اشتروا بعض الأراضي في المنطقة لبناء المراكز التبشيرية بها، ومن نشاطهم من خلالها تقديم الخدمات الاجتماعية للسكان كالتعليم والتطبيب ومساعد اليتامى والفقراء. ولعل تركيز المبشرين على الناحية التعليمية، وخاصة تعليم الصغار يعود إلى كونهم أكثر من غيرهم استعدادًا لتقبل العلم. وفي هذا المجال شرعت الإدارة الفرنسية في القضاء على مراكز الثقافة الإسلامية، وإغلاق المدارس القرآنية التي كانت قائمة في مختلف أنحاء الوطن.

في حين نشطت الجانب الثاني وهو التعليم الفرنسي بفتح المجال لتأسيس المدارس الفرنسية، وما إلى ذلك من مشاريع أخرى لتطوير المنطقة ماديًا ومعنويًا كما يدعون وبهذا الدعم والتأييد من الحكومة الفرنسية تطورت الحركة التبشيرية في الجزائر وعرفت منطقة القبائل على إثرها بعثات تبشيرية أخرى لتتمم ما بدأه لافيجري. وتحقيقًا لهدف التنصير تأسست في المنطقة مراكز تبشيرية هامة. وقد كانت بلدية الأربعاء نايت إيراثن أكثر من غيرها احتضانًا لهذه الحركة. وأخطر ما توصلت إليه هذه الجماعات التبشيرية إشراك السكان في عملية التبشير.

لكن رغم كل الوسائل فإنّ الجهود التي بذلها المبشرون باءت كلّها بالفشل الذريع. ولعل أهم العوامل التي ساعدت على هذا الفشل الصراع الذي حدث بين لافيجري والجنرال ماكماهون تخوفًا من غضب الأهالي، ومعارضة المعمرين "الكولون" لكل نشاط تبشيري هادف إلى إنشاء قرى عربية مسيحية لأن ذلك يعتبر تضييقًا عليهم، وخطرًا يهدد مصالحهم في نظرهم. بالإضافة إلى رد فعل السكان المتمثل في الرفض الكامل لكل عمل تبشيري، لتمسكهم بالدين الإسلامي. وهذا

باعتراف المبشرين أنفسهم لهذه الحصانة الدينية والمقاومة المعنوية التي يتمتع بها سكان الريف. ومما يدل على هذا الرفض للمبشرين وأعوانهم أن المتجنس في نظر السكان يعتبر مارقًا في الدين وينفرون منه نفورًا كبيرًا.

وانطلاقًا من هذه الرؤية البعيدة للسكان يمكن القول بأن السبب في ظهور الحركة الإصلاحية في المنطقة خلال العشرينات يعود أساسًا إلى هذه المقاومة الشعبية لسياسة الاستعمار والمبشرين. ومما ساعد على نشأة هذه الحركة في المنطقة لجهود التعليمية لأبناء المنطقة أمثال الشيخ أحمد زروق الذي انتصب للتدريس في بجاية خلال القرن الخامس عشر (15م) وبظهوره تكونت في منطقة القبائل نواة اشتهرت بالإصلاح الديني والتربوي، والشيخ السعيد ابن الزكري الذي ألف سنة 1903 كتابًا في الإصلاح، ويعتبر ابن الزكري بكتابه هذا أول من أبرز فكرة أساسية للإصلاح الديني والاجتماعي في المنطقة في بداية هذا القرن. ثمّ تأثير دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان يقدمها بالجامع الأخضر وجامع سيدي قموش بقسنطينة سنة 1913 لأبناء المنطقة. وقد بلغ عددهم[1] 40 تلميذًا، ومن هؤلاء الشيخ باعزيز بن عمر، والشيخ صادق عيسات البوجليلي والشيخ حسن حموتن من تيزي وزو، والشيخ العربي عيسى المدعو بالشيخ القمقوم، والأستاذ الهادي حجرس (قائد الناحية العسكرية بقسنطينة).

ومن نشاط هؤلاء في ميدان الإصلاح الديني إعادة النظر في أمر هذه الزوايا، وخاصة بعد عودة الرعيل الأول من أبناء المنطقة من المشرق العربي خلال الثلاثينيات، أمثال الشيخ المولود الحافظي والشيخ الرزقي الشرفي الأزهريين المتشبعين علمًا وأخلاقًا. وقد هالتهم الحالة التي آل إليها التعليم بهذه الزوايا ولذلك انتقدوا أساليبها التعليمية العقيمة القائمة بها، وكشفوا عن الوسائل الإرهابية التي يستعملها مشايخ الزوايا في قتل المواهب وشل العزائم، ونادوا بإدخال أساليب بيداغوجية جديدة تتماشى والقدرات العقلية للأطفال.

---

1 – الأستاذ باعزيز بن عمر، "الإصلاح وأثره في منطقة القبائل"، مجلة الشهاب، عدد سابق، ص 526.

هكذا أصبح الشعب بصيرًا بأعمال بعض الطرقيين المتزمتين وبسياسة المبشرين المسيحيين المحميين من طرف الاستعمار في العمل على تنصير أبناء وبنات المنطقة. وقد كان رد فعل المصلحين تجاه الحركة التبشيرية في الجزائر بشكل عام قويًا. ويتجلى ذلك في النهضة العلمية والدينية التي نادى بها الشيخ عبد الحميد بن باديس في دعوته العامة للشعب الجزائري وفي النوادي الثقافية والجمعيات الخيرية التي كونها بنفسه في مختلف المناطق. بالإضافة إلى اليقظة العامة التي دبت في الشعب الجزائري خلال الحربين العالميتين وتطلع الجزائريين إلى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينيًا واجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا، وفعلا فإنّ المهاجرين من المنطقة إلى فرنسا اكتشفوا حياة جديدة – أتاحت لهم فرص التعرف على معنى الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

وأخيرًا فإنّ السبب في نشأة حركة الإصلاح في المنطقة يعود إلى الصراع الذي ظهر بين المصلحين والطرق الصوفية المنحرفة. ولعل سبب هذا الصراع حدث بعد الدعوة الجديدة إلى الإصلاح، وبعد الهجوم على أساليبهم العقيمة وفهمهم الناقص للإسلام، ذلك أن المصلحين كانوا يؤمنون بالتطور أو بمعنى آخر فإنّ التغيير أصبح مبدأ من مبادئ الفكر الإصلاحي في حين أن التغيير في المجتمع لدى خصومهم يعد ثورة وانقلابًا في الحياة رأسًا على عقب. وهذا يضر بالمجتمع أكثر مما ينفع، بالإضافة إلى أن الحركة الإصلاحية كانت تعتمد على الكتاب والسنة في فهم الدين، ذلك أن الاعتماد على غيرهما من النصوص الأخرى أدى بالناس إلى البلبلة والشك والاضطراب، بل إلى تمزق المسلمين، وإلى ظهور طوائف أضرت بالوحدة الإسلامية.

أما رجال الطرق فإنّهم يعتقدون في النصوص الأخرى خاصة ما يتصل بالتصوف ومعانيه ويرون فيه طريقًا لتطهير المسلم مما يعاني في حياته روحيًا وماديًا. ومن أثر هذا الصراع انتشار الحركة الإصلاحية في المنطقة. وتأسيس المدارس الإصلاحية والمساجد الحرة والنوادي الثقافية. كمدرسة بجاية الإصلاحية ومدرسة دلس ومسجد برج أم نائل ومدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو، وكلها في نطاق الحركة الإصلاحية.

ومن أهداف هذه المدارس بعث النهضة والروح الوطنية في الأمة وحفظها من الذوبان، ومن الجهل والانحلال. ومن جملة المشايخ الذين ساهموا في هذه الحركة التعليمية والتربوية الشيخ الهادي الزروقي والشيخ الفضيل الورتلاني في بني ورتلان، وما إلى ذلك، من المشايخ الآخرين وعددهم كبير. غير أن عين الاستعمار كانت ساهرة في مراقبة هذه المؤسسات التعليمية لأنها وقفت سدًا منيعًا أمام جميع محاولات المسخ والتشويه للشخصية الوطنية. ولذلك حاربها الاستعمار بكل قوة من أجل التضييق على التعليم العربي الإسلامي بتهديد القائمين به بالسجن والتغريم.

ولعل أهم شخصية لعبت دورًا هامًا في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي خلال الفترة المدروسة (1920 – 1945) الشيخ أرزقي الشرفاوي الأزهري. ونظرا لمكانته العلمية وحركته الإصلاحية القوية الطويلة المدى خصصت له شطرًا من هذا البحث أعطيت لمحة عن حياته ونشاطه في المجالات الدينية والتعليمية والسياسية. ويعتبر عمله الإصلاحي امتدادًا لحركة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده. وقد اتجه إلى التربية والتعليم باعتبارهما الأساس الذي تقوم عليه عملية تجديد الفكر الإسلامي من ناحية، وعملية بعث النهضة الجزائرية الحديثة من ناحية أخرى. ولولا هذه الجهود لتحقق للمبشرين ما كانوا يهدفون إليه ويعتبر الشيخ الشرفاوي بحق شخصية قوية دافعت عن الإسلام والعربية في المنطقة رغم سياسة الاستعمار والمبشرين وبعض المرابطين المنغلقين.

هكذا قضى الشيخ حياته كلّها معلمًا وواعظًا مبينًا طرق التخلص من الجهل والتحرر من قيود الاستعمار إلى أن توفي سنة 1945 – رحمه الله – هذا وقد توصلت إلى نتائج هامة:

1 – توحيد الصف بين الأحزاب الوطنية وخاصة بعدما اتضح لها فشل كل المطالب الوطنية، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بنفس القوة. ويمكن القول بأن حوادث ماي 1945 قد مهدت فعلا لإعداد أول نوفمبر 1954 واندلاع الثورة المباركة

التي قربت بين وجهات نظر الأحزاب السياسية حول هدف واحد وهو إعلان الثورة المسلحة.

2 – إنّ الفضل في نشر اللغة العربية وحفظ الإسلام في ربوع هذه المنطقة يعود إلى هذه الزوايا. وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم الذين أرجعوا فشل سياسة التنصير والفرنسة إلى هذه المؤسسات الدينية التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها. ومما يدل على ذلك أن الكثير من مجاهدي ثورة 1954 كانوا بالأمس القريب طلابًا في هذه الزوايا.

3 – فشل سياسة التبشير المسيحي أمام المقاومة الوطنية والقوة المعنوية التي كان يتمتع بها السكان. رغم الجهود المبذولة ويمكن القول بأن هذه السياسة ساهمت فعلا في نشأة الحركة الإصلاحية في المنطقة خلال العشرينيات.

4 – نجاح الحركة الإصلاحية في المنطقة وذلك بسبب وضعها الجغرافي وتقاليدها العربية الإسلامية. ولعل ذلك يعود إلى كون المنطقة أكثر من غيرها استلهامًا للعربية الفصحى لقربها من قسنطينة، مهد الحركة الإصلاحية، وضعف المقاومة المرابطية في هذه الناحية إذا ما قورنت بغيرها من المناطق الأخرى. وكلّ هذه الشروط تضافرت لتؤهلها لتفهم واعتناق الحركة الإصلاحية التي نادى بها المصلحون على أوسع نطاق.

هذا ويجدر بالباحثين أن يولوا اهتماما متزايدًا إلى الفترة التي تأتي بعدها إلى غاية الاستقلال (1945 – 1962) وهي جديرة بالبحث والتنقيب.

# الملاحق

ملحق رقم (1): الزوايا.

ملحق رقم (2): الكنائس.

ملحق رقم (3): مدارس الآباء البيض.

ملحق رقم (4): القساوسة والأخوات البيض.

ملحق رقم (5): مدارس جمعية العلماء.

ملحق رقم (6): تراجم أعلام الإصلاح.

ملحق رقم (7): الخرائط والصور.

ملحق رقم (1): إحصاء عام للزوايا حسب الدوائر والبلديات[1]

| العدد | مكان الزاوية | البلدية | الدائرة |
|---|---|---|---|
| 01 | زاوية سيدي علي موسى | معاتقة | تيزي وزو |
| 02 | زاوية سيدي علي بوبكر (الشرفة) | تيقزيرت | تيقزيرت |
| 03 | زاوية الشيخ شريف بتيلميلين | تيقزيرت | تيقزيرت |
| 04 | زاوية تاجديوت | معاتقة | تيزي وزو |
| 05 | زاوية بوعاصم | تيزي وزو | تيزي وزو |
| 06 | زاوية الشرفة بهلول (عزازقة) | عزازقة | عزازقة |
| 07 | زاوية تيفريت نايت الحاج | عكورة | عزازقة |
| 08 | زتوية تيفريت نايت أومالك | بوزقان | عزازقة |
| 09 | زاوية سيدي عمرو الحاج | بوزقان | عزازقة |
| 10 | زاوية سيدي أحمد وادريس | يلولة | عزازقة |
| 11 | زاوية سيدي عبد الرحمن (يلولة) | يلولة | عزازقة |
| 12 | زاوية تالة مقران جامع الصهاريج | مقلع | عزازقة |
| 13 | زاوية سيدي منصور | تيميزار | عزازقة |
| 14 | زاوية سيدي أمحمد أومعلم | ايفرحونان | عين الحمام |
| 15 | زاوية سيدي علي تاغالت | ايفرحونان | عين الحمام |
| 16 | زاوية سيدي موسى | ايفرحونان | عين الحمام |
| 17 | زاوية اسحنونان جامع الصهاريج | مقلع | عزازقة |
| 18 | زاوية سيدي علي أوطالب | عين الحمام | عين الحمام |
| 19 | زاوية سيدي أحمد أو السعيد (قرية عدني) | أرجان | الأربعاء نايت إيراثن |

– 1

1 – البصائر، العدد: 59، السنة 2، السلسلة 2، 1948/12/6، ص 4.

2 – تقرير مديرية التعليم الأصلي والشؤون الدينية لولاية تيزي وزو، بتاريخ 17 فبراير 1981.

| 20 | زاوية سيدي محمد السعدي | دلس | دلس |
|---|---|---|---|
| 21 | زاوية سيدي عمر الشرف | سيدي داود | دلس |
| 22 | زاوية سيدي علي أويحي (بني كوفي) | بوغني | ذراع الميزان |
| 23 | زاوية محمد بن عبد الرحمن | بوغني | ذراع الميزان |
| 24 | زاوية تازروت | ذراع الميزان | ذراع الميزان |
| 25 | زاوية الحمامي | الأخضرية | الأخضرية |
| 26 | زاوية بلجبل | أمعالة | أمعالة |
| 27 | زاوية الشيخ محفوظ | أمعالة | أمعالة |
| 28 | زاوية الرابطة | عمر | عمر |
| 29 | زاوية الشيخ ابن عامر | القادرية | القادرية |
| 30 | زاوية أحمد بودربالة | القادرية | القادرية |
| 31 | زاوية آيت بويحي (بني دوالة) | بني دوالة | تيزي وزو |
| 32 | زاويى الشيخ السحنوني | الأربعاء | عين الحمام |
| 33 | زاوية بوخالفة | تيزي وزو | تيزي وزو |

## ملحق رقم (2): إحصاء عام للكنائس في منطقة القبائل[1]

| العدد | مكان الكنيسة | تاريخ تأسيسها | البلدية | الدائرة | حالتها اليوم |
|---|---|---|---|---|---|
| 01 | كنيسة تيقزيرت | حوالي 1820 | تيقزيرت | تيقزيرت | حولت إلى مسجد سنة 1971 بأمر من البلدية. |
| 02 | كنيسة تاقمونت عزوز | 1830 | بني دوالة | تيزي وزو | حولت إلى مقر للبلدية بعد الاستقلال. |
| 03 | كنيسة مدينة دلس | حوالي 1850 | دلس | دلس | أعيد بناؤها بإشراف البلدية سنة 1967. |
| 04 | كنيسة ذراع بن خدة (ميرابو) سابقًا | حوالي 1857 | ذ/ بن خدة | ذ/بن خدة | حولت إلى قسم تابع للمدرسة سنة 1964 بأمر من البلدية. |
| 05 | كنيسة مدينة عزازقة | حوالي 1881 | عزازقة | عزازقة | حولت إلى مدرسة بإشراف الآباء البيض. |
| 06 | كنيسة قرية مقلع | حوالي 1881 | مقلع | عزازقة | هي الآن تحت إشراف البلدية. |
| 07 | كنيسة برج أم نائل | 1883 | ب/أم نائل | ب/أم نائل | أصبحت الآن مقرًا للبلدية. |
| 08 | كنيسة مدينة يسر | 1884 | يسر | ب/أم نائل | حولت إلى مسجد سنة 1963 بأمر من البلدية. |
| 09 | كنيسة قرية شعبة العامر | 1884 | شعبة العامر | ب/أم نائل | حولت إلى مطعم مدرسي سنة 1968 بأمر من البلدية. |
| 10 | كنيسة قرية بغلية | 1885 | بغلية | ب/أم نائل | حولت إلى مسجد سنة 1962. |
| 11 | كنيسة سيدي داود | 1885 | س/داود | ب/أم نائل | حولت إلى مسجد سنة 1963. |
| 12 | كنيسة مدينة الأخضرية | 1885 | الأخضرية | الأخضرية | تقرر تحويلها إلى مسجد باتفاق السكان. |

[1] – تقرير مديرية الشؤون الدينية لولاية تيزي وزو سنة 1981، تحت رقم 5/4.

| 13 | كنيسة قرية بني عمران | 1885 | بني عمران | الأخضرية | هي تحت إشراف البلدية في الوقت الحاضر. |
|---|---|---|---|---|---|
| 14 | كنيسة ذراع الميزان | 1885 | ذ/الميزان | ذ/الميزان | حولت إلى ساحة للشهداء. |
| 15 | كنيسة تيزي غنيف | 1890 | تيزي غنيف | ذ/الميزان | هي الآن تحت اشراف البلدية. |
| 16 | كنيسة بوغني | 1890 | بو غني | ذ/الميزان | جددت سنة 1900 على يد الآباء البيض. |
| 17 | كنيسة مدينة تيزي وزو | 1893 | تيزي وزو | تيزي وزو | حولت إلى مسجد سنة 1966 بأمر الولاية والبلدية. |
| 18 | كنيسة مدينة البويرة | 1893 | البويرة | البويرة | أصبحت مخزنا للحبوب. |
| 19 | كنيسة قرية بوخالفة | 1815 | تيزي وزو | تيزي وزو | حولت إلى قسم تابع للمدرسة سنة 1967 بأمر من البلدية. |
| 20 | كنيسة قرية مشدالة (مايو) سابقًا | 1895 | امشدالة | البويرة | حولت إلى قسم سنة 1963. |
| 21 | كنيسة راس جنات | 1900 | ب/أم نائل | ب/أم نائل | مهجورة وخربت في عهد الاستقلال. |
| 22 | كنيسة مدينة الأربعاء نايت إيراثن | 1900 | الأربعاء | الأربعاء | حولت إلى مسجد سنة 1964. |
| 23 | كنيسة قرية الجباحية | 1900 | القادرية | الأخضرية | حولت إلى مسجد سنة 1962. |
| 24 | كنيسة بونوح | 1931 | بوغني | ذ/الميزان | مهجورة. |
| 25 | كنيسة مدينة تادمايت | 1933 | تادمايت | ب/أم نائل | حولت إلى مسجد سنة 1964. |
| 26 | كنيسة قرية وغران | 1933 | عين الحمام | عين الحمام | مهجورة وبها مساكن وأقسام صالحة للدراسة واقترحت المفتشية أن تكون معهدًا إسلاميًا. |
| 27 | كنيسة عين الحمام (ميشلي) سابقًا | 1938 | عين الحمام | عين الحمام | حولت إلى مدرسة قرآنية سنة 1963 اقترحت البلدية |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | | | تحويلها إلى قاعة للسينما. |
| 28 | كنيسة قرية الناصرية | ؟ | الناصرية | ب/أم نائل | ؟ |
| 29 | كنيسة عكورة | ؟ | عكورة | عزازقة | ؟ |
| 30 | كنيسة مدينة أزفون | ؟ | أزفون | عزازقة | ؟ |

## ملحق رقم (3): إحصاء عام لمدارس الآباء البيض بمنطقة القبائل[1].

| الدائرة | البلدية | مكان المدرسة ونوعها | عدد الأقسام | عدد المعلمين | مذهبهم | نشاطهم | عدد المتعلمين بها | نظامها | | نوع التعليم بها |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | | | | | | | داخلي | خارجي | |
| تيزي وزو | | تكميلية تيزي وزو (1) | 06 | 10 | كاثوليك | التعليم | 029 | - | 029 | المحاسبة الإدارية والرسم. |
| | | تكميلية تيزي وزو (2) | 02 | 04 | بروتستاني | التعليم | 82 | - | 82 | التعليم فقط على الآلة الراقنة الإناث (28) الذكور (54). |
| | بني دوالة | مدرسة تاقمونت عزوز | 04 | 06 | كاثوليك | التعليم | 138 | 33 | 105 | تعليم عام كالتربية |

[1]-تقرير مديرية الشؤون الدينية لولاية تيزي وزو، فيفري 1981، تحت رقم 5/4.

| | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | مدرسة ابتدائية بقرية تيزي هيبل | 03 | 05 | كاثوليك | التعليم | 100 | - | 100 | فيها (18) أخوات بيض وممرضة واحدة. |
| عزازقة | عزازقة | تكميلية عزازقة | 04 | 05 | كاثوليك | التعليم التقني | 108 ت.عام 20 ت. تقني | - | 128 | المستوى الابتدائي والمتوسط. |
| | | مدرسة ابتدائية | 04 | 08 أخوات | كاثوليك | التعليم | 140 | - | 140 | الخياطة والشؤون المنزلية. |
| | مقلع | تكميلية مقلع جامع الصهاريج | 03 | 04 | كاثوليك | التعليم التقني | 85 | 029 | 056 | ابتدائي ومتوسط تقني. |
| | | مدرسة ابتدائية بجامع الصهاريج | 03 | 05 أخوات | كاثوليك | التعليم التقني | 45 | - | 045 | يعلمن البنات الخياطة والشؤون المنزلية. |
| المجموع: | | | 29 | 47 | | | 747 | 62 | 685 | |

| | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الأربعاء نايت إيراثن | الأربعاء | شبه تكميلية بالأربعاء بني إيراثن | 02 | 06 | كاثوليك | التعليم | 30 | - | 30 | تعليمي سياسي، كل من رسب في الامتحان يأتي إليهم ليكمل عندهم تعليم عام كالتربية. |
| | | مدرسة ابتدائية بالأربعاء بني إيراثن | 03 | 06 أخوات | كاثوليك | الخياطة | 80 | - | 80 | 6 أخوات يستقبلن البنات كل مساء من يوم الخميس ليعلمنهن. |
| | عين الحمام | مدرسة قرية واغزان ابتدائية | 04 | 04 أخوات | كاثوليك | التعليم | 60 | - | 60 | 4 أخوات يعلمن البنات النسج والغزل والخياطة والتدبير. |
| | بني يني | تكميلية بني يني | 04 | 05 | كاثوليك | التعليم | 150 | 105 | 45 | تعليم عام كالتربية، المستوى الابتدائي والثانوي |
| | | مدرسة ابتدائية | 03 | 05 أخوات | كاثوليك | التعليم | 060 | - | 60 | يعلمن الصناعة اليدوية والخياطة والطهي والتدبير. |

| برج أم نائل | تادمايت | تكميلية تادمايت | 05 | 09 أخوات | كاثوليك | التعليم | 500 | - | 500 | 9 أخوات و(11) جزائريات تعليم عام كوزارة التربية. |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ذراع الميزان | بو غني | تكميلية بو غني | 03 | 05 | كاثوليك | التعليم | 85 | 40 | 18 | تعليم فلاحي – فيزياء – كيمياء – هندسة. |
| | واضية | مدرسة ابتدائية بقرب تاوريرت عبد الله | 02 | 03 | كاثوليك | التعليم | 58 | - | 58 | برنامج التعليم كوزارة التربية والتعليم. |
| | | مدرسة بنفس القرية | 03 | 05 أخوات | كاثوليك | التعليم | 50 | - | 50 | 5 أخوات وممرضة يعلمن البنات الخياطة وشؤون المنزل. |
| المجموع: | | | 29 | 46 | | | 1063 | 145 | 901 | |

**ملحق رقم (4): إحصاء عام لعدد القساوسة والأخوات البيض، وعدد التلاميذ الذين يتعلمون عندهم[1].**

| الدائرة | البلدية | عدد القساوسة | عدد الأخوات البيض | عدد التلاميذ | | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | | | ذكور | إناث | |
| تيزي وزو | تيزي وزو | 03 | 03 | 263 | 28 | عدد المدارس التابعة للقساوسة هي (17) وعدد الأقسام (60). |
| تيزي وزو | بني دوالة | 06 | 05 | 138 | 100 | |
| عزازقة | عزازقة | 05 | 08 | 135 | 140 | |
| عزازقة | مقلع | 04 | 05 | 085 | 045 | |
| الأربعاء | الأربعاء | 02 | 06 | 030 | 080 | |
| الأربعاء | عين الحمام | 01 | 04 | - | 060 | |
| الأربعاء | بني يني | 05 | 05 | 150 | 060 | |
| برج أم نائل | تادمايت | - | 09 | - | 500 | |
| ذ/ الميزان | بوغني | 05 | - | 085 | 050 | |
| ذ/ الميزان | واضية | 03 | 05 | 058 | 050 | |
| المجموع: | | 34 | 50 | 1044 | 1113 | |

1 - تقرير مديرية الشؤون الدينية لولاية تيزي وزو، فيفري 1981 تحت رقم 5/4.

**ملحق رقم (5): المدارس التي أسستها جمعية العلماء من سنة 1931 حتّى 1956[1].**

| العدد | أسماء المدارس | أسماء المدن والقرى التي توجد بها |
|---|---|---|
| 01 | مدرسة بجاية | بجاية. |
| 02 | مدرسة برباشة | بتاوريرت برباشة. |
| 03 | مدرسة جمعية التربية والتعليم | بوقاعة، بجاية. |
| 04 | مدرسة دلس | دلس، تيزي وزو. |
| 05 | مدرسة الشبيبة الإسلامية | تيزي وزو. |
| 06 | المدرسة الخلدونية | بجاية. |
| 07 | مدرسة تازمالت | تازمالت، بجاية. |
| 08 | مدرسة ايغيل النصر | أقبو. |
| 09 | مدرسة خراطة | قرب بجاية. |
| 10 | مدرسة آيت يخلف | قرب مايو. |
| 11 | مدرسة بني منصور | بني منصور. |
| 12 | مدرسة القصر | ناحية مايو. |
| 13 | مدرسة أولاد سيدي إبراهيم | مايو. |

1 – نشطت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تكوينها 1931 حتّى أوقفتها الإدارة الاستعمارية في أواخر سنة 1956 بعد اشتداد المعركة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر في تأسيس المدارس الإصلاحية وقد كان عددها في الفترة ما بين 1931 – 1956 يفوق 150 مدرسة موزعة على مختلف المناطق من القطر الجزائري، انظر المراجع التالية:

– البصائر، العدد 56، 57، نوفمبر سنة 1948، ص 7.

– البصائر، العدد 56، السنة 2، السلسلة 2، 31 جانفي 1949، ص 7.

– البصائر، العدد 65، السنة 2، السلسلة 2، سنة 1949، ص 1.

– البصائر، العدد 135، السنة 3، السلسلة 2، 1950/12/18.

– د. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، من ص 375 – ص 393.

| 14 | مدرسة بوجليل | قرية بوجليل. |
|---|---|---|
| 15 | مدرسة أوصدوق | تيزي الجمعة. |
| 16 | مدرسة عين الحمام | تيزي وزو. |
| 17 | مدرسة بني وعبان | تيزي وزو. |
| 18 | مدرسة آيت عيلام | عين الحمام. |
| 19 | مدرسة ايغيل علي | ايغيل علي. |
| 20 | مدرسة قندوز | أقبو. |
| 21 | مدرسة قمون خيار | بني خيار. |
| 22 | مدرسة تيفليست | بني منصور (مايو). |
| 23 | مدرسة آيت علي | عين الحمام. |
| 24 | مدرسة تاحريقت | أكفادو (عكورة). |
| 25 | مدرسة قنزات | قنزات. |
| 26 | مدرسة آيت يوسف وعلي | آيت يوسف وعلي (عين الحمام). |
| 27 | مدرسة العجيبة | ناحية مايو. |
| 28 | مدرسة تازايارت | ايغيل علي. |
| 29 | مدرسة عدني | تيزي وزو. |
| 30 | مدرسة أولاد علال | جيجل. |
| 31 | مدرسة برج أم نائل | برج أم نائل، تيزي وزو. |

## ملحق رقم (6): تراجم أعلام الإصلاح في منطقة القبائل (1920-1945).

### 1 - الشيخ عبد الله شريفي المدعو أوشاشي[1]

ولد في قرية أعزيب سيدي الصادق (القبائل الصغرى)، يعود تاريخها إلى عصر المرابطين الشرفاء الذين رابطوا في هذه الناحية في سبيل الله. وهو من عائلة العلم والدين، كرّس حياته كلّها في خدمة الإسلام توفي سنة 1942.

### 2 - الشيخ السعيد البهلولي الورتلاني (1857 - 1945) [2]

إنّه من شرفاء المرابطين الذين رابطوا في الوطن منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، ولد في إحدى القرى البهلولية (بالقبائل الصغرى). والبهاليل نسبة عربية من لفظها ومن معانيها الأبطال الأشراف. واسمه محمد السعيد بن محمد الطاهر بن أحمد بن محمد الطاهر بن الحاج يذير. استظهر القرآن الكريم حفظًا ودراية على يد أبيه الشيخ الطاهر أبهلول وبمساعدة أخته السيد "شريفة"، انتصب للتدريس واستمر فيه أكثر من خمسين سنة حتّى أنه كان مرجعًا ثبتًا لكل العلماء والفقهاء واشتهرت فتاويه بينهم حتّى اعتمدوها في أحكامهم فراسلوه وأخذوا بآرائه وفتاويه. وللشيخ السعيد البهلولي رسالة مطبوعة في الرد على القائلين من الخرافيين بوجوب تلقين الأوراد للعوام من المريدين. وهي الرسالة التي طبعت بمطبعة رودوسي على نفقة بعض أعيان قرية

---

1 - معلومات شفوية من السيدين:

1 - الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، مدير مكتبة قصر الحكومة، بتاريخ 1981/03/30.

2 - الأستاذ بوعلام شريفي (حفيد الشيخ) الموظف بالإذاعة والتلفزة الجزائرية، بتاريخ 1982/03/28.

2 -

1 - معلومات شفوية من الأستاذ محمد الطاهر فضلاء (نجل الشيخ) بتاريخ 1981/03/30.

2 - معلومات شفوية أفادني بها الشيخ عبد المجيد يخلف، مدير الشؤون الدينية ببجاية، بتاريخ 1981/12/31.

3 - جريدة العصر الأسبوعية، العدد 8، السنة 1، جوان 1981، ص 4.

"سيدي عيش" سنة 1928. وقد قرظها أو أثنى عليه وعليها من العلماء آنذاك كثيرون ومنهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي كتب له رسالة مطولة ما تزال محفوظة بخطه.

### 3 – الشيخ علي والخيار (... – 1932)[1]

ولد في قرية واقنون قرب تيزي وزو عام ... تعلّم في زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، وعلّم في زاوية سيدي عمرو شريف ناحية دلس. وبعد تأسيس جمعية العلماء سنة 1931 عين عضوًا بها، ترك التدريس بالزاوية المذكورة. واشتغل بالإصلاح، ودعا الناس إليه.

كان كثير التجوال يلقي أثناءه الدروس والمحاضرات في الوعظ والإرشاد. ويعتبر عمدة الإصلاح في ناحية القبائل. واستمر نشاطه الإصلاحي إلى غاية وفاته سنة 1932. ودفن بتاصاداقت (بني واقنون) القبائل الكبرى.

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي:

1 – الأستاذ أحمد بن حميدة الموظف بمديرية التربية بالجزائر العاصمة بتاريخ 1982/3/27.

2 – الشيخ شيخاوي الحاج محمد وعمرو بتاريخ 1981/10/21.

3 – الشيخ شاب الله علي، إمام المسجد العتيق بمدينة تيزي وزو بتاريخ 1982/4/25.

### 4 – السعيد أبو يعلى الزواوي (1857 - 1952) [1]

ولد بقرية تيفريت نايت الحاج بلدية أزفون دائرة عزازقة (القبائل الكبرى) هاجرت عائلته إلى الشام. وهناك نشأ وتعلم ثمّ عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، بقلب يفيض حماسًا وغيرة على الإسلام. حارب البدع والخرافات في كتاباته. استغل بالتعليم والوعظ والإرشاد. وعين إمامًا رسميًا في جامع سيدي رمضان أين كان يسحر الناس ببلاغته وعلمه. إنّه من أبرز أعضاء جمعية العلماء، اشتهر بحفظ القرآن الكريم، وغزارة علمه ولاسيما في الفقه. وللشيخ تآليف مفيدة منها:

1 – تاريخ الزواوة (مخطوط).

2 – الأمة العربية.

3 – الإسلام الصحيح.

4 – تعدد الزوجات في الإسلام.

5 – الخطب النبوية المنبرية.

6 – جماعة المسلمين.

7 – رسالة في العائلة الزواوية المهاجرة إلى الشام.

توفي في 2 يونيو 1952 بعد عمر طويل حافل بالجهاد العلمي والإصلاحي.

---

1 –

– معلومات شفوية أدلى لي بها:

1 – السيد محمد الطاهر شقيق أبي يعلى الزواوي بتاريخ 1981/8/30.

2 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، بتاريخ 1981/03/30.

3 – جريدة العصر الأسبوعية، العدد 4، السنة 1، 1981/7/16، ص 3.

4 – الأستاذ أحمد حماني، محاضرة ألقاها بالمركز الثقافي الإسلامي علي بومنجل، الجزائر العاصمة، بتاريخ 1974/04/10.

5 – د. محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها، تطورها، أعلامها (1903– 1931)، ج 2، مرجع سابق، ص 229.

### 5 – السيد حموش كرماني (1880 – 1962) [1]

ولد الحاج حموش شعبان كرماني سنة 1880 بقرية تيمغراس – ولاية تيزي وزو، التحق بقسنطينة تاجرًا سنة 1914وعمل بها أمين صندوق الطلبة، شارك بأمواله في شراء دار الطلبة بقسنطينة، بنى مسجدًا ومدرسة قرآنية قرب ضيعته، الواقعة بولاية البويرة حاليًا.

وكان يشرف على جمع الزكاة ليدفع بها إلى صندوق جمعية العلماء، شارك في مظاهرة 8 ماي 1945 وكان من المنظمين لها، وفي نفس العام اعتقلته السلطات الاستعمارية وعذب عذابًا شديدًا، ثم حكم عليه بالإعدام. وبقرار عام من الجنرال ديغو، أعفي عنه، وفي 2 نوفمبر 1954 اعتقل من جديد وهنا حاول الاستعمار استغلاله لكنه لم ينجح، كل هذه الأعمال لم تثنه عن العمل لفائدة الوطن، حيث شارك في الثورة بأمواله وأعماله، سريًا. وقدّم كل ما في قدرته ماديًا وأدبيًا سواء في قسنطينة أو مسقط رأسه. وانتقل إلى رحمة الله في 1982/12/28 بقسنطينة حيث يوجد ضريحه.

---

1 – جريدة العصر الأسبوعية، العدد 14، السنة الأولى، 9 جويلية 1981، ص 5.

### 6 – الشيخ يحي حمودي (1883 – 1972) (1)

ولد سنة 1883 في بني ورتلان، واسمه الحقيقي آيت حمودي يحي، سُمي باسم جده صاحب زاوية أولماثان، بني ورتلان. نشأ في أسرة علمية دينية قرب سيدي عيش، تلقى العلم في البداية على يد والد الشيخ عبد الله حمودي، ثمّ على يد الشيخ مصباح من بني يعلى ناحية قنزات.

تتلمذ على الشيخ السعيد البهلولي. وعندما انطلقت الحركة الإصلاحية بالمنطقة. انخرط الشيخ في صفوفها وانتخب عضوًا إداريا في جمعية العلماء. وهو من المصلحين البارزين في ناحية بني ورتلان بلا منازع. وللشيخ مكتبة تحوي مقامات الحريري المكتوبة بخط ذهبي. وكان يعقد الجلسات ويحاضر باللغتين العربية والقبائلية، ويذكر السيد محمد أمين آيت حمودي أن عدد المخطوطات التي في حوزة الشيخ قد بلغ 21 مخطوطًا فيها كلّ ما هبّ ودبّ ولاسيما الفقه المالكي. وإن كانت هذه المخطوطات ليست من تأليف الشيخ لأنه كان قليل الكتابة، فإنّها قد تساعد القارئ على أخذ فكرة عن جو ومحيط العائلة التي نشأ فيها الشيخ يحي حمودي. وكان مفتيًا للناحية ومعلما للطلبة ومات إمامًا بمسجد الطالون بالعاصمة، بتاريخ 28 فيفري 1972.

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي:

1 – الأستاذ محمد الأمين، الموظف بالإذاعة والتلفزة الجزائرية، بتاريخ 28 مارس 1982.

2 – مراسلة من نفس الأستاذ بتاريخ 1982/4/04.

3 – معلومات شفوية من الحاج السعيد معزوزي، أحد أعضاء الحركة الإصلاحية في ناحية برج أم نائل، بتاريخ 1981/9/25م.

4 – الشيخ عبد المجيد يخلف مدير الشؤون الدينية في بجاية (معلومات شفوية) بتاريخ 1981/12/31م.

5 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، مقابلة شخصية بتاريخ 1981/3/30م.

### 7- الشيخ محمد بن منصور (1889 – 1952) [1]

ولد بسيدي عقبة، واسمه الكامل محمد بن صالح بن بلقاسم بن أحمد بن الشريف الناصري المنصوري.

تلقى تعليمه الأول على يد والده الشيخ الصالح بن بلقاسم الذي كان عالما وفقيها. كما تتلمذ على الشيخ حمدان الونيسي. وفي سنة 1904 التحق بالزيتونة ومنها ذهب الى المشرق العربي فزار سوريا والمدينة المنورة وفي سنة 1910 هاجرت اسرة الشيخ إلى الحجاز، هروبًا من سياسة الاستعمار الرامية إلى فرنسة الشباب الجزائريين. وبعد أن قضى أعوامًا بالمشرق وخصوصًا بالحرمين الشريفين قفل راجعا إلى مسقط رأسه بلدة سيدي عقبة (ناحية بسكرة) ثمّ ساقه المقدور لبلدة برج أم نائل. بطلب من نخبة من أعيانها. وبقي بمسجده خطيبا وواعظا ومدرسا مدة تربو عن 20 سنة إلى ان وافاه أجله وانتقلت روحه إلى الخلد وبقيت ذكراه للخلود. وذلك بتاريخ 2 نوفمبر سنة 1952م.

---

1 - معلومات شفوية أدلى بها لي:

1- السيد عبد المجيد منصوري (نجل الشيخ منصوري) بتاريخ 1982/01/22.

2 – السيد الحاج السعيد معزوزي، بتاريخ 1981/9/25.

3 – الشيخ أحمد بن بلقاسم إمام مسجد برج أم نائل بتاريخ 25 سبتمبر 1981م

### 8- الشيخ الهادي الزروقي[1]

من مواليد بني وغليس ناحية سيدي عيش، تلقى تعليمه الأولى في زاويتهم "أحمد زروق" ثمّ زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي "بالقبائل الكبرى" وأخيرًا التحق بالزيتونة.

أسس مدرسة حرة بجاية قبل تأسيس جمعية العلماء، بادر إلى نشر العلم على الطريقة العصرية وبعد تأسيس جمعية العلماء 1931 انخرط الشيخ فيها وكان من أبرز المصلحين ببجاية وواديها. وللشيخ مقالات إصلاحية نشرها في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

توفي في حسين داي بالجزائر العاصمة قبل انتهاء الثورة المباركة بتاريخ 1959.

---

1 - معلومات شفوية أدلى بها لي:

1 - الأستاذ السعيد بن العربي الزروقي (نجل الشيخ) الموظف بولاية الجزائر، بتاريخ 1982/3/28.

2 - الأستاذ مولود الطياب، المسؤول بوزارة التربية، بتاريخ 1982/3/21.

3 - الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، بتاريخ 1981/4/29.

4 - الشيخ عيسى قدور الإمام بمسجد باب الوادي، بتاريخ 1982/01/15.

5 - مراسلة من الشيخ المهدي البوعبدلي، من وهران بتاريخ 1981/3/07.

6 - البصائر، العدد 154، السنة 4، 1939/02/24، ص 1.

7 - البصائر، العدد 39، السنة 10، 1949/10/31، ص 10.

**9- الشيخ المولودي الحافظي الأزهري (1895 – 1948) (1)**

من مواليد قرية "بوقاعة" القريبة من سطيف، بدأ التعليم في الكتاب ثمّ سافر إلى مصر، حيث أتمّ دراسته بالأزهر الشريف، بدأ نشاطه الإصلاحي والصحفي منذ سنة 1925. وكان من أنصار جمعية العلماء لو لم تغتره فرنسا بالمال والجاه. وفي سنة 1932 أسس جمعية علماء السنة لمنافسة جمعية العلماء المسلمين. وكان رئيس تحرير جريدة "الإخلاص" لسان حال هذه الجمعية. وكان عالمًا فلكيًا لا يشق له غبار في الشرق وفي الغرب. ومن آثاره: الساعات الشمسية، والربع المقنطر المجيب حول دوران الأرض والشمس والأفلاك الأخرى.

وله مقالات كثيرة في الدين والاجتماع، وفي الإصلاح. ويعد من أغزر الكتاب تحريرًا وأطولهم نفسًا.

---

1 – معلومات شفوية أدلى بها لي:

1 – الشيخ عبد المجيد يخلف بجاية، بتاريخ 1981/12/31.

2 – جريد الإصلاح، عدد 73، 1948.

3 – مجموعة الشهاب، وادي ميزاب، الإخلاص.

4 – د. محمد ناصر، المقالة الصحفية، نشأتها – تطورها – أعلامها، (1903 – 1931)، ج 2، مرجع سابق، ص 222.

## 10- الشيخ الفضيل الورتلاني [1]

ولد الشيخ الفضيل الورتلاني في 18 فبراير سنة 1906، في بني ورتلان دائرة بوقاعة، في منطقة القبائل الصغرى، من أسرة ماجدة عريقة تنتمي إلى سلالة الإشراف. ولقبه العائلي "حسين" وقد نشأ وترعرع في نسقط رأسه، حيث حفظ القرآن الكريم، تلقى تعليمه الأولى على علماء وفقهاء بلده، أمثال الشيخ السعيد البهلولي الورتلاني، وجده الأعلى (جد والده) المباشر لأبيه هو الشيخ الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المعروفة باسمه (رحلة الورتلاني).

وفي عام 1930 التحق بالدروس العلمية للشيخ عبد الحميد بن باديس، لازم إمام النهضة سنوات فتأثر بمناقبه الخطابية ومواقفه في محاربة الضلال. وكان يصطحبه في بعض رحلاته. ويوصيه بتربية صغار تلاميذ على الثورة، وبعد تأسيس جمعية العلماء انضم في صفوفها. فكان من أبرز المصلحين بلا منازع، وفي عام 1936 شد الرحال إلى باريس وهناك أسس مدارس وأندية للتعليم العربي والإسلامي. ونشر الحركة الإصلاحية بين الناس.

وفي أواخر سنة 1938 عقد العزم على السفر إلى القاهرة للإجهار بقضايا وطنه، الدينية والاجتماعية والسياسية، بصفة أخص. ومن الهيئات التي سعى في تكوينها وأسهم

---

- 1

1 – مجلة الثقافة، عدد 34، السنة 6، سبتمبر 1976، ص 49 – 56.

2 – مجلة الرسالة، عدد 4، السنة 1، جانفي 1981، ص 29.

3 – البصائر، عدد 8، السنة 1، سلسلة 2، 1947/9/26، ص 3.

4 – البصائر، عدد 258، 1955، ص 2.

5 – البصائر، العدد 174، عام 1951.

6 – الشيخ الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، بيروت، 1963، ص 494، 508.

في نشاطها بحظ موفور (اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر) عام 1942. و(جمعية الجالية الجزائرية) و(جمعية الدفاع عن شمال إفريقيا). وقد عاش الشيخ الورتلاني ثائرًا وصار موضع احترام الملوك والأمراء في الشرق العربي. وله أثر كبير في الثورة اليمنية ضد نظام الملك يحي ولما اندلعت شرارة الثورة الجزائرية انضم إلى صفوفها. وهو في تركيا حيث مات ودفن في أنقرة. وله تلاميذ هناك يذكرون بخير.

**11- الشيخ الصادق عيسات (1906 – 1968) [1]**

ولد الشيخ الصادق عيسات بن الحسين العيسى في قرية بوجليل (القبائل الصغرى) عام 1906. أتم حفظ القرآن على يد والده الشيخ الحسين العيسى، الذي كان من حفظة القرآن، وأخيرًا التحق بدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، كرّس حياته كلها في خدمة العلم والدين. وبعد أن تأسست جمعية العلماء سنة 1931 انضم إلى صفوفها. وقد كان رحمه الله كثير التجوال ببلاد القبائل لتأسيس المدارس الإصلاحية، كمدرسة تازمالت ومدرسة بوجليل وغيرها من المدارس الإصلاحية التي أسسها سنة 1954، علّم بزاوية الموفق قرب صدوق. وبعد الاستقلال عين مفتشا للتعليم الأصلي والشؤون الدينية، ثمّ عضوًا بالمجلس الإسلامي الأعلى، إلى أن استجاب لنداء ربه سنة 1968، ودفن في قرية بوجليل.

---

1 -

1 – الأستاذ محمد الشريف الحسيني (معلومات شفوية) بتاريخ 23 مارس 1982.

2 – الأستاذ محمد الطاهر فضلاء، بتاريخ 1981/01/29.

3 – الشيخ محمد الطاهر شنتير إمام مسجد بئر مندرايس (معلومات شفوية)بتاريخ 1982/5/2.

4 – الشيخ عيسلي قدور، إمام مسجد باب الوادي، بتاريخ 25 جانفي 1982.

5 – الشيخ محمد الصالح الصديق، معلومات شفوية بتاريخ 1980/4/04.

6 – الشيخ علي شنتير، معلومات شفوية بتاريخ 1981/9/15.

## 12 – الشيخ باعزيز بن عمر (1906 – 1977) [1]

ولد بقرية آيت أحمد ناحية أزفون، ولاية تيزي وزو. من أسرة اشتهرت بالتقوى، وحب العلم. كان والده الشيخ عمر من فقهاء الناحية ورجالها المصلحين الذين قضوا أعمارهم في تعليم القرآن وتربية الناشئة، وتوجيه الناس التوجيه الإسلامي.

أتم حفظ القرآن الكريم على يد والده. ولما كان ملمًا بالمبادئ الأولية في اللغة والفقه أدخله والده إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي بجرجرة، قضى فيها فترة كان مثار إعجاب الطلبة سلوكًا ونشاطًا واجتهادًا، كان الشيخ باعزيز وهو بالزاوية المذكورة على اتصال دائم بالنهضة العلمية والإصلاحية التي كان يقوم بها الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وذلك بحكم مداومته لقراءة الصحف والمجلات. تتلمذ على الأستاذ ابن باديس مدة طويلة وبعدها التحق بالزيتونة لمواصلة دراسته، وبعد عودته انضم إلى صفوف جمعية العلماء. انصرف الشيخ إلى الصحافة فكتب في عدة صحف ومجلات لاسيما البصائر والشهاب، والمرصاد والثبات، بالإضافة إلى عمله الصحفي، فللشيخ تآليف هامة منها "دروس في التربية" و"دروس في القواعد" و"رحلتي إلى الحج" مخطوط. كان يقوم بالتعليم في مدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة، ثمّ مدرسة الأبيار عام 1947. وقد استمر في عمله هذا راضي البال مطمئن النفس مرتاح الضمير، حتّى انتقل إلى جوار ربه يوم الخميس 5 ماي 1977، رحمه الله.

---

1 –

1 – البصائر، عدد 10، 1947، ص 7.

2 – الشهاب، سنة 1936.

3 – مجلة أول نوفمبر، العدد 38، سنة 1979م، مرجع سابق، من ص 23 حتّى 25.

معلومات شفوية أدلى بها لي الشيخ إسماعيل بن الزكري (صهر الشيخ باعزيز) بتاريخ 1981/6/15.

4 – د. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 240.

### 13 – رابح بونار (1923 – 1974) [1]

ولد في قرية أرجاونة المشرفة على مدينة تيزي وزو، كان تعليمه الأول في مسقط رأسه. ولما بلغ سن السادسة أدخله جده لأمه إلى كتاب القرية وفيها حفظ ما تيسر من القرآن. ثمّ التحق بزاوية الشيخ الطيب (بني زغوين) قرب دلس، قرأ القرآن فيها على يد الشيخ المذكور، المعروف بحفظه الجيد للقرآن الكريم. والشيخ الطيب هذا من قرية (تلا التغراست) القريبة من غابة ميزرانة. وقد كان الشاب بونار كثير التنقل والتجوال بين زوايا المنطقة منها زاوية الشيخ الطيب وزاوية الشيخ الشريف (بتميليلين) الواقعة بين أزفون وتيقزيرت، ثمّ زاوية سيدي عمرو شريف بسيدي داود قرب دلس.

أتم حفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز الخامسة عشر وفي زاوية سيدي عمرو الشريف أخذ الشاب مبادئ عامة في قواعد اللغة العربية والشريعة الإسلامية، والتصوف الإسلامي، وكان ذلك في الفترة ما بين (1937 – 1940) ومن جملة المشايخ الذين تتلمذ عليهم في هذه الزاوية، الشيخ عباس ، والشيخ مرزوق بن الشيخ الحسين. واستجابة لرغبته الشديدة في طلب العلم قصد الشرق الجزائري وهناك التحق بمدرسة تبسة، حيث يوجد الشيخ العربي التبسي. وقد أظهر خلال هذه الفترة نشاطًا متزايدًا مما جعل الشيخ ينتدبه للتعليم في مدرسة (الكويف) الواقعة على الحدود التونسية الجزائرية. وفي سنة 1941 شد الشاب الرحال إلى جامع الزيتونة لمتابعة دراسته هناك، وظل به إلى غاية 1944.

وفيه حصل على شهادة الأهلية، لكن ظروف الحرب العالمية الثانية حالت دون مواصلة دراسته، حيث عاد إلى وطنه. وفي سنة 1950 عيّن مدرسا للغة العربية بمدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبعد الاستقلال عيّن أستاذًا بثانوية الإدريسي بالجزائر العاصمة. وفي سنة 1963 التحق بالجامعة وفيها حصل على شهادة الكفاءة المهنية للتعليم الثانوي ثمّ شهادة الليسانس في الحقوق سنة 1969.

---

1 – انظر الكلمة التي أبّنه بها الأستاذ سي محمد الصغير خروبي بتاريخ 1974/10/25.

وللأستاذ تآليف كثيرة ومفيدة منها ما تم طبعه، ومنها ما هو تحت الطبع ومن هذه التآليف:

1 – تحقيق كتاب "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" للإمام محمد بن عبد الكريم التلمساني المتوفى سنة (909هـ/1509م).

2 – تحقيق كتاب "عنوان الدراسة للغبريني" المتوفى (704هـ/1304م).

3 – الطريف في النحو والصرف والإملاء للسنة الأولى من التعليم المتوسط.

4 – المطالعة العربية للسنة الرابعة المتوسطة.

وهناك كتب أخرى تحت الطبع لدى الشركة الوطنية وهي:

1 – جمع جوامع الاختصار والتباين فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان.

2 – تاريخ بايات وهران المتأخرين لمسلم عبد القادر الوهراني.

3 – ديوان بن عبد الله المنداسي.

وهناك كتب سلّمها إلى الناشر شريف الأنصاري (بيروت) ليتولى طبعها وهي:

1 – تاريخ قسنطينة لأحمد المبارك.

2 – كتاب "زهر الآداب" لمسلم عبد القادر وبن جواد.

3 – خلاصة التاريخ الإسلامي.

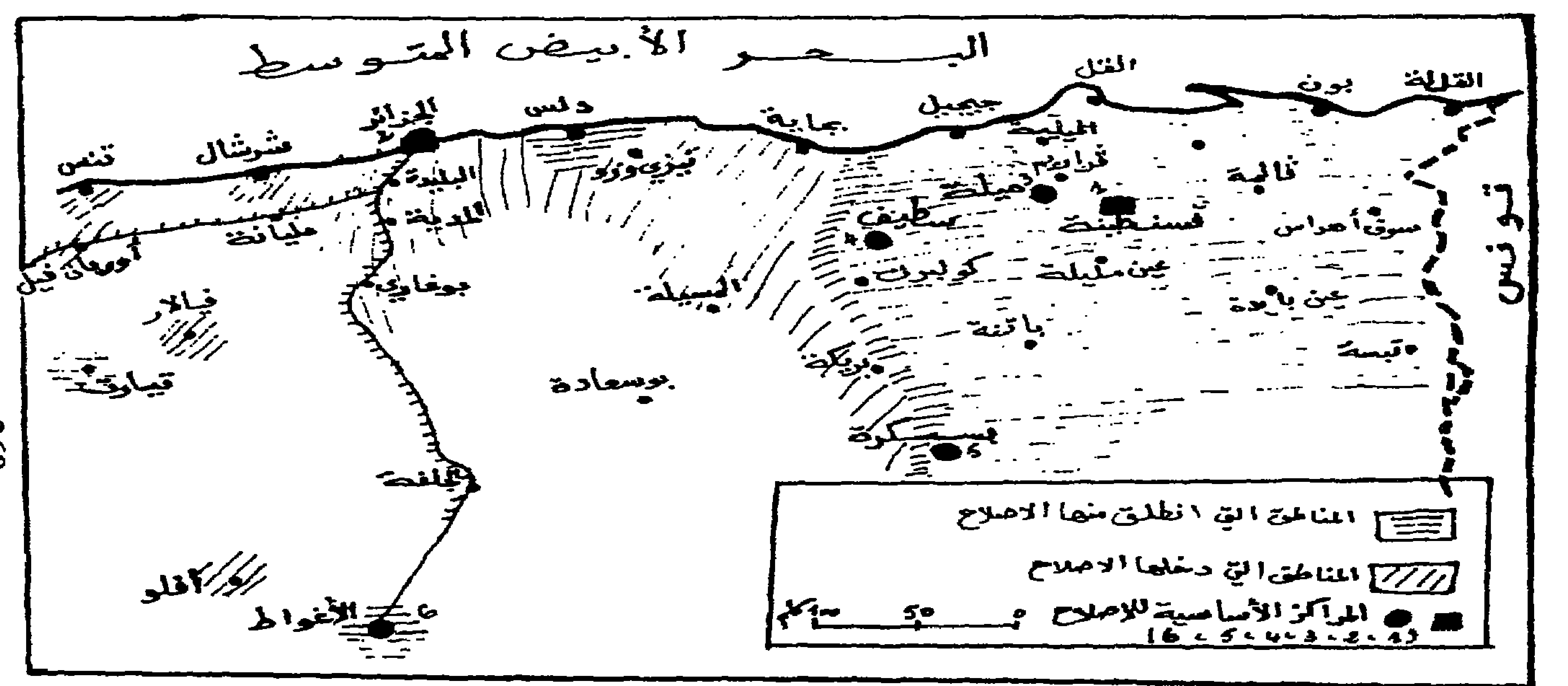
4 – نبذة عن تاريخ الجزائر.

5 – كتاب المغرب العربي (مطبوع).

هذا فضلا عن المقالات التي كان ينشرها في الصحافة الوطنية. والجدير بالذكر أن الأستاذ رابح بونار كان بصدد تحضير أطروحة لنيل الدكتوراه الحلقة الثالثة تحت عنوان "ابن خميس شاعر تلمسان في القرن السابع الهجري" هكذا كانت حياة الأستاذ بونار رغم قصرها مليئة بالأعمال الجليلة في سبيل خدمة العلم والثقافة والحضارة، إلى أن اختاره الرفيق الأعلى إلى جواره سنة 1974 رحمه الله.

ملحق رقم (7): الخرائط والزوايا والكنائس في منطقة القبائل:

خريطة انتشار الإصلاح* عام 1935[1].



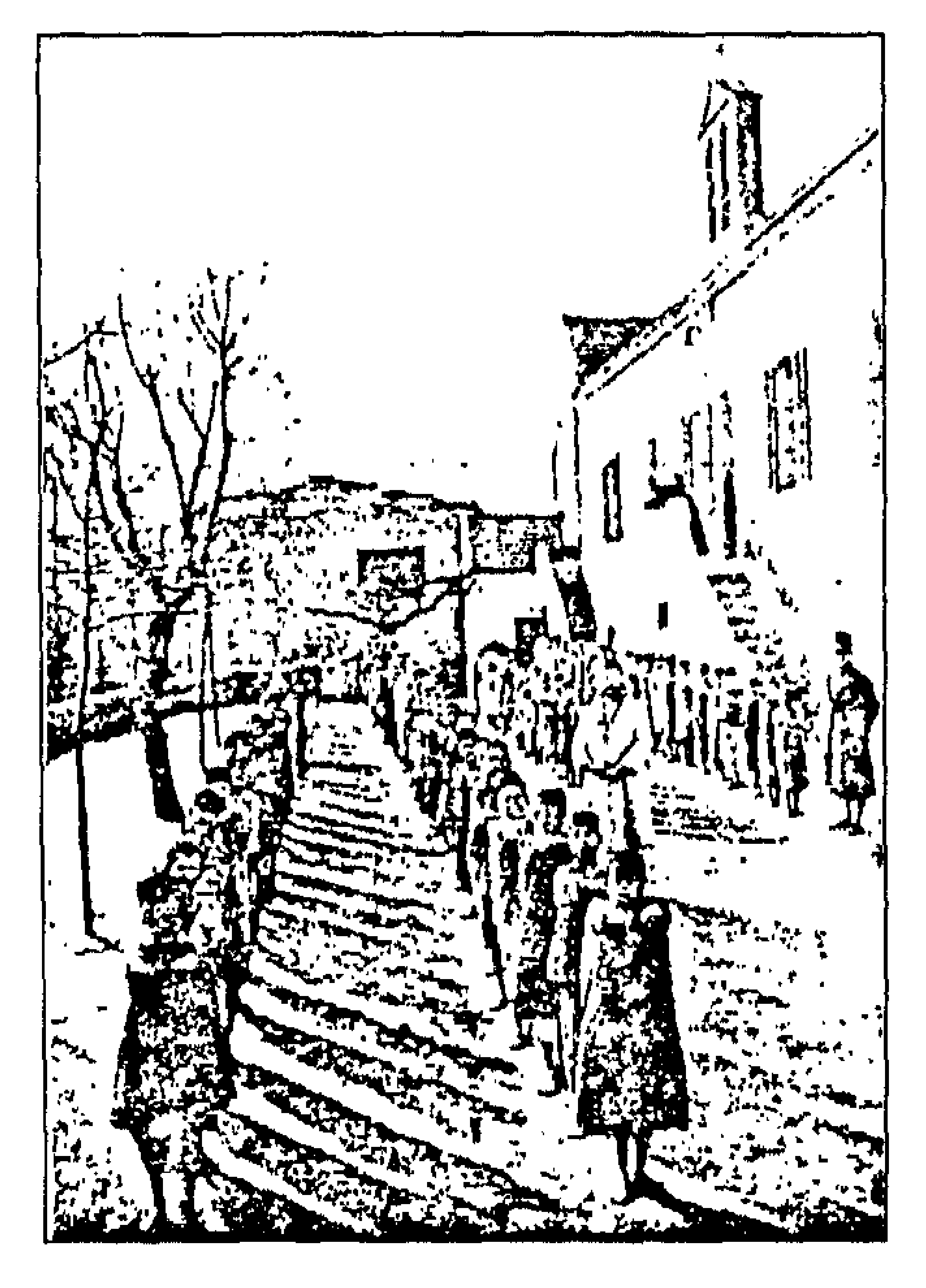

*شرق ووسط الجزائر

---

1-علي مراد: الإصلاح الإسلامي في الجزائر. مرجع سابق ص 194.



Kabylie



Une soeur blanche et les petites élèves de son école ménagère.

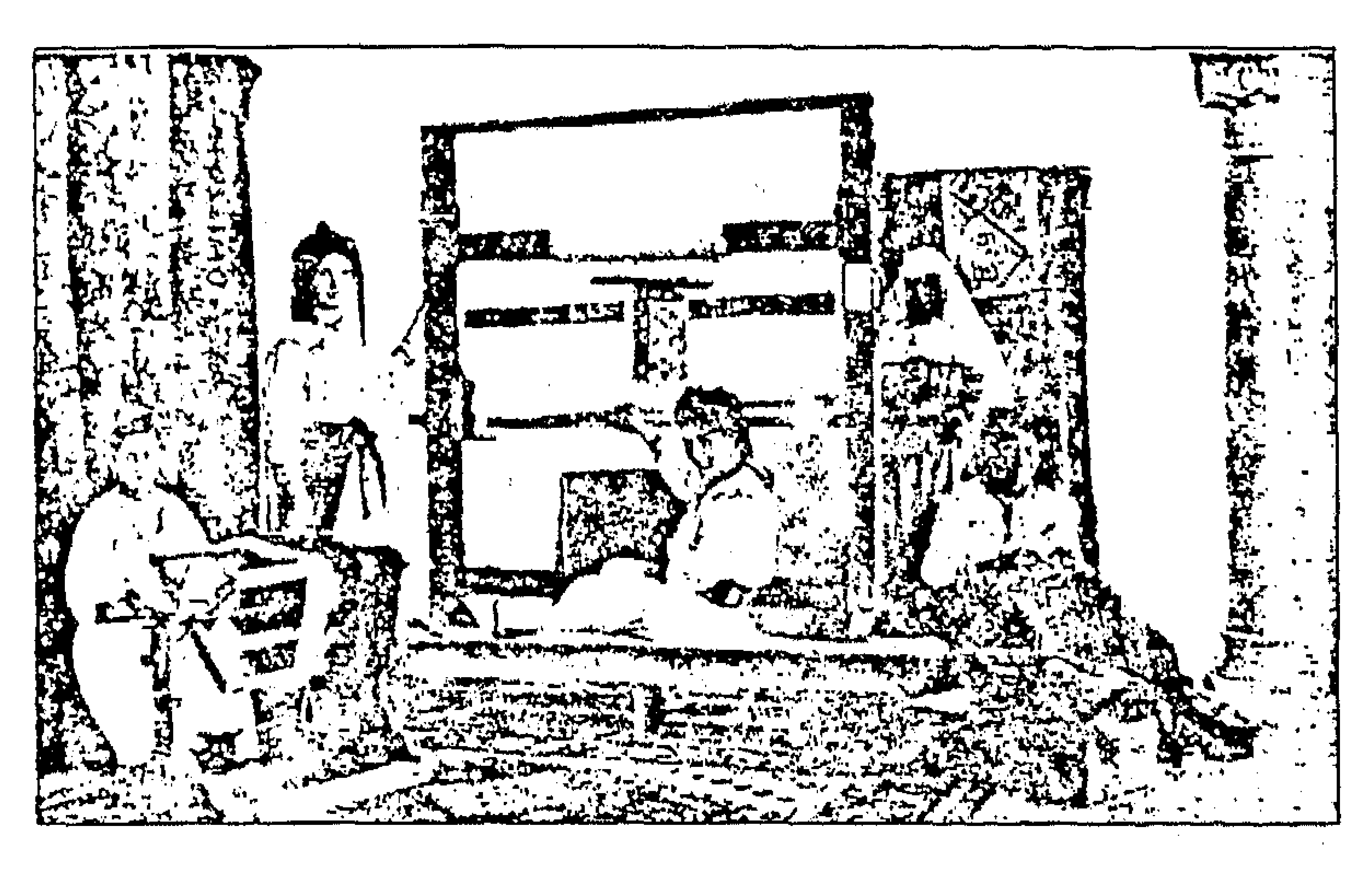
✦

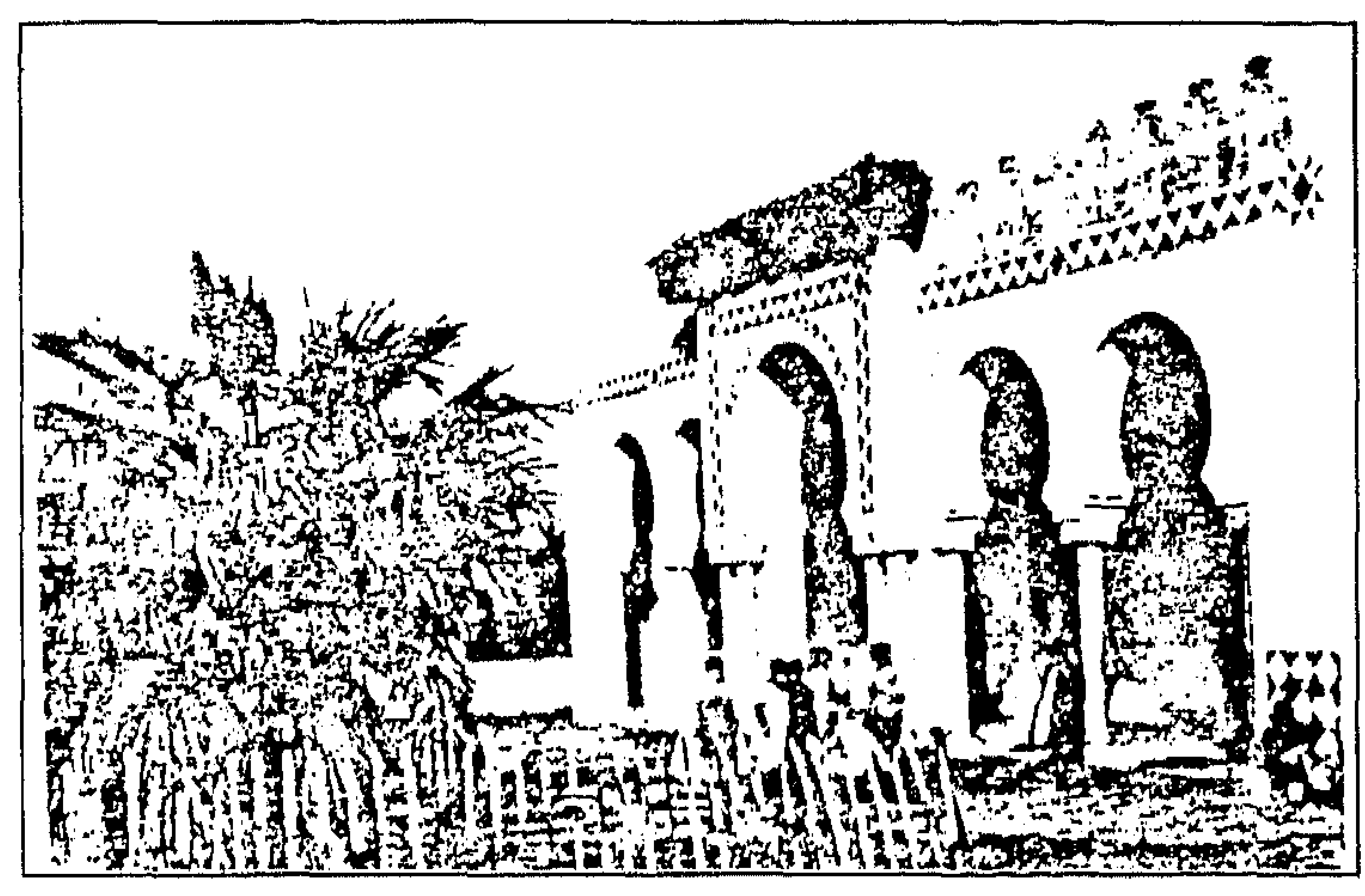
Ecole des Ouad'hias

-اهتم المبشرون من الآباء البيض بالتعليم في منطقة القبائل اعتقادا منهم بأنه وسيلة هامة للوصول إلى التنصير.

-تمثل الصورة الأولى راهبة مع تلميذات مدرستها للشؤون المنزلية.

-وتمثل الصورة الثانية مدرسة في قرية (واضية).





Kabylie
Internat de Ouaed-Aïssi
En bas: L'école des garçons.
En haut: l'ouvroir des jeunes filles.

-داخلية واد عيسي تيزي وزو.

-في الأسفل مدرسة الذكور.

-في الأعلى مأوى للفتيات.



(1)



Un groupe de chrétiennes des Ouad'hias

✦

Une mère chrétienne et sa fille en première communiante.

(2)

-الصورة (1) تمثل مجموعة من المسيحيين العرب في قرية واطية.

-الصورة (2) تمثل أما مسيحية وبين يديها ابنتها الصغرى.



Jaune ménage
chrétien de
Bou-Nouh

(1)

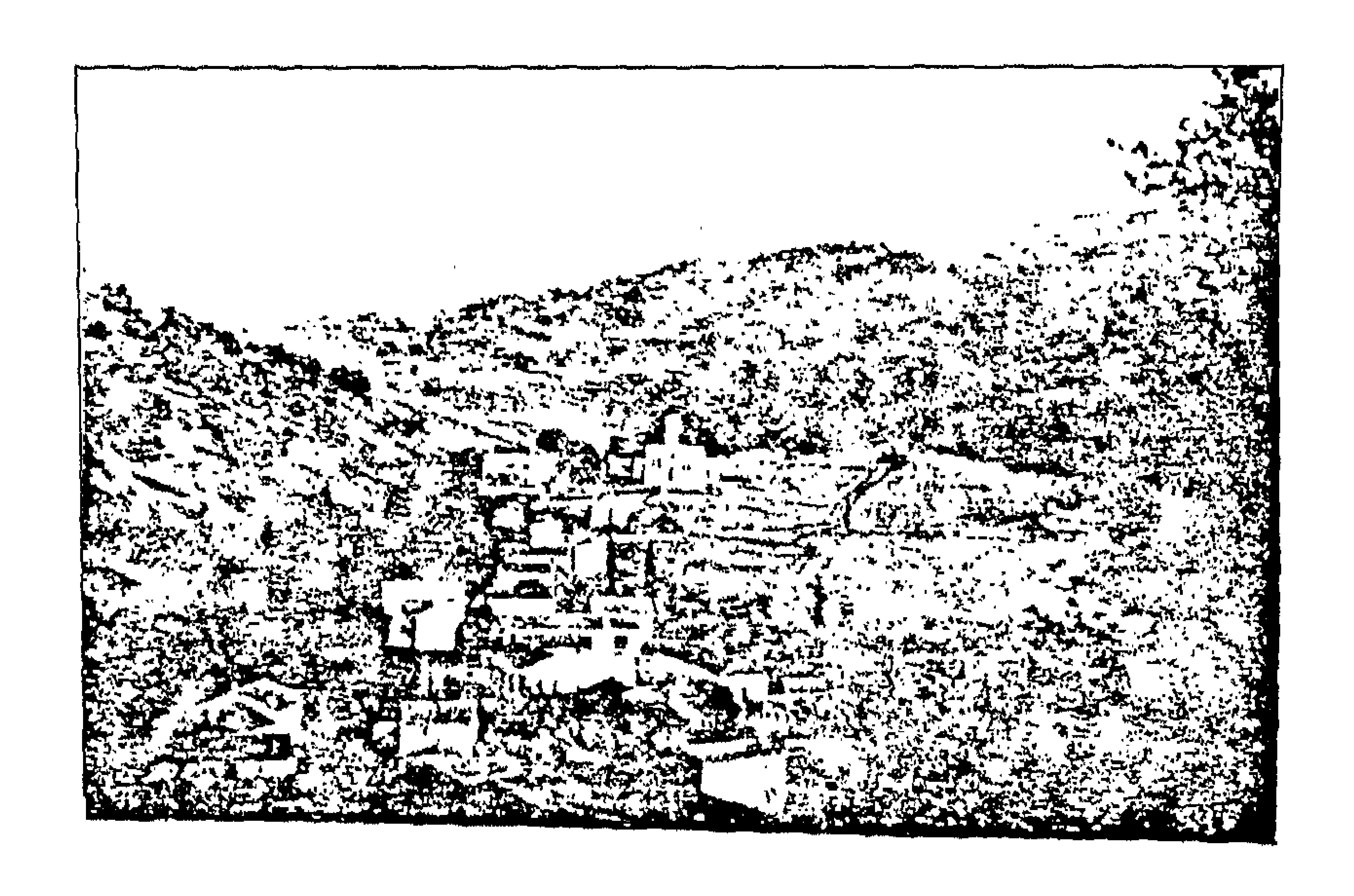


(2)

Famille
chrétienne
à Ouarzen
(Michelet)

-الصورة(1) تمثل أسرة مسيحية في بونوح دائرة ذراع الميزان.

-الصورة (2) تمثل عائلة مسيحية في واغزن بعين الحمام (ميشلي سابقا)



Kabylie

Le village de Bou-Nouh (Tribu des aït-Ismail)

au 1er plan : maison du village et poste des pères Blancs.

au 2ème plan : à gauche, les sœurs blanches; à droite; l'église.

au fond, les crêtes du djurdjura.

-قرية بونوح (قبيلة آيت إسماعيل).

-في واجهة الخريطة منازل القرية المذكورة؛ ومقر الآباء البيض.

-إلى يسار الخريطة الأخوات البيض، إلى اليمين الكنيسة

-المنظر الأعلى من الخريطة يمثل مرتفعات جرجرة.

.TIQUET J. -Une expérience des petites colonisation. Les colons chrétiens du cardinale lavigerie, Alger. 1936.p.p.185.189.



تلميذات مدرسة الشبيبة الإسلامية بتيزي وزو التي تأسست حوالي 1942 . مع جماعة من رجال الإصلاح وهم من اليمين: الأستاذ حسن حموتن، بن يوسف خوجة، عمرو حموتن، عمرو حوفان، أرزقي خناف، لونيس بوزار، عمرو زميرلي، أكلي مزبوط، محمد مزيان شراق.

# مراجع البحث

## أوّلا – المراجع باللغة العربية:

### 1 – الاستجوابات:

وقد اعتمدت في جمع مادة هذا البحث على استجوابات كثيرة، وهي في نظري وسيلة هامة للحصول على مادة هذا الموضوع، من المواكبين للحركة الإصلاحية في منطقة القبائل خلال فترة الدراسة (1920 – 1945).


1 – الأستاذ محمد الصالح الصديق، استجواب شفوي بتاريخ 1980/4/04.

2 – الأستاذ محمد الصالح رمضان، استجواب شفوي بتاريخ 1980/6/06.

3 – الشيخ المهدي البوعبدلي، استجواب شفوي بتاريخ 1981/3/07.

4 – الأستاذ إسماعيل بن الزكري، استجواب شفوي بتاريخ 1981/6/15.

5 – الشيخ السعيد الصالحي، استجواب شفوي بتاريخ 1981/7/26.

6 – سي محمد الطاهر أبو يعلى، استجواب شفوي بتاريخ 1981/8/30.

7 – الشيخ علي شنتير، استجواب شفوي بتاريخ 1981/9/15.

8 – الشيخ أحمد بن بلقاسم، استجواب شفوي بتاريخ 1981/9/25.

9 – الشيخ محمد شارف، استجواب شفوي بتاريخ 1981/9/29.

10 – سي الحاج بن يوسف خوجة، استجواب شفوي بتاريخ 1981/10/01.

11 – سي الحاج محمد وعمر شيخاوي، استجواب شفوي بتاريخ 1981/10/21.

12 – الشيخ عبد المجيد يخلف، استجواب شفوي بتاريخ 1981/12/31.

13 – الشيخ محمد الطاهر فضلاء، استجوابات شفوية كثيرة بتاريخ: (1981/3/30)، (1981/4/29)، (1981/7/21)، (1981/9/29)، (1982/3/07).

14 – سي الحاج السعيد معـــزوزي، اســتجوابات شــفوية كثيــرة بتـــاريخ: (1981/9/25)، (1981/9/29)، (1982/1/22).

15 – الأستاذ حسن حموتن، استجواب شفوي بتاريخ 1982/01/10.

16 – سي محمد الصغير فرج، استجوابات كثيرة.

17 – الشيخ عيسى قــدور، اســتجوابات شــفوية بتـــاريخ: (1982/01/15)، (1982/01/25)، (1983/5/25).

18 – سي عبد المجيد منصوري، استجواب شفوي بتاريخ 1982/01/22.

19 – الأستاذ مولود الطياب، اســتجوابات شــفوية بتـــاريخ: (1981/8/23)، (1982/3/21)، (1982/3/29).

20 – الأستاذ أحمد بن حميدة، استجواب شفوي بتاريخ 1982/3/27.

21 – سي السعيد بن العربي الزروقي، استجواب شفوي بتاريخ 1982/3/28.

22 – الأستاذ بوعلام شريفي، استجواب شفوي بتاريخ 1982/3/28.

23 – الأستاذ محمد الأمين حمودي، استجوابات شــفوية بتـــاريخ: (1982/3/25)، (1982/4/28).

24 – الشيخ محمد الطاهر شنتير، استجواب شفوي بتاريخ 1982/5/02.

25 – الشيخ علي شاب الله، اســتجوابات شــفوية بتـــاريخ: (1983/4/05*)، (1983/4/25).

26 – الشيخ مولود أيمون، استجواب شفوي بتاريخ 1983/5/05.

27 – الشيخ علي اكعيبشان، استجواب شفوي بتاريخ 1983/5/05.

28 – الدكتور أبو القاسم سعد الله، استجواب شفوي بتاريخ 1983/6/10.

29 – الشيخ يوسف يعلاوي، استجواب شفوي بتاريخ (1983/8/23).

**2 – الكتب:**

1 – آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الجزائر، 1978.

2 – أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف (جزءان)، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1910.

3 – د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900 – 1930)، منشورات دار الآداب، بيروت، 1969.

4 – ـــــــــــــ: الحركة الوطنية الجزائرية (1930 – 1945)، الجزء الثالث، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية 1975.

5 – ـــــــــــــ: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 1978.

6 – ـــــــــــــ: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، (16 – 20م)، (جزءان)، الجزائر، 1981.

7 – أحمد بن أحمد أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر، بدون تاريخ.

8 – أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1956.

9 – ـــــــــــــ: كتاب الجزائر، دار الكتاب الجزائري، الطبعة الثانية، 1963.

10 – د. أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية (1962 – 1972)، ترجمة د. حنفي بن عيسى، الجزائر، 1972.

11 – أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصر في شمال إفريقيا، دار الطباعة، القاهرة، 1965.

12 – ـــــــــــــ: الفكر العربي المعاصر، معركة التعريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة، مصر، بدون تاريخ.

13 – جوان غيليسي: الجزائر الثائرة، تعريب خيري حماد، دار الكتاب، بيروت، 1961.

14 – حزب جبهة التحرير الوطني، ميثاق الجزائر، الجزائر سنة 1964.

15 – خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية في الجزائر (1830 – 1871)، رسالته تقدمت بها لنيل دبلوم الدراسات المعمقة/قسم التاريخ، الجزائر 1977 (غير منشورة).

16 – د. رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الطبعة الأولى، الجزائر، 1975.

17 – ــــــــــــ: الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، بدون تاريخ.

18 – ساطع الحصري: حوليات الثقافة العربية، دار الرياض للطباعة والنشر، 1951.

19 – سعيد بن أحمد بن الزكري الجنادي الزواوي: أوضح دلائل في وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1903.

20 – شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرين، الدار التونسية للنشر، 1976.

21 – د. صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية، الجزائر، بدون تاريخ.

22 – عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، الطبعة الأولى، الجزائر، 1971.

23 – عبد الحميد بن باديس: حياته وآثاره، إعداد وتصنيف د. عمار الطالبي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة، دمشق، 1968.

24 – عبد الحميد زوزو: دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين (1919 – 1939)، الجزائر، بدون تاريخ.

25 – عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، (1931– 1945)، قسنطينة، 1981.

26 – د.عبد الله ركيبي: الشعر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981.

27 – ________: القصة الجزائرية القصيرة، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981.

28 – د. عبد الله شريط ومحمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965.

29 – د. عمار الطالبي: محمد بن أبي القاسم البوجليلي وكتابه "التبصرة في القراءات العشر"، محاضرة ألقاها في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة، 1981.

30 – عمر صدوق: قضية الصحراء الغربية في إطار القانون الدولي والعلاقات الدولية، أطروحة ماجستير غير منشورة، الجزائر، 1982.

31 – غوستاف لوبون: روح القوانين، ترجمة محمد عادل زعيتر، الطبعة المصرية، مصر، بدون تاريخ.

32 – فرحات عباس: ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، الرباط، بدون تاريخ.

33 – الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، دار الطباعة والنشر، بيروت، 1963.

34 – كوليت وفرانسيس جانسون: الجزائر الثائرة، ترجمة علوي شريف، وزارة الإرشاد المصرية، 1975.

35 – لاشولية: الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب بمساعدة اليافي، ط 1، القاهرة، 1967.

36 – محمد إبراهيمي الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980.

37 – محمد البشير الإبراهيمي: (محرر) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، المطبعة الجزائرية الإسلامية، 1935.

38 – ـــــــــ: عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.

39 – د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغر . الطبعة سادسة، مزيدة ومنقحة، بيروت، 1973.

40 – ـــــــــ: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الطبعة الأولى، بيروت، بدون تاريخ.

41 – محمد الصالح الصديق: الجزائريون في الماضي والحاضر، القاهرة، 1960.

42 – محمد سي يوسف: مقاومة الاختلال الفرنسي بمنطقة القبائل "ثورة الشريف بوبغلة" 1850 – 1854، رسالة تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات المعمقة/قسم التاريخ، الجزائر، 1981 (غير منشورة).

43 – محمد صبحي الدجاني: الحركة السنوسية، نشأتها – تطورها، القاهرة، 1967.

44 – محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، الجزائر، 1971.

45 – د. محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها – تطورها – إعلامها، (1903 – 1931)، (جزءان)، الجزائر، 1978.

46 – ـــــــــ: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزائر، 1979.

47 – المركز الجزائري للإعلام والثقافة، النصوص الكاملة لميثاق الثورة الزراعية، بيروت، 1972.

48 – د. مصطفى خالد وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الخامسة، بيروت، 1975.

49 – د. نفوسة سعد: تاريخ الدعوة إلى العامية، دار المعارف، القاهرة، 1964.

50 – د. نور الدين ساطوم: يقظة القومية العربية، محاضرات ألقاها على طلبة المعهد، دار النشر، جامعة الدول العربية، 1968.

51 – د. نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب جامعة الجزائر، 1965.

52 – هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال إفريقيا، ج 2، ترجمة د. أبو العيد دودو، الجزائر، بدون تاريخ.

53 – د. يحي بوعزيز: ثورة 1871 ودور عائلتي المقراني والحداد، الجزائر، بدون تاريخ.

54 – يونس درمونة: المغرب العربي في خطر، القاهرة، 1956.

**3 – الدوريات:**

1 – جريدة "الصديق" الجزائرية، العدد الصادر بتاريخ 1921 تحت رقم 39.

2 – جريدة "الإقدام" الجزائرية، العدد 90، 1922/8/04.

3 – جريدة "النجاح" الجزائرية، العدد 186، سنة 1924.

4 – مجلة "الشهاب" الجزائرية:

– الأجزاء: 13، 80، 81 لسنة 1926.

– الجزء: 16 لسنة 1927.

– الأجزاء: 5، 6، 14 لسنة 1929.

- الجزأين: 7، 8 لسنة 1931.
- الأجزاء: 1، 2، 5 لسنة 1933.
- الأجزاء: 4، 8، 9 لسنة 1936.
- الجزأين: 1، 13 لسنة 1937.
- الجزء: 11 لسنة 1939.

5 – جريدة "وادي ميزاب" الجزائرية، العدد 80، سنة 1928.

6 – جريدة "البصائر" الجزائرية، العددان: 172، 173 عددان في جريدة واحدة، سنة 1931.

- العدد: 7، السنة 1، لسنة 1933.
- الأعداد: 26، 27، 60، لسنة 1936.
- العدد: 83، السنة 2، لسنة 1937.
- الأعداد: 23، 104، 111، لسنة 1938.
- العدد: 93، 154، سنة 1939.
- الأعداد: 3، 7، 8، 20، سنة 1947.
- الأعداد: 55، 56، 59، 64، سنة 1948.
- العدد: 65، السنة 2، السلسلة 2، سنة 1949.
- العدد: 104، سنة 1950.
- العدد: 235، السنة 2، السلسلة 2، سنة 1952.
- العدد: 2، 3، السنة 5، السلسلة 2، 1953.
- العدد: 294، السنة 7، سنة 1954.

7 – جريدة "السنة المحمدية" الجزائرية، الجزء 13، 19، السنة الأولى، سنة 1933.

8 – جريدة "الشريعة المطهرة" الجزائرية، العدد 1، 1933.

9 – جريدة "المنار" المصرية، المجلد الأول، مصر سنة 1935.

10 – نشرية جمعية التربية والتعليم بقسنطينة سنة 1936.

11 – مجلة "صوت المسجد" شهرية دينية، علمية أدبية، اجتماعية، تاريخية، أخلاقية، أسسها الشيخ محمد العاصمي في الثلاثينيات.

12 – مجلة "كلية الآداب"الجزائرية، العدد 1، السنة 1، سنة 1964.

13 – مجلة "مجمع اللغة العربية"، العدد 21، القاهرة سنة 1966.

14 – مجلة "الأصالة" الجزائرية، العدد 2، 3، السنة 1، سنة 1971.

– العدد: 6، 8، سنة 1972.

– العدد: 16، السنة 3، سنة 1973.

– العدد: 22، السنة 3، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر سنة 1974.

– الأعداد: 14، 15، 23، السنة 2، سنة 1975.

– الأعداد: 8، 39، 40، سنة 1976.

– العدد: 36، السنة 6، سنة 1977.

– الأعداد: 58، 59، 79، 80، 81، 82، سنة 1978.

– (عدد خاص بالتعريب)، أوت، سبتمبر سنة 1978.

– الأعداد: 83، 84، 85، 86، سنة 1980.

– العدد: 2، السنة 1، سنة 1981.

15 – مجلة "الرسالة" الجزائرية، العدد 4، السنة 1، جانفي 1981.

16 – مجلة "أول نوفمبر" الجزائرية، العدد 38، سنة 1979.

17 – مجلة "الثقافة" الجزائرية، العدد 22، السنة 1، سنة 1974.

– العدد: 34، السنة 6، سنة 1976.

– العدد: 14، 32، سنة 1977.

- العدد: 63، السنة 11، سنة 1981.
- العدد: 68، 70، السنة 12، سنة 1982.

18 – جريدة "العصر" الجزائرية، الأعداد: 8، 23، 32، 36، سنة 1981.

19 – مجلة "سيرتا" الجزائرية، من إصدار معهد العلوم الاجتماعية، العدد 3، 5، قسنطينة، سنة 1981.

ثانيًا – المراجع باللغات الأجنبية:

1 - AGERON Ch. R., Les Algériens musulmans et la France (1871 – 1914), T 1, Paris, 1968.

2 - AGERON Ch. Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954), T 2, Paris, 1979.

3 - AIT EL MANSOUR Amrouche. Histoire de ma Vie, Paris. 1969.

4 - ANTUNY Philippe, Mission des pères blancs en Tunisie Algérie, Kabylie, Paris, 1931.

5 - BELAMRI Rabah, L'œuvre de Louis Bertrand (miroir de l'idiologie colonialiste), Alger, 1980.

6 - BOULIFA Saïd, Le Djurdjura à travers l'histoire depuis l'Antiquité jusqu'à 1830 : Organisation et indépendance des Zouaoua, Alger, 1925.

7 - Centre des Pères Blancs, Annuaire du Clergé (Années : 13, rue K. Boukhalfa, Alger 1920 à 1931 et 1941 à 1949 et 1950 à 1954).

8 - CHATELAIN Les Pères blancs, En Algérie, La Kabylie et les Oasis, Vivers, 1896.

9 - COLLEVILLE Le Vicomte de, Les grands hommes de l'église au 19è siècle, Paris, 1905.

10 - COLLOT Claude HENRY Robert, Le mouvement national algérien (1912 – 1954) Textes, T 2, Alger, 1981.

11 - COPPOLANI Depont COPPOLANI Xavier, Les confréries religieuses musulmans, Jordan, Alger, 1897, résumé par J. M 1937.

12 - DAUGAS Les Pères blancs, La Kabylie et le peuple Kabyle, Paris, 1877.

13 - DAUMAS Le Général, La grande Kabylie, Etudes historiques, T 1, Paris, Paris, 1847.

14 - ELIE George, La Kabylie du Djurdjura et les Pères Blancs, Paris, 1921.

15 - HANNOTEAU et Le TOURNEAUX, La Kabylie et les coutumes Kabyles, T 1, Paris, 1872.

16 - JUILIEN Ch. André, Les Maroc face aux impérialismes, Paris, 1978.

17 - KADDACHE Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien (1919 – 1951), T 1, et 2, Alger, 1980.

18 - LA SICOTIERE, Rapport fait au nom de la Commission de la défense nationale Versailles, 1875.

19 - MAHSAS Ahmed, Le Mouvement révolutionnaire en Algérie (1918 – 1954), Paris, 1979.

20 - MERRAD Ali, Le réformisme musulman en Algérie (1925 – 1940), Paris, 1967.

21 - RINN Louis, Marabouts et Khouans : étude sur l'Islam en Algérie, Jourdan, Alger, 1884.

22 - ROLLAND Emile, La grande Kabylie à 50 ans, Alger, 1957.

23 - TIQUET J, Une expérience des petites colonisations, Les clins chrétiens du Cardinal Lavigerie, Alger, 1936.

24 - TURIN Yvonne, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale (1830 – 1880), Paris, 1971.

25 - WARNIER, L'Algérie devant l'Empereur, Paris, 186.

# المحتوى

## الفصل الرابع
## بداية الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل 161

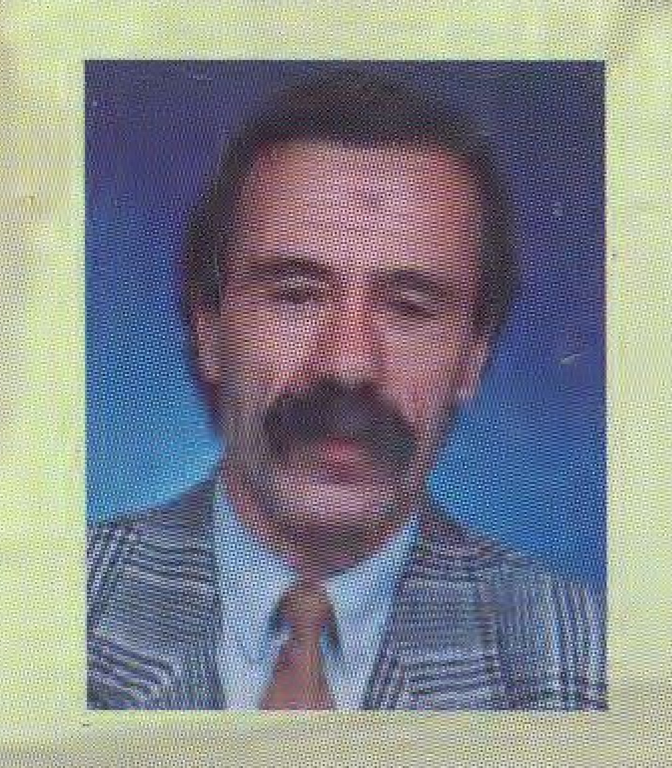


## الفصل الخامس
## الحركة الإصلاحية وأثرها في المنطقة 197



طبع بمطبعة الزيتونة
تيزي وزو، الجزائر

مارس 2007



يتناول هذا الكتاب الصراع الثقافي والحضاري في منطقة القبائل في الفترة (1920 - 1945) بين رجال الإصلاح والمبشرين الفرنسيين، ويكشف في نفس الوقت عن تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والثقافي ويسلط الأضواء على نشاط علمائها في مجالات الدين والفقه والتصوف وغيرها.

وتميزت هذه المنطقة قديما بنشاط ثقافي وحركة علمية استقطبت عددا لا يحصى من رجال العلم والفكر والأدب والثقافة، وكانت المساجد والمعاهد والمؤسسات القرآنية تؤدي دورا دينيا وتعليميا من جهة واجتماعيا وسياسيا من جهة أخرى.

ويعود الفضل إلى هذه المؤسسات في نشر اللغة العربية وحفظ الإسلام في ربوع هذه المنطقة، باعتراف الفرنسيين أنفسهم، الذين أرجعوا فشل سياسة التنصير والفرنسة إلى هذه المقاومة الدينية التي قادت الشعب الجزائري إلى إعلان ثورة التحرير في أول نوفمبر1954.

من مقدمة الكتا







دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع

الهاتف: 026.21.96.55 الفاكس: 026.21.07.21

البريد الإلكتروني: EDITION_ELAMEL @hotmail.com

ردمك: 9961-883-18-7